دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد الخامس

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

الموسوعة القرآنية
خصائص السُوَر

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

الموسوعة القرآنية

خصائص السور

المجلد الخامس

إعداد

جعفر شرف الدين

تقديم

د. عبد العزيز بن عثمان التويجري

مراجعة

الأستاذ أحمد حاطوم　　د. محمد توفيق أبو علي

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون ٢/ ٣٥٠٧٢١ (٠١)
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ (٩٦١١)
e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م

الإخراج الفني: زاهية عاصي

سورة النحل

١٦

أهداف سورة «النحل»(*)

عرض إجمالي للسورة

سورة النحل سورة مكية، وعدد آياتها «١٢٨» آية، وهي سورة هادئة الإيقاع والجرس، ولكنها مليئة حافلة، موضوعاتها الرئيسة كثيرة منوّعة، والإطار الذي تعرض فيه واسع شامل.

وهي، كسائر السور المكية، تعالج موضوعات العقيدة الكبرى: الألوهية، والوحي والبعث، ولكنها تلم بموضوعات جانبية أخرى تتعلق بتلك الموضوعات الرئيسة، تلم بحقيقة الوحدانية الكبرى التي تصل بين رسالة إبراهيم (ع)، ورسالة محمد (ص)، وتلم بحقيقة الإرادة الالهية والإرادة البشرية في ما يختص بالإيمان والكفر والهدى والضلال، وتلم بوظيفة الرسل، وسنة الله في المكذّبين لهم، وتلمّ بموضوع التحليل والتحريم، وأوهام الوثنية حول هذا الموضوع، وتلم بالهجرة في سبيل الله، وفتنة المسلمين في دينهم، والكفر بعد الإيمان، وجزاء هذا كله عند الله، ثم تضيف الى موضوعات العقيدة موضوعات المعاملة: العدل والاحسان، والإنفاق والوفاء بالعهد، وغيرها من موضوعات السلوك القائم على العقيدة، وهكذا هي مليئة حافلة من ناحية الموضوعات التي تعالجها.

فأمّا الإطار الذي تعرض فيه هذه الموضوعات، والمجال الذي تجري فيه الأحداث، فهو فسيح شامل: هو السماوات والارض، والماء الهاطل،

(*) انتُقي هذا الفصل من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

والشجر النامي، والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، والبحار والجبال والمعالم والسبل والأنهار، هو الدنيا بأحداثها ومصائرها، والآخرة بأقدارها ومشاهدها، هو الغيب بألوانه وأعماقه في الأنفس والآفاق.

في هذا المجال الفسيح يبدو سياق السورة وكأنه حملة ضخمة للتوجيه والتأثير واستجاشة العقل والضمير، حملة هادئة الإيقاع، ولكنها متعدّدة الأوتار، ليست في جلجلة سورة الأنعام وسورة الرعد، ولكنها في هدوئها تخاطب كل حاسة وكل جارحة في الكيان البشري، وتتّجه الى العقل الواعي كما تَتجه الى الوجدان الحساس. إنها تخاطب العين لترى، والأذن لتسمع، واللمس ليستشعر، والوجدان ليتأثر والعقل ليتدبّر، وتحشد الكون كله: سماءه وأرضه، شمسه وقمره، ليله ونهاره، جباله وبحاره، فجاجه وأنهاره، ظلاله وأكنانه، نبته وثماره، حيوانه وطيوره، كما تحشد دنياه وآخرته، وأسراره وغيوبه.. كلها أدوات توقع بها على أوتار الحواس والجوارح والعقول والقلوب، مختلف الإيقاعات التي لا ينغلق أمامها إلا القلب الميت والعقل المنكوس، والحس المطموس.

هذه الإيقاعات، تتناول التوجيه الى آيات الله في الكون، وآلائه على الناس، كما تتناول مشاهد القيامة، وصور الاحتضار ومصارع الغابرين، تصاحبها اللمسات الوجدانية، التي تتسرب الى أسرار الأنفس، وأحوال البشر، وهم أجنّة في البطون، وهم في الشباب والهرم والشيخوخة، وهم في حالات الضعف والقوة، وهم في أحوال النعمة والنقمة، كذلك تتّخذ السورة الأمثال، والمشاهد، والحوار، والقَصَص الخفيف، أدواتٍ للعرض والإيضاح.

فأمّا الظلال العميقة التي تلون جو السورة كلّه، فهي الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخالق، وعظمة النعمة وعظمة العلم والتدبير. كلها متداخلة، فهذا الخلق الهائل العظيم المدبر عن علم وتقدير، ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر، لا تلبي ضروراتهم وحدها، ولكن تلبي أشواقهم كذلك، فتسدّ الضرورة، وتتخذ للزينة، وترتاح بها أبدانهم، وتستريح لها نفوسهم، لعلهم يشكرون. ومن ثم تتراءى في

السورة ظلال النعمة، وظلال الشكر، والتوجيهات إليها، والتعقيب بها، في مقاطع السورة، وتضرب عليها الأمثال، وتعرض لها النماذج، وأظهرها نموذج إبراهيم:

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴿١٢١﴾﴾. كل أولئك في تناسق ملحوظ بين الصور والأفكار، والعبارات والإيقاعات، والقضايا والموضوعات نرجو أن نشاهده في أثناء استعراضنا لأجزاء السورة.

التوحيد في السورة

تبدأ سورة النحل بآية مشهورة، تقال كثيراً عندما يحين الأجل، ويقف الإنسان عاجزاً أمام حوادث القدر، يقول سبحانه:

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿١﴾﴾.

ومن أسباب نزول هذه الآية، أنّ أهل مكة كانوا يستعجلون الرسول (ص) أن يأتيهم بعذاب الدنيا أو عذاب الآخرة. وكلما امتدّ بهم الأجل، ولم ينزل العذاب، زادوا استعجالاً، وزادوا استهزاءً واستهتاراً، وحَسِبوا ان محمداً يخوّفهم بما لا وجود له ولا حقيقة، ليؤمنوا له ويستسلموا، ولم يدركوا حكمة الله في إمهالهم، ورحمتَه في إنظارهم، ولم يحاولوا تدبُّر آياته في الكون، وآياته في القرآن.

نِعَمُ الله

تسترسل الآيات في سورة النحل، تستعرض نِعَمَ الله سبحانه على الإنسان، فتذكر خلق السماوات والأرض والإنسان، والأنعام والنبات، والليل والنهار، والجبال والبحار، والشمس والقمر والنجوم، وهي ظواهر طبيعية ملموسة، ولكننا إذا قرأنا الآيات [٣ ـ ١٨] في سورة النحل نجد أننا أمام لوحة كونية معروضة، تنتقل بالإنسان من مشهد الى آخر، وكل مشهد يدل على وحدانية الخالق، ووحدانية المنعم. وتعرض الآيات هذه النعم فوجاً فوجاً، ومجموعة مجموعة.

في الفوج الأول، تتحدّث الآيات عن خَلْق السماوات والأرض، فيقول سبحانه:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الآية ٣].

فالحق قِوام خلقهما والحق قوام تدبيرهما والحق عنصر أصيل في

تصريفهما، وتصريف من فيهما وما فيهما، فما من شيء من ذلك كله عبث ولا جُزاف، بل كل شيء قائم على الحق، وملتبس به، وسائر في النهاية اليه.

ثم تستعرض الآيات نعمة خلق الأنعام، والأنعام المتعارف عليها في الجزيرة العربية كانت الإبل والبقر والضأن والمعز، وقد أباح الله أكلها، أما الخيل والبغال والحمير فللركوب والزينة، ولا تؤكل، ثم يجيء التعقيب على هذه النعمة، بقوله سبحانه:

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

ليظل المجال مفتوحاً في التصوّر البشري لتقبّل أنماط جديدة من أدوات الحمل والنقل والركوب والزينة. إن الإسلام عقيدة مفتوحة مرنة، قابلة لاستقبال طاقات الحياة كلها، ومقدّرات الحياة كافةً، ومن ثم يهيّئ القرآن الأذهان لاستقبال كلّ ما تتمخض عنه القدرة والعلم والمستقبل، استقباله بالوجدان الديني المتفتح المستعدّ لتلقي كل جديد، في عجائب الخلق، والعلم والحياة.

ولقد وجدت وسائل للحمل والنقل والركوب والزينة لم يكن يعلمها أهل ذلك الزمان، وستجدّ وسائل أخرى لا يعلمها أهل هذا الزمان، والقرآن يهيّئ القلوب والأذهان بلا جمود ولا تحجّر، حينما يقول سبحانه وتعالى:

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾.

والفوج الثاني: من آيات الخلق والنعمة، إنزال الماء، وإنبات النبات والمرعى والزرع، التي يأكل منها الإنسان، مع الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من أشجار الثمار.

في الفوج الثالث تتحدث الآيات عن تسخير الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم، وكلها ذات أثر حاسم في حياة الإنسان، ومن شاء فليتصور نهاراً بلا ليل، أو ليلاً بلا نهار، ثمّ يتصوّر مع هذا حياة الإنسان والحيوان والنبات في هذه الأرض كيف تكون، كلّ أولئك طرف من حكمة التدبير، وتناسق النواميس في الكون كله. يدركه أصحاب العقول التي تتدبر وتعقل:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾.

وفي الفوج الرابع من أفواج النعمة فيما خلق الله للإنسان:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا

أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

امتنّ الله سبحانه على عباده، بما خلق لهم في الأرض من ألوان المنافع. وبما أودعه فيها للبشر، من مختلف المعادن التي تقوم بها حياتهم، في بعض الجهات وفي بعض الأزمان، ولفتهم إلى هذه الذخائر المخبوءة في الأرض، المُودَعَة للناس حتى يبلغوا رشدهم يوماً بعد يوم، ويستخرجوا كنوزهم في حينها، ووقتَ الحاجة إليها، وكلما قيل: إن كنزاً منها قد نَفَد، أعقبه كنز آخر أكثر غنًى، من رزق الله المدّخر للعباد؛ قال تعالى:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

ثم امتنّ سبحانه على عباده بالبحر المالح، وما يشتمل عليه من صنوف النعم، «فمنها اللحم الطري من السمك وغيره للطعام، وإلى جواره الحلية من اللؤلؤ ومن المرجان، وغيرها من الأصداف والقواقع».

ومنها مرور السفن تمخر عباب البحر، وتيسّر المصالح، وتبادل المنافع بين الناس، قال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وعندما ينتهي استعراض النعم يبيّن القرآن، أنّ من يَخلُق ليس كمن لا يَخلُق، وأنّ نعم الله على الإنسان لا تعدّ ولا تحصى.

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [الآية ١٨].

وحدة الألوهية

تتعرض الآيات [٢٢ ـ ٥٠] لتقرير وحدة الألوهية فيقول سبحانه:

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الآية ٢٢].

وكل ما سبق في السورة، من آيات الخلق وآيات النعمة وآيات العلم، يؤدي الى هذه الحقيقة الكبيرة البارزة، وهي أن هذا الكون البديع المنظم، لا يحفظ نظامه إلا إله واحد، والذين لا يسلّمون بهذه الحقيقة، قلوبهم منكرة، فالجحود صفة كامنة فيها، والعلة أصيلة في نفوسهم المريضة، وطباعهم المعاندة المتكبرة، عن الإقرار والإذعان والتسليم.

وتختم هذه الآيات، بمشهد مؤثر، مشهد الظلال في الأرض كلها ساجدة لله، ومعها ما في السماوات وما في الأرض من دابة؛ والملائكة قد برئت نفوسهم من الاستكبار، وامتلأت بالخوف من الله، والطاعة لأمره بلا جدال. هذا المشهد الخاشع الطائع، يقابل صورة المستكبرين، المتكبرة قلوبهم، في مفتتح هذه المجموعة من الآيات.

وبين المطلع والختام، يستعرض السياق مقولات أولئك المستكبرين المنكرين للوحي والقرآن، إذ يزعمون أنه أساطير الأولين؛ ومَقُولاتِهم، عن أسباب شركهم بالله، وتحريمَهم ما لم يحرِّمه الله، إذ يدّعون أنّ الله أراد منهم الشر، وارتضاه؛ ومقولاتِهم عن البعث والقيامة، اذ يقسمون جهدهم، لا يبعث الله من يموت، ويتولّى سبحانه الردّ على مقولاتهم جميعاً، ويعرض في ذلك مشاهد احتضارهم، ومشاهد بعثهم، وفيها يتبرّأون من تلك المقولات الباطلة، كما يعرض بعض مصارع الغابرين من المكذّبين أمثالهم، ويخوّفهم أخذ الله لهم في ساعة من ليل أو نهار، وهم لا يشعرون، وهم في تقلّبهم في البلاد، أو بأخذهم وهم على تخوّف وتوقّع وانتظار للعذاب. إلى جوار هذا، يعرض صوراً من مقولات المتبقّين المؤمنين، وما ينتظرهم عند الاحتضار ويوم البعث من طيب الجزاء. . . وينتهي هذا الدرس، بذلك المشهد الخاشع الطائع، للظلال والدواب والملائكة، في الأرض والسماء. والسياق القرآني، يعبّر عن خضوع الأشياء لنواميس الله، بالسجود، وهو أقصى مظاهر الخضوع، ويوجه الى حركة الظلال المتفيّئة، أي الراجعة بعد امتداد، وهي حركة لطيفة خفيفة ذات دبيب في المشاعر والأعماق، ويرسم المخلوقات داخرة أي خاضعة خاشعة، ويضم إليها ما في السماوات وما في الأرض من دابة، ويضيف الى الحشد الكوني، الملائكة، في مقام خشوع وخضوع وعبادة وسجود، قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

أدلة الوحدانية

تستمر الآيات من ٥١ الى ٧٦ في سورة النحل، في إثبات قضية الألوهية الواحدة التي لا تتعدّد، تبدأ فتقرر وحدة الإله ووحدة الملك، ووحدة المنعم، في الآيات الثلاث الأولى متواليات، وتختتم بمثلين تضربهما للسيد المالك الرازق، والعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، ولا يملك شيئاً.. هل يستويان؟ فكيف يُسَوّى الله المالك الرازق، بمن لا يقدر ولا يملك ولا يرزق؟ فيقال: هذا إله وهذا إله؟

وفي خلال هذا الدرس، تعرض الآيات نموذجاً بشرياً للناس، حين يصيبهم الضرّ، فيجأرون إلى الله وحده، وإذا كشف عنهم الضر، راحوا يشركون به غيره.

وتعرض الآيات صوراً من أوهام الوثنية وخرافاتهم، في تخصيص بعض ما رزقهم الله لآلهتهم المدّعاة، في حين أنهم لا يردون شيئاً مما يملكونه على عبيدهم، ولا يقاسمونهم إياه؛ وفي نسبة البنات الى الله، على حين يكرهون ولادة البنات لهم:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨﴾.

وفي الوقت الذي يجعلون لله ما يكرهون، تروح ألسنتهم تتشدّق بأنّ لهم الحسنى، وأنهم سينالون على ما فعلوا خيراً، وهذه الأوهام التي ورثوها من المشركين قبلهم، هي التي بُعِثَ الرسول (ص) ليبيّن لهم الحقيقة فيها، وليخرجهم من ظلمات الشرك الى نور اليقين. ثم تأخذ الآيات في عرض نماذج من صنع الألوهية الحقّة، في تأملها عظة وعبرة، فالله وحده القادر عليها، الموجد لها. وهي هي دلائل الألوهية لا سواها: فالله أنزل من السماء ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها، والله يسقي الناس - غير الماء - لبناً سائغاً، يخرج من بطون الأنعام، من بين فرث ودم، والله يطلع للناس ثمرات النخيل والأعناب، يتخذون منها سَكَراً ورزقاً حسناً، والله أوحى إلى النحل لتتخذ من الجبال بيوتاً، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم تُخرج عسلاً فيه شفاء للناس.

اسم السورة

وقد سميت هذه السورة بسورة النحل، للإشارة الى الأمر العجيب الدقيق في شأن النحل، فهي تعمل

بإلهام من الفطرة التي أودعها إيّاها الخالق، وهذا الإلهام لون من الوحي تعمل النحل بمقتضاه، وهي تعمل بدقة عجيبة، يعجز عن مثلها العقل المفكّر، سواء في بناء خلاياها، أو في تقسيم العمل بينها، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفّى.

وهي تتخذ بيوتها حسب فطرتها، في الجبال والشجر، وما يعرشون أي ما يرفعون من الكروم وغيرها، وقد ذلّل الله لها سبل الحياة، بما أودع في فطرتها، وفي طبيعة الكون حولها، من توافق، قال تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وقد سئل الإمام الشافعي بم عرفت الله؟ قال بالنحلة نصفها يَعْسُل، ونصفها يلسع، وفي الحديث: المؤمن كالنحلة. أي أنه خفيف الظل مترفّع في هدفه، لا يأكل إلا طيّباً، ولا يترك إلا أثراً حسناً، وإذا وقع على شيءٍ لم يكسره. وتستمر الآيات في عرضِ أدلّة القدرة الإلهية، فتذكر أن الله يخلق الناس، ويتوفّاهم، ويؤجّل بعضهم، حتى يشيخ فينسى ما تعلّمه، ويرتدّ ساذجاً لا يعلم شيئاً، والله فضّل بعضَهم على بعض في الرزق، والله جعل لهم من أنفسهم أزواجاً وجعل لهم من أزواجهم بنين وحَفَدَةً، وهم، بعد هذا كله، يعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً في السماوات والأرض، ويجعلون لله الأشباه والأمثال.

هذه اللَّمَسَات كلُّها في أنفسهم وفي ما حولهم. يوجههم إليها، لعلّهم يستشعرون القدرة، وهي تعمل في ذواتهم، وفي طعامهم، وفي شرابهم، وفي كل شيء حولهم. وفي كل شيء له آيةٌ تَدُلُّ على أنه الواحِدُ جَلَّ جلاله.

مظاهر القدرة الالهية

تتحدث الآيات [٧٧ ـ ٨٩] في سورة النحل، عن مظاهر القدرة الإلهية، فتوضح عظمة الخالق، وفيض نعمته، وإحاطة علمه. وتركّز الآيات في هذا الشوط على قضية البعث، والساعة أحد أسرار الغيب، الذي يختص الله بعلمه، فلا يُطْلِعُ عليه أحداً.

وموضوعات هذا الدرس، تشمل ألواناً من أسرار غيب الله في السماوات والأرض، وفي الأنفس والآفاق: غيب الساعة التي لا يعلمها إلا الله وهو عليها قادر، وهي عليه هيّنة:

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [الآية ٧٧]،

وغيب الأرحام، والله وحده هو الذي يُخرج الأجنة من هذا الغيب لا تعلم شيئاً، ثم ينعم على الناس بالسمع والأبصار والأفئدة، لعلهم يشكرون نعمته، وغيب أسرار الخلق، ويعرض منها تسخير الطير في جو السماء، ما يمسكها الا الله.

يلي هذا الدرس استعراض لبعض نِعَم الله المادية على الناس، وهي بجانب تلك الاسرار، وفي جوّها: نِعَمُ السكن والهدوء والاستظلال، في البيوت المبنية، والبيوت المتخذة من جلود الأنعام للظعن والإقامة، والأثاث والمتاع، من الأصواف والأوبار والأشعار.

وتذكر الآيات مِن نِعم الله الظلال، والأكنان، وهي ما يستر الإنسان ويغطّيه، والسرابيل وهي ما يلبسه الإنسان من قميص يقيه الحر والبرد، أو درعٍ تقيه بأس الحرب:

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ثم تفصّل الآيات أمر البعث، في مشاهد يعرض فيها المشركون وشركاؤهم، والرسل شهداء عليهم، والرسول (ص) شهيد على قومه. وبذلك تكتمل هذه الجولة في جو البعث والقيامة.

الأوامر والنواهي

تتعرّض الآيات [٩٠ ـ ١١١] في سورة النحل، لشرح بعض أهداف القرآن الكريم، ويبدأ هذا الدرس بآية شهيرة، يردّدها الخطباء على المنابر في نهاية خطبة الجمعة، وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

وفي هذا الدرس أمر بالوفاء بالعهد، ونهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها، وكلّها من مبادئ السلوك الأساسية التي جاء بها القرآن الكريم.

وفي هذا الدرس، بيان الجزاء المقرر، لنقض العهد، واتخاذ الأيمان للخداع والتضليل، وهو العذاب

العظيم. والبشرى للذين صبروا، ومضاعفة الثواب لهم.

ثم تذكر الآيات بعض آداب تلاوة القرآن، وهي الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، لطرد شبحه من مجلس القرآن الكريم، كما تذكر بعض تقوّلات المشركين عن القرآن، فمنهم من يرمي الرسول (ص) بافترائه على الله، ومنهم من يقول: إن غلاماً أعجمياً هو الذي يعلمه هذا القرآن.

وفي نهاية الدرس، يبيّن جزاء من يكفر بعد إيمانه، ومن يُكرَه على الكفر، وقلبه مطمئنّ بالإيمان. ويبيّن جزاء من فتنوا عن دينهم، ثم هاجروا، وجاهدوا، وصبروا. وكلّ أولئك، تِبيان وَهُدىً ورحمة وبشرَى للمسلمين.

وفي الآيات إباحة لمن أُكرِه على الكفر، أن ينطق لسانه به، ما دام قلبه عامراً بالإيمان. روى ابن جرير بإسناده أن العذاب لما اشتد على عمار بن ياسر، نطق ببعض ما أرادوا، ثم شكا ذلك الى النبي (ص) فقال له النبي: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان. قال النبي: «إن عادوا فَعُدْ»، فكانت رخصة في مثل هذه الحال.

وقد أبى بعض المسلمين أن يُظهروا الكفر بلسانهم، مؤثرين الموت على لفظه باللسان، كذلك صنعت سميّة أم ياسر، وهي تُطعَن بالحَرْبة في موضع العفّة حتى تموت، وكذلك صنع أبوها ياسر.

وقد كان بلال، رضوان الله عليه، يعذَّب أشدّ العذاب، حتى لَتُوضَعُ الصخرةُ العظيمة على صدره في شدة الحر، ويُطلبُ منه أن ينطق بكلمة الشرك، فيأبى وهو يقول: أحد أحد.

ولستُ أبالي حينَ أُقتَلُ مُسْلِماً
على أيِّ جنبٍ كانَ في اللهِ مَصْرَعي

ختام سورة النحل

يتحدث الربع الأخير من سورة النحل، عن مَثَلٍ ضربه الله سبحانه، لتصوير حال مكّة وقومها المشركين، الذين جَحَدوا نعمة الله عليهم، لينظروا المصير الذي يتهدّدهم من خلال المثل الذي يضربه لهم، حين يقول سبحانه:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

وهي حال أشبه شيء بحال مكّة جعل الله فيها البيت، وجعلها بلداً حراماً، من دخله فهو آمن مطمئن، لا تمتدّ إليه يد، ولو كان قاتلاً، ولا يجرؤ أحد على إيذائه، وهو في جوار بيت الله الكريم. وكان الناس يُتخطّفون من حول البيت، وأهل مكّة في حراسته وحمايته كانوا آمنين مطمئنين، كذلك كان رزقهم يأتيهم هيّناً هنيئاً، من كل مكان مع الحجيج ومع القوافل الآمنة، مع أنهم في واد قفر جَدْبٍ غيرِ ذي زرع، فكانت تجيء إليهم ثمرات كل شيء، فيتذوقون طعم الأمن وطعم الرغد، منذ دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام، فإذا كَذَّب أهل مكة بدعوة محمد (ص)، وجحدوا رسالته، استحقوا العقاب والعذاب ولباس الجوع والخوف، جزاءَ كفرهم وعنادِهم.

ثم ينتقل السياق بهم، الى الطيّبات التي حرّمها أبناء القبائل المكية على أنفسهم، اتّباعاً لأوهام الوثنية، وقد أحلّها الله لهم، وحدّد المحرّمات، وبينّها، وليست هذه منها، وذلك لون من الكفر، بنعمة الله، وعدم القيام بشكرها، يتهدّدهم بالعذاب الأليم من أجله. وهو افتراء على الله لم تَنْزِل به شريعة.

وبمناسبة ما حُرّم على المسلمين من الخبائث، يشير الى ما حُرّم على اليهود من الطيّبات بسبب ظلمهم. وقد جعل هذا التحريم عقوبة لهم على عصيانهم. ولم يكن محرّما على آبائهم، في عهد إبراهيم (ع) الذي كان أمّةً قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، شاكراً لأنعمه، اجتباه وهداه الى صراط مستقيم. فكانت حلالاً له الطيبات، ولبنيه من بعده، حتى حرّم الله بعضها على اليهود، عقوبةً لهم خاصة، ومن تاب من بعد جهالته، فإن الله غفور رحيم.

ثم جاءت رسالة محمد (ص)، امتدادا واتّباعاً لرسالة ابراهيم (ع)، فعادت الطيّبات كلُّها حلالاً، وكذلك السبت الذي منع فيه اليهود من الصيد، فإنما السبت على أهله الذين اختلفوا فيه، ففريق كف عن الصيد، وفريق نقض عهده، فمسخه الله، وانتكس عن مستوى الإنسانية.

وتختم السورة عند هذه المناسبة بالأمر الى الرسول (ص)، أن يدعو الى سبيل ربّه، بالحكمة والموعظة

الحسنة. وأن يجادلهم بالتي هي أحسن. وأن يلتزم قاعدة العدل، في ردّ الاعتداء بمثله دون تجاوز... والصبر والعفو خير، والعاقبة بعد ذلك للمتّقين المحسنين، لأن الله معهم ينصُرهم ويرعاهم، ويَهْديهم طريق الخير والفلاح.

وفي أسباب نزول القرآن، أنّ الآيات الأخيرة من سورة النحل، نزلت في حمزة بن عبد المطلب، حين استُشْهِد في غزوة أحد، وفي هذه الغزوة مثّل المشركون بالمسلمين، فبقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، وما تركوا أحداً غير مُمَثَّلٍ به، سوى حنظلة بن الراهب، كان الراهب أبو عامر مع أبي سفيان، فتركوا حنظلة لذلك، ثمّ وقف رسول الله (ص) على جثة حمزة، وقد مُثِّلَ به، فرآه مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به، إن أظفرني الله بهم، لأمثّلن بسبعين مكانك» فنزل قوله تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

ولما نزلت هذه الآية، كَفَّر النبي (ص) عن يمينه، وكفّ عما أراده، ومن هذا ذهبوا الى أن خواتيم سورة النحل مدنية، ولا خلاف في تحريم المُثْلة، وقد وردت الأخبار بالنهي عنها، حتى بالكلب العَقُور.

ترابط الآيات في سورة «النحل»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة النحل بعد سورة الكهف، وهي من السور التي نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة النحل في ذلك التاريخ أيضاً، وقيل إنها من السور المدنية.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾. وتبلغ آياتها ثماني وعشرين ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة إنذار المشركين بالعذاب، وإبطال شركهم، وردّ شبههم على القرآن والنبوة والبعث، وهي أمور متشابكة متلازمة وقد افتُتحت بآيتين، أُجملت فيهما تلك الأغراض، وقُصد بهما التمهيد لتفصيل الكلام فيها، ثم خُتمت بذكر نعمة الله على أولئك المشركين، بسكنى حرمه، وأنهم كفروا بنعمته بهذا عليهم، فَجُوزُوا بذلك العذاب الذي حَقّ عليهم.

وقد جُعلت بعد سورة الحجر، لأنه أمره، في آخرها، أن يعبد ربه حتى يأتيه اليقين. وقد افتتحت هذه السورة بأن ما وعدوا به قد أتى وقته وحان حينه.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفني في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز - المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرخ.

إبطال الشرك
الآيات [١ ـ ٢٣]

قال الله تعالى ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١﴾ فافتتحها بآيتين أجمل فيهما أغراضها، فأنذرهم فيهما بأنه أتى أمره بعذابهم، ونزّه ذاته عن شركائهم؛ وذكر أنه ينزّل الملائكة بالوحي على من يشاء من عباده، لينذروا الناس بتوحيده ويأمروهم بتقواه.

ثم شرع في إبطال الشرك وإثبات التوحيد، فذكر سبحانه، أنه خلق السماوات والأرض بالحق، وأنه خلق الإنسان من نطفة. وأنه خلق الأنعام فيها دفءٌ ومنافع لنا، وأنه خلق الخيل والبغال والحمير لنركبها ونتّخذها زينة؛ وأنه يخلق غير هذا، مما لا يدخل في علمنا؛ وأنّه يبين بهذا قصد السبيل إليه، ومنها جائر ينحرف عنه؛ ولو شاء سبحانه لهداهم أجمعين. ثم ذكر أنه سبحانه هو الذي أنزل من السماء ماء، منه شراب ومنه شجر، وأنه جَلّ شأنه، ينبت الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات؛ وأنه تعالى، سخّر الليل والنهار والشمس والقمر، والنجومُ مسخراتٌ بأمره، وأنه سخّر البحر لنأكل منه لحماً طرياً، ونستخرج منه حِلْية نلبسها، وأنه ألقى في الأرض رواسي: جبالاً، وأنهاراً وسبلاً لنهتدي بها؛ وأنه جعل علامات في هذه السبل، لنهتدي بها فيها، كما نهتدي بالنجم أيضاً.

ثم ذكر، أنه لا يصح أن يكون من يخلق هذا كله، كمن لا يخلق، من أصنامهم التي يتخذونها شركاء له؛ وأنهم إن يعدّوا نعمته ممّا سبق وغَيْرِه لا يُحْصوها؛ وأنه سبحانه يعلم سرّهم وعلانيتهم، وأنّ الذين يدعونهم من دونه لا يخلقون شيئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يبعثون، ثم ذكر أنّه يجب بعد هذا كله أن يكون إلههم واحداً، وأنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة هم الذين لا يؤمنون به، لأن قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ۝٢٣﴾.

رد شبهة لهم على القرآن
الآيات [٢٤ ـ ٣٤]

ثم قال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ فذكر أنهم إذا سئلوا عن القرآن، قالوا إنه

أساطير الأولين، وأجاب عنه بتهديدهم، بأنهم يحملون به أوزارهم، وبعض أوزار الذين يضلّونهم بغير علم، ثم ذكر أنّ المكذّبين من الأولين، قد مكروا بمثل ما يمكرون به في القرآن، فأبطل مكرهم وأهلكهم، ثم يوم القيامة يخزيهم ويسألهم أين شركاؤهم الذين كانوا يخاصمون بالطعن في القرآن من أجلهم؟ فيجيب الذين أوتوا العلم من الملائكة، أو المومنين، بأنّ الخزي اليوم والسوء عليهم، فلا يمكنهم أن يجيبوا من خزيهم، ثم ذمّهم بأنهم يموتون ظالمي أنفسهم بشركهم، فلا يجدون إلا أن يُلقُوا السّلَم، وينكروا ما عملوا من سوء، فيرد عليهم بأنه عليم بما كانوا يعملون، ويأمرهم أن يدخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها، وبئس مثواها لهم.

ثم ذكر أن المؤمنين، إذا سئلوا عن القرآن، أجابوا بأنه خير للناس، وأنه سيجازيهم على هذه الحسنة بمثلها في الدنيا، وبخير منها في الآخرة، فيدخلون جنّاتِ عدْنٍ تجري من تحتها الأنهار، لهم فيها ما يشاؤون ممّا تشتهيه أنفسهم. وكذلك يجزي الله المتّقين هذا الجزاء الحسن، ثم مدحهم بأنّ الملائكة يتوفّونهم طيّبين، فيتلقّونهم بالسلام، ويأمرونهم بدخول الجنة، جزاء لهم بما كانوا يعملون.

ثم هَدّد المكذّبين بأنهم لا ينتظرون بتكذيبهم، إلاّ أن تأتيهم الملائكة، أو يأتيهم أمره بهلاكهم. كما أهلك من فعل من الأولين مثل فعلهم، وما ظلمهم بهذا، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤)﴾.

عود الى إبطال شركهم
الآيات [٣٥ _ ٣٧]

ثم قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾ فذكر أنهم استدلوا على شركهم، بأنه وقع بإرادته ومشيئته، وهو لا يشاء إلاّ ما يرضاه؛ وردّ عليهم بأن المشركين قبلهم فعلوا مثل فعلهم، فلم يمنع ما نزل من عذابه لهم، وليس على الرسل إلاّ ان يبلغوا من أرسلوا إليهم، فإذا بلغوهم زال بهذا عذرهم؛ ثم ذكر أن

كل الرسل، بُعِثُوا بإبطال الشرك، فمن أقوامِهم من هداه إلى الإيمان به، ومنهم من حقت عليه الضلالة فساءت عاقبتهم؛ ثم ذكر للنبي (ص) أن شأن قومه في هذا، مثلهم ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

رد شبهة لهم على البعث
الآيات [٣٨ ـ ٤٢]

ثم قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ فذكر إنكارهم للبعث، وأجاب عنه بأنه لا بدّ منه، ولكنّ أكثرهم لا يعلمون، لأنه يبيّن لهم به ما يختلفون فيه، ويعلم به الكافرون أنهم كانوا كاذبين، وهو إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، فلا يعجزه البعث، كما لم يعجزه الخلق.

ثم ذكر أنه سيجازي المؤمنين، في الدنيا حسنة، وأن أجرهم بعد البعث أكبر، لو كانوا يعلمون ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

رد شبهة لهم على النبوة
الآيات [٤٣ ـ ٥٠]

ثم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فردّ على ما يزعمونه، من أنّ الرسول لا يكون بشراً، بأنّه لم يرسل سبحانه من قبله إلاّ رجالاً مثله، وأمرهم أن يسألوا أهل العلم عن هذا، إن كانوا لا يعلمون؛ ثم هدّدهم على مكرهم بهذا، أن يخسف بهم الأرض، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، الى غير هذا مما هدّدهم به؛ ثم ذكر ما يثبت قدرته على هذا، فحثّهم على النظر فيما خلق من شيء، يتفيّأون ظلاله عن اليمين والشمائل سُجّداً لله سبحانه، وهم داخرون. وذكر جل جلاله، أنه يسجد له ما في السماوات وما في الارض، من دابّة والملائكة وهم لا يستكبرون: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾.

عود الى إبطال أنواع من الشرك
الآيات [٥١ ـ ١٠٠]

ثم قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ

﴿فَارْهَبُونِ ۝٥١﴾ فأبطل مذهب الثنوية، الذين يقولون بإله الخير وإله الشر، لأن له سبحانه، ما في السماوات والأرض من خير وشر، ونعمةٍ وضر؛ ثم بيّن لهم أنهم إن كفروا بما آتاهم من النِعَم، وتمتّعوا، فسوف يعلمون عاقبة ذلك؛ وقد ورد الكلام بصيغة الأمر التهديدي. ثم ذكر أنهم يجعلون لأصنامهم نصيباً ممّا رزقهم من زروعهم وأنعامهم، وهي جماد لا تحسّ نُذُرهم، وأنهم يجعلون له سبحانه البنات من الملائكة، ولأنفسهم ما يشتهون من البنين؛ ثم ذكر أنّ من كرههم للبنات أنهم إذا بُشّرَ أحدهم بالأنثى، ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من قومه من سوء ما بشّر به، أيمسكه على هُون أم يدسه في التراب، ليتخلص من عاره بينهم؛ ثمّ عجبَ من سوء حكمهم بهذا، وحكم بأن لهم صفة السوء وهي الاحتياج الى الولد، وله الصفة العليا وهي عدم الاحتياج إليه؛ وذكر أنه لو يؤاخذهم بهذا الكفر ما ترك على الأرض من دابّةٍ، ولكنه يؤخّرهم الى أجل مُسَمًّى، فإذا جاء أجلُهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون؛ ثم ذكر ثانياً أنهم يجعلون له البنات ولأنفسهم البنين، ليوجب أن لهم النار، وأنهم مُفْرَطون.

ثم أقسم بنفسه أنه أرْسل إلى أمم من قبله، فزيّن لهم الشيطان شركهم، فهو يزيّنه لهؤلاء المشركين، كما زيّنه لتلك الأمم؛ ثم ذكر أنه لم ينزل عليه القرآن إلا ليبيّن لهم ما وقعوا فيه من الشرك، وليكون هدًى ورحمة لمن يؤمن به.

ثم ذكر، مما يدل على وحدانيته جلّ جلاله، أنه أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنه جعل لنا في الأنعام عبرَة، يسقينا مما في بطونه من بين فَرْثٍ ودمٍ لبناً خالصاً؛ وأنه سبحانه، جعلنا نتخذ من ثمرات النخيل والأعناب سَكَراً ورزقاً حسناً، وأنه أوحى الى النحل أن تتخذ من الجبال وغيرها بيوتاً، وأن تأكل من الثمرات كلّها، ليخرج من بطونها شراب مختلفٌ ألوانه، فيه شفاء للناس؛ إلى غير هذا ممّا ذُكِر من الأدلّة على وحدانيته.

ثم ذكر سبحانه أنهم مع هذا يعبدون من دونه ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض؛ ونهاهم أن يضربوا له الأمثال، بقولهم إنهم خدّامه وأقرب الخلق إليه، فهم يتخذونهم

وسيلة له، لأنه أجلّ من أن يتوجهوا إليه بأنفسهم؛ وهم في هذا، كأصاغر الناس يخدمون حاشية الملك، وحاشيته هي التي تخدمه؛ فهذه كلّها أمثال باطلة، والله يعلم الأمثال الصحيحة، وهم لا يعلمون.

ثم ضرب لهم من أمثاله الصحيحة، مثلين له ولشركائهم: أحدهما مَثَلُ عَبْدٍ مملوكٍ، لا يقدر على شيء ورجلٍ رُزِقَ رزقاً حسناً، ينفق منه سرّاً وجهراً، فلا يصحّ أن يكون أحدهما مساوياً للآخر. وثانيهما مَثَلُ رجلين، أحدهما أبكم لا يقدر على شيء، وهو ثقيل على مولاه أينما يوجّهه لا يأت بخير، وثانيهما يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فلا يصحّ أيضاً أن يكون أحدهما مساوياً للآخر.

ثم ذكر، من صفات كماله، تأكيداً لمضمون هذين المثلين، أنّ له غيبَ السماوات والأرض، وأنّ أمر الساعة عنده كلمح البصر، أو هو أقرب، وأنه يخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، ويجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة، الى غير هذا من نعمه علينا؛ ثم ذكر أنهم إن أعرضوا بعد هذا، فليس على النبي (ص) إلا أن يبلّغهم؛ وَذَمَّهم بأنهم يعرفون نعمته، ثم ينكرونها، وأكثرهم الكافرون.

ثم شَرَعَ في بيان حالهم وحال شركائهم في يوم بَعْثِهم، ليذكر تكذيبهم لهم فيما يزعمونه من ألوهيتهم؛ فذكر أنّه سبحانه، يبعث يوم القيامة مع كل أمة شهيداً منها، وهو رسولُها. ثم لا يؤذنَ لمن كفر منها في كلام ولا استعتاب، وإذا رأوا عذابهم سبقُوا إليه من غير إمهال، وإذا رأوا شركاءهم قالوا لربهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ﴾ [الآية ٨٦] فيكذبونهم، فيما ينسبونه إليهم من الألوهية، وهناك يستسلمون لما يحكم به عليهم، ولا يجدون أحداً من شركائهم يشفع لهم؛ ثم ذكر أن من كان منهم، يُضَمُّ الى كفره صدُّ غيره عن الإيمان، يزيده عذاباً فوق عذاب كفره؛ ثم ذكر ثانياً، أنه يبعث من كل أمّة شهيداً عليهم منهم، ليذكر أنه يجيء بالنبي (ص) شهيداً على أمته، وقد قطع عليهم عذرهم، بتنزيله القرآنَ تبياناً لكلّ شيء، وهدًى ورحمة وبشرى، لمن يؤمن به.

ولما ضرب في المثل الثاني من يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فصَّل

ما أجمله فيه، فذكر أنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فجمع في ذلك ما يتّصل بالتكليف فرضاً ونَفْلاً، وما يتّصل بالأخلاق عموماً وخصوصاً. ثم ذكر ممّا جمعه في ذلك من المأمورات والمنهيات، الأمر بالوفاء بعهد الله، والنهي عن نقض الأيمان بعد توكيدها؛ ونهاهم أن يتّخذوها على غشّ وخديعة، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، إذ كانوا يحالفون قوماً، ثم يجدون غيرهم أقوى منهم فينقضون حلفهم، ويحالفون من وجدوهم أقوى منهم؛ ثم ذكر أنه يختبرهم بهذا التكليف، ولو شاء لجمعهم عليه بالإلجاء، فجعلهم أمّة واحدة في الوفاء بعهده، ولكنه يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء، ثم يسألهم جميعاً عن عملهم. ثم أعاد النهي عن اتخاذهم أيمانهم دَخَلاً بينهم، ليوعدهم عليه بما أوعدهم به؛ ونهاهم أن يشتروا بعهده ثمناً قليلاً من عَرَضِ الدنيا، لأنّ ما عنده هو خير لهم لبقائه، وما عندهم ينفد ولا يبقى؛ ثم بيّن ما عنده من الجزاء الحسن، والحياة الطيبة، لمن يستحقها من المؤمنين، الذين يصبرون على الوفاء بالعهد، وأنه يجزيهم أجرهم، بأحسن ما كانوا يعملون.

ثم ذكر، مما جمعه فيما سبق من المأمورات والمنهيات، الأمرَ بالاستعاذة من الشيطان عند قراءة القرآن، ليرشدهم الى ما تَخلُص به أعمالهم من وساوسه، ويستحقون به الجزاء الذي وعدهم به؛ ثم ذكر أنه لا سلطان للشيطان على المؤمنين الذي يتوكلون على ربهم ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

عود الى رد شُبَههم على القرآن الآيات [١٠١ ـ ١١١]

ثم قال تعالى ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾. فذكر لهم شبهتين أخريين في القرآن: أولاهما أنهم كانوا إذا نسخَ حكم آية بآية أخرى يقولون: «والله ما محمد إلاّ يسخر بأصحابه. اليوم يأمر بأمرٍ وغداً ينهى عنه، فما هذا إلاّ من عنده» وقد أجابهم سبحانه عنها بأنه أعلم بحكمة ذلك، وما فيه من المصلحة للعباد؛ وبأنه نزّل القرآن

ليثبّت المؤمنين بأخذهم بالأحكام على التدريج، ويكون هدًى وبشرى لهم؛ فلا يصح مع هذا، أن يؤخذوا بالأحكام دفعة واحدة.

والشبهة الثانية، أنهم كانوا يقولون إنه يتعلم القرآن من بعض نصارى مكة، من الأعاجم، وقد أجابهم عنها بأن الذي يزعمون أنه يتعلّمه منه، لسانه أعجمي، والقرآن لسانه عربي في أعلى درجات البيان؛ ثم ذكر أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، ويزعمون ذلك فيه، لا يهديهم الى الإيمان به، مع ظهور فضله، وأنّ الذي يفتري الكذب عليه إنّما هو من لا يؤمن بآياته، لا من يؤمن بها، ثم ذكر، ممّن يفتري الكذب عليه بالطعن في القرآن، مَنْ كفر منهم بعد إيمانه، واستثنى منه من أُكرِه على الكفر، وقلبه مطمئن بالإيمان، وأوعد من شرح بالكفر صدراً بعد إيمانه، بأن عليهم غَضَباً منه ولهم عذابٌ أليم، لأنهم استحبّوا الحياة الدنيا على الآخرة، وأنّ الله لم يشأ هدايتهم بعد اختيار الكفر على الإيمان، وطَبَعَ على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فهم في الآخرة هم الخاسرون؛ أمّا الذين أكرهوا بالفتنة على الكفر، فإن الله لهم، وإنه من بعد فتنتهم لغفور رحيم: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

الخاتمة

الآيات [١١٢ ــ ١٢٨]

ثم قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾، فختم السورة ببيان سبب استحقاقهم، ما أنذروا به من العذاب في أوّلها، وهو أنّهم كانوا أصحاب قرية[1] آمنة مطمئنة، يأتيها رزقاً رغداً من كل مكان فكفروا بأنعم الله عليهم، فأذاقهم لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون؛ وقد جاءهم أيضاً رسول منهم فكذّبوه، فأخذهم العذاب وهم ظالمون؛ ثم أمرهم أن يأكلوا مما رزقهم حلالاً طيّباً، ولا يُحَرّموا منه ما حرّموه في

(١) هذه القرية هي مكة.

شركهم، وأن يشكروا نعمته عليهم بسكنى هذه القرية، إن كانوا إيّاه يعبدون. ثم ذكر أنه لم يحرّم عليهم إلاّ الميتة والدم ونحوهما من الخبائث، ونهاهم أن يحلّلوا ويحرّموا من أنفسهم؛ ثم ذكر أنه حرّم على اليهود ما قصّه عليه من قبل في سورة الأنعام، وأنه لم يظلمهم بهذا، ولكنّهم كانوا يظلمون أنفسهم بعملهم بخلاف علمهم، ثم ذكر أن للذين عملوا السوء بجهالة من العرب الأميين، ثم تابوا من بعد ذلك، وأصلحوا، مغفرة؛ إنَّ ربّكَ مِنْ بعدها، لغفورٌ رحيمٌ.

ثم ذكر أن إبراهيم (ع) الذي أنشأ تلك القرية، وأقام فيها الكعبة، كان أُمّةً قانِتاً لله حنيفاً، ولم يكن من المشركين؛ وأنّه كان شاكراً لأنعمهِ، فاجتباه وهداه الى صراط مستقيم، وآتاه في الدنيا حسنة، وإنه في الآخرة لمن الصالحين؛ ثم ذكر أنه أوحى الى النبي (ص)، أن يتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين؛ وأنه، إنّما جعل شريعة السبت على اليهود الذين اختلفوا فيها، وأنه سيحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون؛ فلا يصح له أن يعمل بها، لأنهم حرّفوها حتى خرجوا بها عن أصلها، وهو ملّة إبراهيم.

ثم أمر النبي (ص)، أن يدعو الى هذه الملّة بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يجادل المشركين فيها بالتي هي أحسن، لأنّ الضلال والهدى بيده تعالى، ثم أمره وأتباعه إذا خرج الأمر من الجدال الى القتال، أن يعاقبوا بمثل ما عوقبوا به، فلا يبدأوهم بالقتال ولا يجاوزوا ما عوقبوا به، منهم؛ ثم رغّبهم في الصبر والعفو عنهم، ونهى النبي (ص) أن يحزن لكفرهم أو يكون في ضِيقٍ ممّا يمكرون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «النحل»(*)

أقول: وجه وضعها بعد سورة الحِجْر: أنّ آخرها شديد الالتئام بأول هذه، فإن قوله تعالى في آخر تلك: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ الذي هو مفسر بالموت، ظاهر المناسبة لقوله تعالى هنا: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١]. وانظر كيف جاء في المقدمة بيأتيك اليقين، وفي المتأخرة بلفظ الماضي، لأن المستقبل سابق على الماضي، كما تقرر في المعقول والعربية(١).

وظهر لي أن هذه السورة شديدة الاعتلاق بسورة إبراهيم، وإنما تأخرت عنها لمناسبة سورة «الحجر»، في كونها من ذوات ﴿الٓر﴾.

وذلك: أن سورة إبراهيم وقع فيها ذكر فتنة الميت، ومن هو ميت وغيره(٢)، وذلك أيضاً في هذه، بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الآية ٢٨]. فذكر الفتنة، وما يحصل عندها من الثبات والإضلال، وذكر هنا ما يحصل عقب ذلك من النعيم والعذاب(٣).

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) مراد المؤلف ان المضارع سابق على الماضي في الكلام والإخبار، لا في الزمان. فقولك الآن: يقوم الناس لرب العالمين يوم القيامة، سابق في الخبر. ولا يجوز أن يقال: قام الناس لرب العالمين يوم القيامة إلا بعد تمام ذلك البعث.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾ [إبراهيم].

(٣) وذلك في قوله تعالى عن العذاب: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ﴾ [الآية ٢٩]. وفي النعيم: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ [الآية ٣١].

ووقع في سورة إبراهيم: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴿٤٦﴾﴾. وقيل: إنها في الجبّار الذي أراد أن يصعد السماء بالنسور[1]. ووقع هنا أيضاً في قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الآية ٢٦].

ووقع في سورة إبراهيم ذكر النعم، وقال عقبها: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [الآية ٣٤]. ووقع هنا ذكر ذلك معقباً بمثل ذلك.

(١) يروى أنه جوّع نَسْرَين، وأوثَقَ رِجْل كلّ منهما في تابوت، وقعد هو وآخر في التابوت، ورفع عصا عليها اللحم، فطارا يتبعان اللحم حتى غابا في الجو (تفسير الطبري: ٣/ ١٦٠).

مكنونات سورة «النحل»[*]

١ ـ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ [الآية ٧]

قال ابنُ عباس: يعني مكّة. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٢ ـ ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الآية ٢٦]

قال ابنُ عباس: هو نُمْرُود بن كنعان، حين بنى الصَّرْح، أخرجه ابنُ أبي حاتِم.[1]

٣ ـ ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الآية ٤١].

قال قَتادة: هؤلاء الذين لَحِقُوا بأرض الحبشة. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وقد سُقْتُ أسماءَ المهاجرين إلى الحَبَشَة في كتاب «رفع شأن الحُبْشَان».

٤ ـ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الآية ٧٦].

أخرج ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس قال: نَزَلَتْ هذه الآية في رَجُلين، والأبْكَمُ منهما، الكَلُّ على مَوْلاه: أسيد بن أبي العِيْص؛ والذي يأمر بالعدل: عُثمان بنُ عفّان[2].

٥ ـ ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [الآية ٩٢].

قال السُّدِّي: كانت امرأةٌ بمكّة تُسمّى خَرْقاء مكّة. أخرجه ابنُ أبي حاتم[3].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) وابن جرير ١٤/٧٦.

(٢) واخرج ذلك ابن جرير ١٤/١٠١ أيضاً.

(٣) والطبري ١٤/١١١.

وقال السُّهَيْلي: اسمها رَيْطة بنتُ سعيد[1] بن زَيْد مناة بن تميم.

٦ - ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [الآية ١٠٣].

قال مجاهد: عَنَوْا عَبْدَ بن الحضرمي. زاد قتادة: وكان يُسمَّى: يُحَنِّس[2].

وقال السُّدِّي: يقال له: أبو اليَسَر.

وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي: عنوا عَبْدَيْن لنا، أحدهما يقال له يسار، والآخر: جَبْر.

وقال الضَّحَّاك: عَنَوْا سلمان الفارسي[3].

وقال ابنُ عباس: [عَنَوْا] قَيْناً بمكة اسمه بلعام[4].

أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

ويُحَنِّس: ضبطه الحافظ ابن حَجَر في «الإصابة» بياء تحتية[5]، وحاء وسين مهملتين، بينهما نون مشدَّدة.

٧ - ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ [الآية ١٠٦].

قال ابن عباس: نَزَلَتْ في عَمَّارِ بن ياسر. أخرجه ابنُ جرير[6].

وقال ابن سِيْرين: نزلت في عياش بن أبي رَبيعة. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

٨ - ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ﴾ [الآية ١١٠].

قال ابنُ إسحاق: نزلت في عمّار بن ياسر، وعَيّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد[7].

٩ - ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ [الآية ١١٢].

قالتْ حَفْصَةُ أُمُّ المؤمنين: هي المدينة، وكذا قال ابنُ شِهاب. أخرج ذلك ابن أبي حاتم.

وقال ابنُ عباس: هي مَكّة. أخرجه ابن جرير[8].

---

(١) في «جمهرة أنساب العرب». لابن حزم: ٢١٥: «سعد». وليس فيه اسم «ريطة». من ولده؛ والمثبت موافق لـ «الإتقان» ٢/ ١٤٧.

(٢) في «الاتقان» ٢/ ١٤٧: «مقيس».

(٣) قال ابن كثير في «تفسيره» ٢/ ٥٨٦: «وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية، وسلمان إنما أسلم بالمدينة.

(٤) إسناده ضعيف، كما في «الدر المنثور» ٤/ ١٣١.

(٥) مضمومة؛ كما في «تاج العروس»: «حنس».

(٦) ١٤/ ١٢٢.

(٧) أخرجه الطبري في «تفسيره» ١٤/ ١٢٤.

(٨) ١٤/ ١٢٥. ومال ابن كثير في «تفسيره» ٢/ ٥٨٩ الى هذا القول.

لغة التنزيل في سورة «النحل»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [الآية ٧].

﴿بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ أكثر القرّاء على كسر الشين ومعناه: إلا بجهد الأنفُس.

وقرأ أبو جعفر وجماعة: إلاّ بِشَقّ الأنفس.

وكأن الشّق وهو المَشقة، بكسر الشين، اسم استحدث من المصدر، وهو الشّق «بفتح الشين».

٢ ـ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا﴾ [الآية ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ أي: ما خلق لكم في الأرض، من حيوان وشَجَر وثَمَر وغير ذلك. أقول: بين المهموز والمضاعف والناقص المعتلّ، وشائع في المعنى، وهذا الفعل يذكّرنا بالمواد ذرّ وما يتأتى من الذُّرية، والذراري وغير ذلك. كما يذكّرنا بالذُّرَى والذَّرْي ونحوه، وما يراد بذلك من الزيادة والانتشار.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [الآية ١٤].

كنا قد بسطنا القول في الآية ٢٢ من سورة يونس، وعرضنا لمسألة الالتفات من الخطاب الى الغيبة.

ونريد في هذه الآية أن نعرض لمسألة الفُلْك، وأنها جمع بدلالة الصفة «مَواخر» ولكننا نجد أن «الفلك» قد جاء دالاً على الإفراد في سورة الشعراء بدلالة الصفة أيضاً:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾.

وجاء ﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ في الآية: ٤١ من سورة يس، كما جاء في الآية ١٤٠ من سورة الصافات.

وهذا نظير «السحاب» فهو تارة جمع بدلالة الصفة «الثقال»، كما بيّنا في الآية ١٢ من سورة الرعد، وهو أخرى مفرد بدلالة الصفة «مسخّر»، كما في الآية: ١٦٤ من سورة البقرة.

وهذا كله شيء من خصائص لغة القرآن، التي ترسم لنا صفحات من تاريخ هذه اللغة.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [الآية ١٥].

والمعنى: كراهةَ أن تميدَ بكم وتضطرب.

وحذف المصدر المنصوب، المبيّن للعلّة ضرب من الإيجاز البليغ، وهو ظاهر في المعنى.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ [الآية ٢٧].

والمعنى: الذين كُنتم تُعادون وتخاصِمون المؤمنين في شأنهم.

وقُرِئ: تُشاقّونِ، بكسر النون، بمعنى تشاقونني.

وكنت عرضت للآية: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال/١٣].

وأشرت إلى أن فكّ الإدغام غير كثير، والكثير في هذا المضاعف هو الإدغام، إلا أن فكّه في الآية كان بسبب صوتي.

وفي هذه الآية التي نعرضها من سورة النّحل، جاء الفعل بالإدغام، وليس من ضرورة تستدعي فك الإدغام.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: أحاط بهم العذاب، الذي هو جزاء ما كانوا يستهزئون، كما نقول: أحاط بفلان عمله وأهلكه.

والحَيْق: ما حاق بالإنسان من مكرٍ أو سوء عمل يعمله، فينزل ذلك به.

أقول: والحيق إحاطة مقيّدة بالمكر والسوء، وليست مطلقة كما تقول في «أحاط» مثلاً.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [الآية ٣٦].

جاء «الطاغوت» في ثماني آيات، من سور مختلفة، والمعنى واحد.

من غير شك أن «الطاغوت» من «الطغيان» وهو الشرُّ، والكفر، وتجاوز الحدّ في البغي.

غير أن «الطاغوت»، وإن تضمن هذه الدلالات فهو بناء خاص، وهو يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، وإن قيل: طَواغيت.

وهو نظير رَغَبوت، ورَحَموت، وجَبَروت، ولاهُوت، وناسوت، ومَلَكوت ونحو هذا.

وهو مصدر من المصادر القديمة، التي استقرينا منها جملة من طريق السَّماع.

ولا أريد أن أقول إنها مقلوبة على فَعَلوت، والأصل «طغيوُت» كما ذهب أهل اللغة فليس ذلك بمهمّ.

وقالوا: الطاغوت الشيطان.

وعندي أن هذا البناء الغريب القديم، يصح أن يُتخذ في وضع المصطلح الجديد، وذلك أن أهل المصطلحات من الغربيين، يلتمسون الأبنية الغريبة إذا ما جدّت لهم حاجة لمصطلح جديد، ليكون الوزن الغريب مميزاً له خاصاً به.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وقُرِئ: أو لم يَرَوا، ويتفيَّئوا بالياء والتاء.

والتَفيُّؤ: الظلّ بالعَشي، وتفيُّؤ الظلال: رجوعُها بعد انتصاف النهار، وابتعاث الأشياء ظِلالها.

أقول: عرفنا أن الفيء بالعشيّ، والظلّ بالغَداة. وقد امَّحى الفرق في العربية المعاصرة.

وداخرون أي: متصاغرون مُنقادون، على أنّ الدخور من صفات العقلاء.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [الآية ٦٦].

ذكر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف من الأسماء المفردة الواردة على أفعال، كقولهم: ثوب أكياش. وجُبَّةٌ أسناد، وثوب أفواف.

وقد تعجب أن يدرج سيبويه «الأنعام»، مع هذه الأسماء التي جاءت مفردة في استعمالهم، وأنت تقرأ قوله تعالى:

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾.

وإذا كان الضمير في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾، في الآية قد حَمَلهم على جعل «الانعام» مفردة، وإدراجها مع ثوب أكباش، وجُبّةٍ أسناد وغيرها، فماذا يقولون في قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون]

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يُسْتَرْضَوْن، أي: لا يقال لهم أرْضُوا ربّكم، لأن الآخرة ليست بدار عمل.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

الكلام على الذين كفروا، أي: أنهم ألقَوا الاستسلام لأمر الله وحكمه، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا.

وهذا من معاني «السلم» مقيّداً بهذه الآية، وهو نظير «الإسلام» بمعنى الخضوع والانقياد والاستسلام.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ [الآية ٩٢].

أي: ولا تكونوا في نقض الأيمان، كالمرأة التي أنْحَتْ على غزلها، بعد أن أحكَمَته وأبْرَمَته، فجعلته أنكاثاً، أي: ما يُنكَثُ فَتْلُهُ، تتخذون الأيمان دَخَلاً بينكم، أي: مفسدة ودَغَلاً.

أقول: والدَّخَل والدَّغَل سواء.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [الآية ١٠١].

أقول: واستعمال «مكان» في فعل التبديل، ما زال معروفاً حتى في العاميّة الدارجة.

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [الآية ١١٢].

أقول: وضرب الأمثال في القرآن على هذا النحو، من تصوير حالةٍ يعرض فيها جملة أمور، ليتخذ منها العباد عبرة لهم.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم/ ٢٤].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [الآية ٧٦].

وقوله تعالى في الآية ١١٢: ﴿بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ الأنعم جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدِرعْ وأدْرُع، أو جمع نُعْم كبُؤس وأبؤس.

١٥ ـ وقال تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ [الآية ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه كان وحدَه أمّةً من الأمم، لكماله في جميع صفات الخير.

والثاني: أن يكون أمّةً بمعنى مأموم، أي: يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى مُؤتَمٌّ به كالرُحْلة والنُخْبة، وما أشبه ذلك مما جاء من فُعْلة بمعنى مفعول.

المعاني اللغوية في سورة «النحل»(*)

قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [الآية ٨] بالنصب. أي: وَجَعَلَ الله الخَيْلَ والبغالَ والحميرَ زينةً..

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [الآية ٩] أي: ومن السبيلِ لأنها مؤنثة في لغة الحجاز(١).

وقال تعالى ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [الآية ١٣] أي: خَلَقَ لكم وبثّ لَكُم(٢).

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [الآية ٣٠] فكانت «ماذا» بمنزلة «ما» وحدها.

وقال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [الآية ٢١] على التوكيد(٣).

وقال سبحانه: ﴿إِنْ تَحْرِصْ﴾ [الآية ٣٧] لأنها من «حَرَصَ» «يَحْرِصُ».

وإذا وَقَفْتَ على ﴿يَتَفَيَّؤُا﴾ [الآية ٤٨] قُلْتَ «يَتَفَيَّأْ»، كما تقول بالعين «تَتَفَيَّعْ» جزماً، وإن شئت أشممتها الرفع، ورمته، كما تفعل ذلك في «هذا حَجَرُ».

وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨)﴾ فذكر، وهم

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) أنظر المذكّر والمؤنث ٨٧، وكتاب التذكير والتأنيث ١٦، والمذكّر والمؤنث للمبرد ١٥، واللّغة في الفرق بين المذكّر والمؤنث ٦٧، واللّهجات العربية ٥٠٢.

(٢) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٥٦٠.

(٣) نقله في زاد المسير ٤/ ٤٣٧.

غير الإنس، لأنه لما وصفهم سبحانه بالطاعة أشبهوا ما يعقل[1]، وجعل اليمين للجماعة مثل ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر/٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ [الآية ٤٩] يريد: من الدواب، واجتزأ بالواحد، كما تقول: «ما أتاني من رَجُلٍ» أي: ما أتاني من الرجال مثله.

وقال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ﴾ [الآية ٥٣] لأنّ «ما» بمنزلة «مَنْ»، فجُعِلَ الخبر بالفاء.

وقال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [الآية ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [الآية ٦٧] ولم يقل «منها» لأنّ السياق أضمر «الشيء» كأنه «وَمِنْها شَيْءٌ تَتَّخِذُونَ مِنه سَكَراً»[2].

وقال تعالى: ﴿إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي﴾ [الآية ٦٨] على التأنيث في لغة أهل الحجاز. وغيرهم يقول «هُوَ النَّحْل» وكذلك كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء، نحو «البُرُّ» و«الشَعِيرُ» هو في لغتهم مؤنث[3].

وقال تعالى: ﴿ذُلُلًا﴾ [الآية ٦٩] وواحدها «الذَلُولُ» وجماعة «الذَلُول» «الذُلُل».

وقال تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [الآية ٧٢] وواحدهم «الحافِدُ».

وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ [الآية ٧٦] لأنّ «أينما» من حروف المجازاة.

وقال تعالى: ﴿رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾ [الآية ٧٣] بجعل «الشَيْء» بدلاً من «الرِزْق»، وهو في معنى «لا يَمْلِكُونَ رِزْقاً قَلِيلاً ولا كَثِيراً»[4]. وقال بعضهم: «الرِّزْقُ فعل يقع بالشيء» يريد: «لا يَمْلِكُون أَنْ يَرْزُقُوا شَيْئاً».

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [الآية ٩١] تقول: «أَوْفَيْتُ بالعَهْد»

---

(١) نقله في زاد المسير ٤/ ٤٥٣.

(٢) نقله في زاد المسير ٤/ ٤٦٤.

(٣) المذكّر والمؤنّث ٨٥، والبُلْغَة في الفرق بين المذكّر والمؤنّث ٦٧، واللّهجات العربية ٥٠٤.

(٤) نقله في الجامع ١٠/ ١٤٦.

و«وَفَيْتُ بالعَهْدِ» فاذا قلت «العَهْدَ» قلت «أَوْفَيْتُ العَهْدَ» بالألف[1].

وقال تعالى: ﴿أَنكَٰثًا﴾ [الآية ٩٢] وواحدها «النُّكْثُ».

قوله سبحانه: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١٠٦] خبر لقوله تعالى ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ ثم دخل معه قوله سبحانه ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ فأخبر عنهم بخبر واحد، اذ كان ذلك يدل على المعنى[2].

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [الآية ٨١] وواحده: «الكِنّ».

وقال جلّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [الآية ١١١] ومعنى كلّ نفس: كلُّ إنسانٍ، وورد التأنيث لأن النفس تؤنّث وتذكّر. يقال «ما جاءتْني نفْسٌ واحدةٌ» و«ما جاءني نَفْسٌ واحدٌ».

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ﴾ [الآية ١١٦] بجعل ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ اسماً للفعل، كأنّ السّياق «وَلاَ تقُولوا لِوَصْفِ ألْسِنَتِكُم ﴿ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ﴾ [الآية ١١٦].

وقال تعالى ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [الآية ١٢١] وقال سبحانه ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ١١٢] بجمع «النِّعْمَة» على «أَنْعُم» كما قال جلّ شأنه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأحقاف/١٥] فزعموا أنّه جَمْعُ «الشِدَّة».

---

(١) يقصد الهمزة على عادة الأقدمين، من عدم تمييز إحداهما من الأخرى.

(٢) نقله في الجامع ١٠/ ١٨٠ بعبارة مغايرة وأفاده في الكشاف ٢/ ٦٣٦.

لكل سؤال جواب في سورة «النحل»(*)

إن قيل: لِمَ قُدِّمَتِ الإراحة، وهي مؤخّرة في الواقع، على السروح، وهو مقدم في الواقع، في قوله تعالى: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝﴾.

قلنا: لأنّ الأنعام، في وقت الإراحة، وهي ردها عشيّاً الى المراح، تكون أجمل وأحسن، لأنها تُقبِل ملأى البطون، حاملة الضروع، متهادية في مشيها، يتبع بعضها بعضاً، بخلاف وقت السروح، وهو إخراجها الى المرعى، فإنّ هذه الأمور كلّها تكون على ضدّ ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [الآية ٧]، إن أريد به: لم تكونوا بالغيه عليها إلاّ بشق الأنفس، فلا امتنان فيه؛ وإن أريد به لم تكونوا بالغيه بدونها إلاّ بشقّ الأنفس، فهم لا يبلغونه عليها أيضاً إلاّ بشق الأنفس، فما الحكمة في ذلك؟

قلنا: معناه وتحمل أثقالكم: أي أجسامكم وأمتعتكم معكم الى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بدونها، بأنفسكم من غير أمتعتكم إلاّ بجهد ومشقة. فكيف لو حملتم أمتعتكم على ظهوركم؟ والمراد بالمشقة: المشقّة التي تنشأ من المشي، أو من المشي مع الحمل على الظهر لا مطلق مشقّة السفر، وهذا مخصوص بحال فقد الإبل، فظهرت الحكمة من ذلك.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [الآية ٨] يقتضي حرمة أكل الخيل، كما

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

اقتضاه في البغال والحمير، من حيث أنه لم ينصّ على منفعة أخرى فيها، غير الركوب والزينة، ومن حيث أن التعليل بعلّة يقتضي الانحصار فيها كقولك: فعلت هذا لكذا، فإنه يناقضه أن تكون فعلته لغيره، أوله مع غيره، إلاّ إذا كان أحدهما جهة في الآخر.

قلنا: ينتقض بالحمل عليها والحراثة بها، فإن ذلك مباح مع أنه لم ينص عليه.

فإن قيل: إنّما ثبت ذلك بالقياس على الأنعام، فإنه منصوص عليه بقوله تعالى ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ﴾ [الآية ٥]، والمراد به كل منفعة، معهودة منها عُرْفاً، لا كُلُّ منفعة. فثبت مثل ذلك في الخيل والبغال والحمير.

قلنا: لو كان ثبوته فيها بالقياس في الأنعام، لثبت حلّ الأكل في الخيل بالقياس على ثبوته في الأنعام أيضاً؛ ولو ثبت حلّ الأكل في الخيل بالقياس، لثبت في البغال والحمير، كما ثبت الحمل والحراثة ثبوتاً شاملاً للكل بالقياس على ثبوته في الأنعام. والجواب عن الجهة الثانية في أصل السؤال، أن هذه اللام ليست لام التعليل، بل لام التمكين، كقوله تعالى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [يونس/ ٦٧، غافر/ ٦١] ومع هذا يجوز في الليل غير السكون.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى في وصف ماء السماء ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الآية ١١] ولم يقل كل الثمرات، مع أن كل الثمرات تنبت بماء السماء؟

قلنا: كل الثمرات لا تكون إلاّ في الجنة، وإنما يَنْبُت في الدينا بعضٌ منها أنموذجاً وتذكرة، فالتبعيض بهذا الاعتبار؛ فيكون المراد بالثمرات ما هو أعم من ثمرات الدنيا، ومن يجوّز زيادة «من» في الإثبات يحتمل أن يجعلها زائدة هنا.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [الآية ١٧]، المراد بمن لا يخلق الأصنامُ، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾، فكيف جيء بمن المختصة بأولي العلم والعقل؟

قلنا: خاطبهم على معتقدهم، لأنهم سموها آلهة وعبدوها، فأجروها مجرى

أولي العلم، ونظير هذا قوله تعالى في الأصنام أيضاً: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف/١٩٥]، فأجرى عليهم ضمير أولي العلم والعقل لما قلناه؛ ويرد على هذا الجواب أن يقال: إذا كان معتقدهم خطأً وباطلاً، فالحكمة تقتضي أن ينزعوا عنه ويقلعوا، لا أن يبقوا عليه ويَقَرُّوا في خطابهم على معتقدهم إيهاماً لهم أنّ معتقدهم حقّ وصواب، وجوابه: أن الغرض من الخطاب الإفهام، ولو خاطبهم على خلاف معتقدهم ومفهومهم فقال: أفمن يخلق كما لا يخلق، لاعتقدوا أنّ المراد من الثاني غير الأصنام من الجماد. الثاني: قال ابن الانباري: إنما جاز ذلك، لأنها ذكرت مع العالم، فغلب عليها حكمه في اقتضاء «مَنْ»، كما في قول العرب: اشتبه عليّ الراكبُ، وَجَمَلُهُ: فما أدري من ذا، ومن ذا.

فإن قيل: هذا إلزام للذين عبدوا الأصنام، وسمّوها آلهة تشبيهاً بالله، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق، فظاهر الإلزام يقتضي أن يقال لهم: أفمن لا يخلق كمن يخلق؟

قلنا: لما سَوّوْا بين الأصنام وخالقها سبحانه وتعالى، في تسميتها باسمه، وعبادتها كعبادته، فقد سوّوْا بينها وبين خالقها قطعاً، فصحّ الإنكار بتقديم أيهما كان؛ وإنما قدم في الإنكار عليهم ذكر الخالق، إمّا لأنه أشرف، أو لأنه هو المقصود الأصلي من هذا الكلام، تنزيهاً له وإجلالاً وتعظيماً.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى في وصف الأصنام ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ [الآية ٢١] بعد قوله تعالى: ﴿أَمْوَٰتٌ﴾؟

قلنا: الحكمة فيه، إفادته أنها أموات لا يعقب موتها حياة، احترازاً عن أموات يعقب موتها حياة. كالنطف والبيض والأجساد الميتة، وذلك أبلغ في موتها، كأنّ الكلام: أموات في الحال غير أحياء في المآل. الثاني: أنه ليس وصفاً لها بل لعبّادها، معناه: وعبّادها غير أحياء القلوب. الثالث: أنه إنما قال ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ ليعلم أنه أراد أمواتاً في الحال، لا أنها ستموت كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر].

فإن قيل: لِمَ عاب الأصنام وعبّادها بأنهم لا يعلمون وقت البعث، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

﴿يُمْنَوْنَ ۝﴾ والمؤمنون الموحّدون كذلك؟

قلنا: معناه وما يشعر الأصنام متى يبعث عبّادها، فكيف تكون آلهة مع الجهل؟ أو معناه: وما يشعر عبّادها، وقت بعثهم لا مفصّلاً ولا مجملاً، لأنهم ينكرون البعث، بخلاف الموحّدين فإنهم يشعرون وقت بعثهم مجملاً، أنه يوم القيامة، وإن لم يشعروه مفصّلاً . .

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝﴾ كيف يعترفون بأنه من عند الله تعالى، بالسؤال المعاد ضمن الجواب، ثم يقولون هو أساطير الأولين.

قلنا: قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه في سورة الحِجْر في قوله تعالى ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝﴾ [الحِجر].

فإن قيل: لم قيل هنا ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الآية ٢٥] وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام/ ١٦٤]؟

قلنا: معناه ومن أوزار إضلال الذين يضلّونهم، فيكون عليهم وزر كفرهم مباشرة، ووزر كفر من أضلّوهم تسبّباً، فقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ يعني أوزار الذنوب التي باشروها. وأما قوله تعالى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فمعناه: وزر لا مدخل لها فيه، ولا تعلّق له بها مباشرة، ولا تسبّباً؛ ونظير هاتين الآيتين قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت/ ١٢] إلى قوله تعالى ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت/ ١٣].

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [الآية ٤٠]، يدل على أن المعدوم شيء، ويدل على ان خطاب المعدوم جائز؛ والأول مُنْتَفٍ عند أكثر العلماء، والثاني منتف بالإجماع؟

قلنا: أما تسميته شيئاً، فمجاز باعتبار ما يؤول إليه، ونظيره قوله تعالى ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝﴾ [الحج] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝﴾ [الزُمَر]. وأما الثاني فإن هذا الخطاب تكوين، يظهر به أثر القدرة،

فيمتنع أن يكون المخاطب به موجوداً قبل الخطاب؛ لأنه إنما يكون بالخطاب، فلا يسبقه، بخلاف خطاب الأمر والنهي.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ [الآية ٤٩] كيف لم يغلب العقلاء من الدواب على غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور/ ٤٥].

قلنا: لأنه أراد عموم كل دابة وشمولها، فجاء بـ «ما» التي تعم النوعين وتشملهما، ولو جاء بـ «من» لخص العقلاء.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الآية ٦١] يقتضي أنه لو أخذ الظالمين بظلمهم لأهلك غير الظالمين من الناس، ولأهلك جميع الدوابّ غير الناس؛ ومؤاخذة البريء بسبب ظلم الظالم، لا يَحْسُن بالحكيم؟

قلنا: المراد بالظلم هنا الكفر، وبالدابّة الظالمة الكافر، كذا قاله ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل معناه: لو أُهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء.

الثاني: يجوز أن يهلك الجميع بشؤم ظلم الظالمين، مبالغة في إعدام الظلم ونفي وجود أثره، حتى لا يوجد بعد ذلك من بقيّة الناس ظلم موجب للإهلاك، كما وجد من الذين أهلكهم بظلمهم؛ ودليل جواز ذلك ما وجد في زمن نوح عليه السلام، فإنه أهلَك بشؤم الظلم الواقع على قوم نوح جميعَ دواب الأرض، وما نجا إلاّ من في السفينة، ولم يبق على ظهر الأرض دابة، ولذا قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال/ ٢٥] ثم إذا فعل ذلك للحكمة والمصلحة التي اقتضت فعله، عوّض البريء في الآخرة ما هو خير وأبقى.

الثالث أن كل إنسان مكّلف، فهو ظالم إما لنفسه أو لغيره، لأنه لا يخلو عن ذنب صغير أو كبير، فلو أهلك الناس بذنوبهم لأهلك الدوابّ أيضاً، لأنه إنما خلق الدواب لمصالح الناس، وإذا عُدِم الناس وقع استغناؤهم عن الدواب كلها.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ [الآية ٦٨] ولم يقل في الجبال وفي الشجر، والاستعمال. هو

أن يقال: اتخذ فلان بيتاً في الجبل أو في الصحراء أو نحو ذلك؟

قلنا: قال الزمخشري رحمه الله: إنما أتي بلفظة «مِنْ»، لأنه أريد معنى البعضية، وأن لا تبني بيوتها في كل جبل وكل شجر، ولا في كل مكان من الجبل والشجر. وأنا أقول: إنما ذكر بلفظ «مِنْ» لأنه أريد كون البيت ببعض الجبل وبعض الشجر، كما نشاهد ونرى من بيوت النحل، لأنه يُتخذ من طين أو عيدان في الجبل والشجر، كما تتخذ الطيور. فلو أُتي بلفظة «في» لم تدل على هذا المعنى، ونظيره قوله تعالى ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء/ ١٤٩].

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الآية ٧٢] وأزواجنا لسن من أنفسنا، لأنهن لو كنّ من أنفسنا لكنّ حراماً علينا، فإن المتفرعة من الإنسان لا يحلّ له نكاحها؟

قلنا: المراد بهذا أنه خلق آدم ثم خلق منه حواء، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء/ ١]. الثاني أنّ المراد من جنسكم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة/ ١٢٨].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾، فعبر بالواو والنون، وهما من خواص من يعقل؟

قلنا: كان فيمن يعبدونه من دون الله، من يعقل كالعزيز وعيسى والملائكة عليهم الصلاة والسلام، فَغَلّبهم.

فإن قيل: لِمَ أَفْرَد في قوله تعالى: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ ثم جمع في قوله سبحانه ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؟

قلنا: أفرد نظراً لِلَفظ «ما»، وجمع نظراً إلى معناها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف] أفرد الضمير نظراً إلى للفظ، وجَمَع الظهور نظراً إلى المعنى.

فإن قيل: ما الحكمة في نفي استطاعة الرزق بعد نفي ملكه والمعنى واحد، لأن نفي ملك الفعل، هو نفي استطاعته، والرزق هنا اسم مصدر بدليل إعماله في «شيئاً»؟

قلنا ليس في «يستطيعون» ضمير مفعول هو الرزق، بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقاً، معناه لا يملكون أن يرزقوا، ولا استطاعة لهم أصلاً في رزق أو غيره، لأنهم جماد. الثاني: أنه لو قدّر فيه ضمير مفعول على معنى ولا يستطيعونه، كان مفيداً أيضاً، على اعتبار كون الرزق اسماً للعين، لأن الإنسان يجوز أن يملك الشيء، ولكن يستطيع أن يملكه، بخلاف هؤلاء، فإنهم لا يملكون، ولا يستطيعون أن يملكوا.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿مَّمْلُوكًا﴾ [الآية ٧٥] بعد قوله تعالى: ﴿عَبْدًا﴾ وما الحكمة في قوله سبحانه ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بعد قوله تعالى ﴿مَّمْلُوكًا﴾؟

قلنا: لفظ العبد يصلح للحرّ والمملوك، لأن الكل عبيد الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص/٣٠] فقال «مملوكاً» لتمييزه من الحرّ، وقال ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لتمييزه من المأذون والمكاتب، فإنهما يقدران على التصرّف والاستقلال.

فإن قيل: المضروب به المثل اثنان، وهما المملوك والمرزوق رزقاً حسناً، فظاهره أن يقال هل يستويان، فَلِمَ قال تعالى: ﴿يَسْتَوُونَ﴾ [الآية ٧٥]؟

قلنا: لأنه أراد جنس المماليك وجنس المالكين، لا مملوكاً ولا مالكاً معيناً. الثاني: أنه أجرى الاثنين مجرى الجمع. الثالث: أن «مَنْ» تقع على الجمع، ولقائل أن يقول على الوجه الثالث: يلزم منه أن يصير المعنى: ضَرَب الله مثلاً عبداً مملوكاً، وجماعةً مالكين هل يستوون، إنه لا يحسن مقابلة الفرد بالجمع في التمثيل.

فإن قيل: «أو» في الخبر للشكّ، والشك على الله تعالى محال، فما معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [الآية ٧٧]؟

قلنا: قيل «أو» هنا بمعنى «بل» كما في قوله تعالى ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ [الصافات]. وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة/ ٧٤] وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم]؛ ويرد على هذا أن «بل» للإضراب، والإضراب رجوع عن الإخبار، وهو على الله محال. وقيل هي بمعنى الواو في هذه الآيات. وقيل «أو» للشك في الكلّ،

لكن بالنسبة إلينا لا إلى الله تعالى، وكذا في قوله تعالى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ يعني بالنسبة الى نظر النبي (ص). وقال الزجّاج: ليس المراد، أنّ الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنّ المراد، وصف قدرة الله على سرعة الإتيان بها، متى شاء.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [الآية ٨١]، ولم يقل: و«البرد»؛ مع أن السرابيل، هي الثياب تلبس لدفع الحر والبرد، وهي مخلوقة لهما؟

قلنا: حذف ذكر أحدهما لدلالة ضدّه عليه، كما في قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران/ ٢٦] ولم يقل: والشر، وكما قال الشاعر:

وَمـا أدري إذا يـمّـمـتُ أرضـاً
أريـدُ الـخـيـرَ أيُّـهُـمـا يَـلِـيـنـي

أي أريد الخير لا الشر، أو أريد الخير وأحذر الشر.

فإن قيل: لم كان ذكر الخير والحرّ أولى من ذكر الشرّ والبرد؟

قلنا: لأن الخير مطلوب العباد من ربّهم، ومرغوبهم إليه؛ أو لأنه اكثر وجوداً في العالم من الشرّ؛ وأما الحرّ فلأن الخطاب بالقرآن، أول ما وقع مع أهل الحجاز، والوقاية من الحر، أهّم عندهم، لأنّ الحرّ في بلادهم أشدّ من البرد.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مع أنّهم كلّهم كافرون؟

قلنا: قال الزمخشري: الأحسن، أن المراد بالأكثر هنا الجمع، وفي هذا نظر؛ لأنّ بعض الناس لا يجوّز اطلاق اسم البعض على الكل، لأنه ليس لازماً له، بخلاف عكسه.

فإن قيل: ما فائدة قول المشركين عند رؤية الاصنام كما ورد في التنزيل: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ [الآية ٨٦] والله تعالى عالم بذلك؟

قلنا: لما أنكروا الشرك بقولهم كما ورد في التنزيل: ﴿رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام] عاقبهم الله تعالى بإصمات ألسنتهم وأنطق جوارحهم، فكان جوابهم عند معاينة آلهتهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ [الآية ٨٦] أي قد أقررنا بعد الإنكار وصدّقنا بعد الكذب، طلباً للرحمة وفراراً من

الغضب، فكان هذا القول على وجه الاعتراف منهم بالذنب، لا على وجه إعلام من لا يعلم. الثاني: أنهم لمّا عاينوا عظيم غضب الله تعالى، وعقوبته قالوا كما ورد في التنزيل: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ رجاء أن يلزم الله الأصنام ذنوبهم، لأنهم كانوا يعتقدون لها العقل والتميز، فيخفّ عنهم العذاب.

فإن قيل: لِمَ قالت الأصنام للمشركين كما ورد في التنزيل: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴿٨٦﴾﴾، وكانوا صادقين في ما قالوا؟

قلنا: إنما قالت لهم ذلك لتظهر فضيحتهم، وذلك أنّ الأصنام كانت جماداً لا تعرف من يعبدها، فلم تعلم أنهم عبدوها في الدنيا، فظهرت فضيحتهم حيث عبدوا من لا يعلم بعبادتهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴿٨٢﴾﴾ [مريم].

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الآية ٨٩]، فإذا كان القرآن تِبياناً لكل شيء من أمور الدين، فمن أين وقع بين الأئمة في أحكام الشريعة هذا الخلاف الطويل العريض؟

قلنا: إنّما وقع الخلاف بين الأئمة، لأن كل شيء يُحتاج إليه من أمور الدين ليس مبيَّناً في القرآن نصّاً، بل بعضه مبيّن وبعضه مستنبَطٌ بيانه منه بالنظر والاستدلال؛ وطريق النظر والاستدلال مختلفة، فلذلك وقع الخلاف.

فإن قيل: كثير من أحكام الشريعة لم تعلم من القرآن نصّاً ولا استنباطاً كعدد ركعات الصلاة، ومقادير باقي الأعضاء، ومدّة السفر والمسح والحيض، ومقدار حدّ الشرب، ونصاب السرقة، وما أشبه ذلك ممّا يطول ذكره.

قلنا: القرآن تبيان لكل شيء من أمور الدين، لأنه نصّ على بعضها، وأحال على السُّنّة في بعضها، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر/٧] وقوله تعالى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴿٣﴾﴾ وأحال على الإجماع ايضاً بقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء/١١٥]، وأحال على القياس أيضاً بقوله تعالى ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴿٢﴾﴾

[الحشر]، والاعتبار النظر والاستدلال. فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها، وكلّها مذكورة في القرآن، فصحّ كونُهُ تِبياناً لكل شيء.

فإن قيل: لِمَ وُحّدت القدم، ونُكّرت، في قوله تعالى ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [الآية ٩٤] ولم يقل القدم أو الأقدام، وهو أشدّ مناسبة لجمع الأيمان؟

قلنا: وُحّدت ونُكّرت في قوله تعالى، لاستعظام أن تَزِلَّ قَدَمٌ واحدة على طريق الجنة، فكيف بأقدام كثيرة؟

فإن قيل: «مَنْ» تتناول الذكر والأنثى لغة، ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ [الأنعام/١٦٠] وقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران/٩٧] وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة] وقوله تعالى ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة/١٨٥] ونظائره كثيرة، فلِمَ قال تعالى هنا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [الآية ٩٧]؟

قلنا: إنما صرح بذكر النوعين هنا، لسبب اقتضى ذلك؛ وهو أن النساء قلن: «ذكر الله تعالى الرجال في القرآن بخير، ولم يذكر النساء بخير، فلو كان فينا خير لَذَكَرَنَا به». فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب/٣٥] الآية، وأنزل ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الآية ٩٧] فذهب عن النساء وَهْمُ تخصيصِهِنّ عن العموميّات.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [الآية ٩٧] وقد رأينا كثيراً من الصلحاء والأتقياء، قطعوا أعمارهم في المصائب والمحن وأنواع البلايا؛ باعتبار الأمثل، فالأمثل، إلى الأنبياء؟

قلنا: المراد بالحياة الطيّبة الحياة في القناعة. وقيل في الرزق الحلال. وقيل في رزق يوم بيوم. وقيل التوفيق للطاعات. وقيل في حلاوة الطاعات. وقيل في الرضا بالقضاء. وقيل المراد به الحياة في القبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران] وقيل المراد به الحياة في الدار الآخرة، وهي الحياة الحقيقية، لأنها حياة لا موت بعدها، دائمة في النعيم المقيم، والظاهر أنّ المراد به الحياة في الدنيا، لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم﴾ [الآية ٩٧] ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ

﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [النساء/١٣٤] كما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عمران/١٤٨].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ وكثير من الصحابة وغيرهم، كانوا كافرين فهداهم الله تعالى الى الإيمان؟

قلنا: المراد من هذا، الكافرون، الذين علم الله تعالى أنهم يموتون على الكفر؛ ويؤيده ما بعد ذلك من الآيتين.

فإن قيل: ما معنى إضافة النفس الى النفس في قوله تعالى ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [الآية ١١١] والنفس ليس لها نفس أخرى؟

قلنا: النفس اسم للروح وللجوهر القائم بذاته، المتعلّق بالجسم تَعَلُّق التدبير. وقيل هي اسم لجملة الانسان، لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران/ ١٨٥] وقوله تعالى ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة/ ٤٥]. والنفس أيضاً اسم لعين الشيء وذاته، كما يقال نفس الذهب والفضة محبوبة: أي عينهما وذاتهما، فالمراد بالنفس الأولى الإنسان، وبالثانية ذاته، فكأنه يوم يأتي كل إنسان يجادل عن نفسه: أي ذاته لا يهمّه شأن غيره، كلٌّ يقول نفسي نفسي، فاختلف معنى النفسين.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [الآية ١١٢] والإذاقة لا تناسب اللباس، وإنّما تناسبه الكسوة؟

قلنا: الإذاقة تناسب المستعار له وهو الجوع، من حيث أنّ الجوع يقتضي الأكل فيقتضي الذوق؛ وإن كانت لا تناسب المستعار وهو اللباس؛ والكسوة تناسب المستعار وهو اللباس، ولا تناسب المستعار له وهو الجوع؛ وكلاهما من دقائق علم البيان، يسمى الأول تجريد الاستعارة، والثاني ترشيح الاستعارة؛ فجاء القرآن العزيز في هذه الآية بتجريد الاستعارة، وقد ذكرنا تمام هذا في كتابنا «روضة الفصاحة»، ولباس الجوع والخوف، استعارة لما يظهر على أهل القرية من أثر الجوع والخوف، من الصفرة والنحول كقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف/٢٦] استعير اللباس لما يظهر على المتقي من أثر التقوى. وقيل إن فيه إضماراً تقديره: فأذاقها الله طعم الجوع وكساها لباس الخوف.

المعاني المجازية في سورة «النحل»(*)

قوله سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [الآية ٢] هذه استعارة: لأن المراد بالروح، هٰهنا، الوحي الذي يتضمن إحياء الخلق، والبيان عن الحقّ. ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى/ ٥٢] ومثله قوله سبحانه في المسيح (ع): ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء/ ١٧١] فسمّاه تعالى روحاً على هذا المعنى، لأنّ به حياة أمته، وبقاء شريعته.

فأما قوله سبحانه: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة/ ٩] فإنما أراد بذلك الروح التي خلقها ليحيي عباده بها، وأضافها الى نفسه كما أضاف الأرض الى نفسه، إذ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء/ ٩٧].

وكان أبو الفتح عثمان بن جنّي رحمه الله يقول: معنى قولهم في القسم: «لَعَمر الله ما قلت ذلك، ولأفعلن ذلك»، إنما يريدون به القسم بحياة يُحيي الله بها، لا حياة يَحْيَى بها، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. فكان المُقْسِم إذا أقسم بهذه الحياة، دخل ما يخصه منها في جملة قسمه، وجرى ذلك مجرى قوله: لعمري. فيصير مقسماً بحياته التي أحياه الله بها. والعَمْر هٰهنا هو العُمر. ومعناه الحياة.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ [الآية ٧] استعارة على أحد التأويلين. وهو أن يكون المعنى: أنكم لا تبلغون هذا البلد إلا بأنصاف أنفسكم، من عظم المشقة، وبُعد الشُقّة، لأن الشّق أحد قِسْمي الشيء. ومنه قولهم: شقيق النفس أي قسيمها، فكأنه من الامتزاج بها شُقّ منها. وعلى ذلك قول الشاعر:

مِنْ بَني عَامِرٍ لهَا نِصْفُ قَلْبِي
قِسْمَةٌ مثلما يُشَقُّ الرِّدَاءُ

فأمّا من حمل قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ على أنّ معناه المشقّة والنصب والكدّ والدأب، فإن الكلام، على قوله، يكون حقيقة، ويخرج عن حدّ الاستعارة. كأنه، سبحانه، قال: إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلاّ بمشقة الأنفس.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [الآية ٩] وهذه استعارة. لأن الجائر هو الضالّ نفسه. يقال: جار عن الطريق. إذا ضلّ عن نهجه، وخرج عن سمْته. ولكنهم لمّا قالوا: طريق قاصِدٌ، أي مُقْصَدٌ فيه، جاز أن يقولوا: طريق جائر أي يُجار فيه.

وقوله سبحانه: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الآية ٢٥]. وهذه استعارة لأنّ الأوزار على الحقيقة هي الأثقال، واحدها وِزْر. والمراد بها هُهنا الخطايا والآثام، لأنها تجري مجرى الأثقال التي تقطع المتون، وتنقض الظهور.

وفي معنى ذلك قولهم: فلان خفيف الظهر. وَصَفُوه بقلة العدد والعيال، أو بقلة الذنوب والآثام.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [الآية ٢٦] وهذه استعارة. لأن الإتيان هُهنا ليس يراد به الحضور عن غيبة، والقربُ بعد مسافة. وإنّما ذلك كقول القائل: أُتيتُ من جهة فلان. أي جاءني المكروه من قبله. وأُتي فلان من مأمنه، أي ورد عليه الخوف من طريق الأمن، والضرّ من مكان النفع.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ [الآية ٢٨]. وهذه استعارة. وليس هناك شيءٌ يُلقى على الحقيقة. وإنما المراد بذلك طلب المسالمة عن ذلّ واستكانة، والتماس وشفاعة. لأنّ من كلامهم أن يقول القائل: ألْقى إليّ فلان بيده. أي خضع

لي، وسلّم لأمري. وقد يجوز أيضاً أن يكون معنى ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾: أي استسلموا وسلّموا. فكانوا كمن طرح آلة المقارعة، ونزَع شِكّة المحاربة. وفي معنى ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة/ ١٩٥] أي لا تستسلموا لها، وتوقعوا نفوسكم فيها.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴿٤٠﴾﴾. وهذه استعارة. لأنه ليس هناك شيء على الحقيقة يؤمر، ولا قول يُسمع. وإنّما هذا القول عبارة عن تحقيق الإرادة وشرعة وجود المراد، من غير معاناة ولا مشقّة، فهو إخبار عن نفاذ قدرته تعالى. فإذا أراد أمراً كان لوقته، من غير أن يبطئ إيجاده، أو يتقاعس إنفاذه. وذلك بمنزلة قول أحدنا: «كُنْ» في خفة اللفظ به، وسرعة التعبير عنه، من غير كلفة تلحقه، ولا مشقة تعترضه.

وقيل إن معنى قوله سبحانه: ﴿كُن﴾، علامة للملائكة يدلّهم بها، عند سماعهم لها، على أنه سيحدث كذا، ويفعل كذا، من محكمات التقدير، ومبرمات التدبير.

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ [الآية ٤٨]. وهذه استعارة. لأن المراد بها رجوع الظلال من موضع الى موضع. والظلال على الحقيقة لا تتفيأ ولا تنقل، وإنما ترد الشمس عليها، ثم ترجع إلى ما كانت عليه، بعد أن تزول الشمس عنها، والشمس هي المتنقلة عليها، والظلال قائمة بحالها.

وقوله تعالى في صفة النحل العسّالة: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [الآية ٦٩]. وفي هذه الآية استعارتان: إحداهما قوله تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، على قول من جعل ذُلُلاً حالاً للسُّبل، لا حالاً للنحل. والذُّلُلُ: جمع ذَلُول، وهي الطرُق المُوَطّأة للقدم، السهلة على الحافر والمنسم، تشبيهاً لها بالإبل الذلُل، وهي التي قد عُوِّدت الترحل، وألفتِ المسير.

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ والمراد بذلك العسل. والعسلُ عند المحقّقين من العلماء غير خارج من

بطون النحل، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار، وأضغاث النبات. لأنه يسقط كسقوط الندى في أماكن مخصوصة، وعلى أوصاف معلومة، والنحل مُلْهَمَةٌ تتّبع تلك المساقط، وتَتَعَهّد تلك المواقع، فتنقل العسل بأفواهها إلى كُوّاراتها[1]، والمواضع المعدّة لها. فقال سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ والمراد من جهة بطونها. وجهةُ بطونها: أفواهُها. وهذا من غوامض هذا البيان، وشرائف هذا الكلام.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴿٨٦﴾﴾ وهذه استعارة. والمراد بإلقاء القول ـ والله أعلم ـ إخراج الكلام مع ضرب من الخضوع والاستكانة والإسرار والخفية، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة/١] وفي هذا الكلام مفعول محذوف. فكأنه قال تعالى: «تُلْقُون إليهم الأخبار بالمودة». وهذا القول، نزل في قوم من المؤمنين، كانوا يجتمعون مع قوم من المنافقين، بأرحامٍ تَلُفُّهم، وخُلَل[2] تولد عنهم، فيتسقّطونهم ليعرفوا منهم أخبار النبي (ص) والمؤمنين، فنُهُوا عن مناقشتهم والاجتماع معهم. فكأنّ المعنى: تلقون إليهم الأسرار بالمودّة التي بينكم، على سبيل الإسرار والإخفاء.

وقد قيل إن المراد: تلقون إليهم المودّة، فقال تعالى: بالمَوَدّة، كما قال سبحانه: ﴿وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴿٢٠﴾﴾ [المؤمنون] أي تنبت الدهن على أحد التأويلين، ونظير التأويل الأول قوله سبحانه في ذِكْر الشياطين: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء] أي يطلبون سماع الأخبار على وجه الاستخفاء والاستسرار، وهذا الوجه لا يصح في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴿٨٦﴾﴾ لأنّ الحال، التي أخبر سبحانه بأن هذا يجري فيها، هي حال القيامة، وتلك حال لا يجوز

---

(١) الكُوّارات بضم الكاف وتشديد الواو جمع كوّارة، وهي بيت يتخذ للنحل من القضبان أو الطين تأوي إليه. أو هي عسلها في الشمع.

(٢) الخلل: جمع خِلّة وهي الصداقة والصحبة.

فيها الاستسرار لقول، ولا الكتمان لسر، لأن السرائر مُظهرةٌ، والضمائر مُصْحَرةٌ[1]. وإنما المراد بهذا الكلام ما يقوله المعبودون لمن عبدهم من الأمة، إذ يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ [الآية ٨٦] فقال المعبودون لهم في الجواب عن ذلك: إنكم لكاذبون، أي في أنّا دعوناكم الى العبادة، أو في قولكم إنّنا آلهة. وقد يجوز أيضاً أن يكون التكذيب من العابدين للمعبودين، فكأنهم قالوا لهم: كذبتم في ادّعائكم، أنّكم تستحقون العبادة من دون الله تعالى. فلم يَبق إذن إلا الوجه الأول في معنى إلقاء القول، وهو أن يكون على وجه الخضوع والضراعة، ويكون سبب هذه الاستكانة الخوف من الله سبحانه، لا خوف بعض الشركاء من بعض. ومثل ذلك قوله سبحانه، عَقِبَ هذه الآية: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [الآية ٨٧] أي استسلموا له عن ضرع ذلة، وانقطاع حيلة. ومن ذلك قولهم: ألقى فلان يد العاني. أي ذَلّ ذُلَّ الأسير، وخَضَع خضوع المقهور.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [الآية ٩٤] وهذه استعارة. لأن المراد بالقدم هٰهنا الثبات في الدِّين. ولما كان أصل الثبات في الشيء والاستقرار عليه، إنّما يكون بالقَدم، حَسُن أن يعبر عن هذا المعنى بلفظ القَدَم، وكأنّ المراد بقوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي يضعف دينكم، ويضطرب يقينكم، فيكون كالقدم الزّالة، والقائمة المائدة.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية ١٠٢] وهذه استعارة. لأن المراد بذلك جبريل عليه السلام، والتقديس: الطهارة، وإنما سمّي رُوح القدس، لأنّ حياة الدين وطهارة المؤمنين، إنّما تكون بما يحمله الى الأنبياء عليهم السلام من الأحكام والشرائع، والآداب والمصالح.

وقوله سبحانه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى

(١) أصحر الأمر: أظهره وأعلنه في غير خفاء.

يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ وهذه استعارة. لأن المراد باللسان هٰهنا جملة القرآن وطريقته، لا العضو المخصوص الذي يقع الكلام به. وذلك كما يقول العرب في القصيدة: هذه لسان فلان. أي قوله. قال شاعرهم:

لسانُ السُّوء تهديها إلينا
وَحِنْتَ وما حسبتُك أن تحينا(1)

أي مقالة السوء. ومثل ذلك قول الآخر(2):

ندمتُ على لسان كان منّي
وددت بأنّه في جوف عِكْمِ

أي على قول سبق مني، لأن الندم إنما يكون على الفعال والكلام، لا على الأعضاء والأعيان.

وإنما سمّي القول لساناً، لأنه إنما يكون باللسان، ويصدر عن اللسان.

وقوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وهذه استعارة. لأن حقيقة الذوق إنما تكون في المطاعم والمشارب، لا في الكُسَى والملابس. وإنما خرج هذا الكلام مخرج الخبر عن العقاب النازل بهم، والبلاء الشامل لهم. وقد عُرف في لسانهم، أن يقولوا لمن عوقب على جريمة، أو أخذ بجريرة: ذُقْ غِبَّ فعلك، واجْنِ ثمرة جهلك. وإن كانت عقوبته ليست مما يُحَسُّ بالطعم، ويُدْرَك بالذوق. فكأنّه سبحانه لمّا شملهم بالجوع والخوف على وجه العقوبة، حَسُنَ أن يقول تعالى: فأذاقهم ذلك، أي أوْجَدَهم مرارته، كما يجد الذائق مرارة الشيء المرير،

---

(1) رُوِيَ هذا البيت في: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي جزء ١٠ ص ١٧٩ هكذا:

لسان الشر تهديها إلينا ... وخنتَ وما حسبتُكَ أن تخونا

ولم تذكر كتب الشواهد اسم قائل هذا البيت.

(2) هو الحطيئة الشاعر، كما جاء في «لسان العرب» مادة: لسن. إلا أنه روي في اللسان هكذا:

ندمت على لسان فات مني ... فليت بأنه في جوف عِكْم.

والعكم بكسر العين: العدل الذي توضع فيه الأشياء، أو الكارة.

ووخامة الطعم الكريه. وإنّما قال سبحانه: ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ ولم يَقُل: طعم الجوع والخوف، لأنّ المراد بذلك ـ والله أعلم ـ وصف تلك الحال بالشمول لهم، والاشتمال عليهم، كاشتمال الملابس على الجلود، لأنّ ما يظهر منهم عن مضيض الجوع، وأليم الخوف، من سوء الأحوال، وشحوب الألوان، وضؤولة الأجسام، كاللباس الشامل لهم، والظاهر عليهم.

سورة الإسراء

١٧

أهداف سورة «الإسراء»(*)

سورة الإسراء سورة مكّية، نزلت في السنة الحادية عشرة للبعثة قبل الهجرة بسنة وشهرين. وتسمّى سورة «الإسراء»، نظراً لذكر الإسراء في صدرها، كما تسمّى سورة «بني إسرائيل»؛ لأنها تحدّثت عنهم، وعن إفسادهم في الأرض، وعن عقوبة الله لهم على هذا الفساد.

وعدد آياتها ١١١ آية، وهي من أواخر ما نزل من السُّورَ في مكّة، وقد تميّزت آياتها بالطول النسبي، وبسط الفكرة، والدعوة إلى التحلّي بالآداب ومكارم الأخلاق.

فسورة الإسراء اشتملت على خصائص السورة المكّية، ومن ناحية أخرى ظهرت فيها صفات من خصائص السورة المدنية، لأنها من أواخر ما نَزَل في مكّة فهي ممهّدة للعهد المدني، أو هي ممّا يشبه المدني، وهو مكّي.

الإسراء

بدأت سورة الإسراء بقوله تعالى:

﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①﴾.

وخلاصة الإسراء: أن الله تعالى، أكرم رسوله محمداً (ص)، بمعجزة إلهية، هي الانتقال به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بالشام، ثم صعد إلى السماوات العُلا، ورأى من كل سماء مقرّبيها، ورأى سِدرة

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

المنتهى، وجنة المأوى، وآيات ربه الكبرى، ثم فرض الله سبحانه عليه الصلاة، لتكون صلة بين المخلوق والخالق، ورباطاً بين الإنسان وربه، وعاد (ص) إلى مكة قبل طلوع الفجر.

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، رحلة مختارة من لَدُن اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى، من إبراهيم وإسماعيل (ع) إلى محمد خاتم النبيين (ص)، وتربط بين الأماكن المقدّسة لديانات التوحيد جميعاً. وكأنّما أريد بهذه الرحلة العجيبة، إعلان وراثة الرسول الأخير لمقدّسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً؛ فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان، وتتضمّن أكبر من المعاني القريبة، التي تنكشف عنها للنظرة الاولى.

والإسراء آية صاحَبَتْها آيات:

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾.

والنقلة العجيبة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، في الوقت القصير، آية من آيات الله، تفتح القلب على آفاق عجيبة في هذا الوجود، وتكشف عن نعم الله على الجنس البشري، الذي كرّمه الله وفَضّله على كثير من خلقه، واصطفى من بينهم رسلاً وأنبياء، يوحي إليهم ويخصُّهم بالنبوّة والهداية، والمعجزات الباهرة.

هذا الإسراء آية من آيات الله. وهو نقلة عجيبة بالقياس إلى مألوف البشر، والمسجد الأقصى، هو طرف الرحلة، وهو قلب الأرض المقدّسة التي بارك الله حولها، بركات مادية ومعنوية، فحولها الأشجار والثمار، وإليها يتحرّك الحجيج، وقد زارها الأنبياء والمرسلون.

واتفق جمهور العلماء على أن الإسراء كان بالروح والجسد، يقظةً لا مناماً؛ وذهب بعض العلماء إلى أن الإسراء كان بالروح فقط، وكان في النوم لا في اليقظة، لقوله تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الآية ٦٠].

وقد رد جمهور العلماء بأن هذه الآية، تشير إلى رؤيا رآها النبي (ص) ليلة غزوة بدر الكبرى، قال تعالى:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال/ ٤٣].

أو تشير إلى رؤيا رآها النبي (ص) بدخول المسجد الحرام حاجّاً معتمراً قبل صلح الحديبية، قال تعالى:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

واستدل الجمهور، بأن الله جعل الإسراء آية كبرى، وقال ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ والعبد مجموع الروح والجسد، ولو شاء لقال: «أسرى بروح عبده».

ثم إن كفار مكّة أنكروا الإسراء، وارتدّ بعض ضعاف الإيمان بسبب الإسراء، ولو كان الإسراء مناماً، لما أنكره كفّار مكّة، ولما ارتدّ بسببه ضعاف الإيمان، ولما تميّز أبو بكر الصديق رضي الله عنه، بتصديقه من بين سائر الناس.

وقد ركب الرسول (ص) البُراقَ، وركوب البراق من خصائص الأجساد؛ والإسراء في حقيقته معجزة إلهية، خاصة بالرسول الأمين؛ ولا حرج على فضل الله، ولا حدود لقدرته، فهو سبحانه على كل شيء قدير، قال شوقي:

يتساءلون وأنتَ أطهرُ هيكلٍ
بالرّوح أم بالهيكل الإسراءُ
بهما سموتَ مُطَهَّراً وكلاهما
نورٌ وروحانيّةٌ وبهاءُ

وعد الله لبني اسرائيل

بدأت سورة الإسراء بالحديث عن الإسراء بالنبيّ الأمين؛ والسورة في مجملها تتحدّث عن النبي (ص) وعن القرآن الذي نزل عليه، وموقف المشركين من هذا القرآن؛ وفي خلال هذا الحديث، تستطرد إلى ذكر بني إسرائيل، والحديث عن ماضيهم وفسادهم في الأرض؛ وعقوبة الله لهم، كأنّها تتوعّد كلّ مكذّب ومفسد بالعقاب العادل؛ وفي هذا تهديد لكفار مكة، ولكلّ خارج على نطاق الإيمان وشريعة العدل، والنظام الإلهي.

ويلاحظ أن وعيد الله لبني إسرائيل، على إفسادهم في الأرض مرّتين، لم يُذْكَرْ في القرآن إلاّ في صدر سورة الإسراء.

وقد تعدّدت أقوال المفسّرين في بيان القوم الذين سلّطهم الله على اليهود، وذهب جمهور المفسرين إلى أن المسلّط عليهم في المرة الأولى هو بختنصر البابلي، وقد غزاهم سنة ٦٠٦ قبل الميلاد، ثم ساعدهم قورش ملك الفرس سنة ٥٢٦ قبل الميلاد، فعادوا لبلادهم وأعادوا بناء هيكلهم.

والمسلّط عليهم في المرة الثانية هم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠م، وقد كان إذلالهم في المرة الثانية أشدّ وأنكى، وقد تفرّق اليهود في البلاد بعد هزيمتهم الثانية، وأصبح تاريخهم ملحقاً بتاريخ الممالك التي نزلوا فيها، ولم يرجع اليهود إلى فلسطين إلا في العصر الحديث.

وينبغي أن ندرك أن آيات سورة الإسراء، لا تحدّد تاريخاً معيّناً لفساد اليهود، ولا قوما بأعيانهم سلّطهم الله عليهم، فإذا أردنا معرفة ذلك فلنرجع إلى التاريخ، لا لنحكّمه في فهم القرآن، ولكن لنستأنس به فقط.

وخلاصة الآيات التي تحدثت عن فساد اليهود ما يأتي:

١ ـ أخبر الله تعالى أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض مرتين، وهذا الفساد معناه طغيان وعدوان منهم على عباد الله، وخروجهم على الطريق القويم.

٢ ـ أخبر الله تعالى عنهم أنهم لمّا طَغَوْا وبَغَوْا، سلّط الله عليهم من ينتقم منهم.

٣ ـ بعد الانتقام الأول، عادوا إلى الطريق الجادّة فانتصروا على أعدائهم، لكنّهم لم يلبثوا أن عادوا للفساد، فحقّ عليهم وعيد الله تعالى.

٤ ـ سلّط الله سبحانه، عليهم في المرة الثانية، من أذلّهم وهدم هيكلهم، وقضى عليهم وعلى ملكهم.

٥ـ ذكر الله تعالى، أنه يشملهم برحمته إذا تابوا إليه، فإن عادوا للفساد عاد عليهم بالعقاب.

وقد عنيت سورة الإسراء، بالحديث عن مكارم الأخلاق.

فدعت إلى توحيد الله جلّ جلاله، وأمرت بالإحسان إلى الوالدين، وصلة الرحم، والعطف على الفقير والمسكين وابن السبيل؛ ونهت عن التبذير، والقتل، والزنا، وتطفيف الكيل، وأكل مال اليتيم، والكِبْر، والبَطَر. وإذا قرأت الآيات ٢٣ ـ ٣٩، رأيت دستوراً أخلاقياً كريماً، يأمر بالفضائل، ويحثّ

على القيم، وينهى عن الرذائل، ويحذّر من المعاصي والموبقات.

وترى أن القرآن أعظم كتاب في التربية الأخلاقية والسلوكية، وهذه التربية هي التي صاغت المجتمع الإسلامي المحمّدي صياغة جديدة مهذّبة؛ وصار القرآن روحاً جديدة يسري في أوصال المجتمع العربي والإسلامي، فيهدم حطام الجاهلية وأوثانها، ويقيم على أشلائها دولة جيّدة، تؤمن بالله ورسوله، وتهتدي بكتابه الذي أنزله الله نوراً وهدى. فترى المسلم إمّا عابداً في مسجده، أو ساعياً إلى رزقه، أو مجاهداً في سبيل إعلاء كلمة الله. وجمعت المسلمين راية جديدة، شعارها الإخلاص، وعمادها الحب لله ورسوله، وقوّتها في تماسك المسلمين، وأخوّتهم وتَرابطهم وتَساندهم، حتّى أصبحوا يداً واحدة كالبنيان المرصوص، يشدّ بعضه بعضاً.

أوهام المشركين، وحجج القرآن الكريم

في الآيات ٣٩ ـ ٥٨: من سورة الإسراء، حديث عن أوهام الوثنية الجاهليّة، حول نسبة البنات والشركاء إلى الله.

وخلاصة ذلك، أنهم جعلوا الملائكة إناثاً، ثم ادّعوا، كذباً وبهتاناً، أنهنّ بنات الله ثم عبدوهنّ، فأخطأوا في الأمور الثلاثة خطأً عظيماً.

ثم تحدّثت السورة عن البعث، واستبعاد الكافرين لوقوعه، وعن استقبالهم للقرآن، وتقوّلاتهم على الرسول (ص)، وأمرت المؤمنين أن يقولوا قولاً آخر، ويتكلّموا بالتي هي أحسن.

وفي الآيات ٥٩ ـ ٧٢: بيّنت السورة، لماذا كانت معجزة محمد (ص)، معجزة عقلية خالدة، ولم تكن معجزة مادية محدودة؛ فقد كذّب الأوّلون بالخوارق فحقّ عليهم الهلاك اتّباعاً لسنة الله؛ كما تناولت الحديث عن الإسراء وحكمته، وأن الله جعله فتنة وامتحاناً للناس، ليتميّز المؤمنون، وينكشف المنافقون؛ ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إبليس اللعين، وإعلانه أنه سيكون حرباً على ذُرّية آدم.

يجيء هذا الطرف من القصة، كأنه كشف لعوامل الضلال، الذي يبدو من

المشركين، ويعقب عليه بتخويف البشر من عذاب الله، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم، في تكريم الإنسان، وتمييزه من المخلوقات جميعها، وتسخير الكون جميعه له، حتى يفكّر بعقله، ويؤمن بقلبه، فمن اهتدى، أخذ كتابه بيمينه يوم القيامة؛ ومن عمي عن الحق في الدنيا، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً.

وفي الآيات ٧٣ ـ ٨٨: تستعرض سورة الإسراء كيد المشركين للرسول (ص) ومحاولتهم فتنته عن بعض ما أُنزل إليه، ومحاولة إخراجه من مكّة؛ ثم تأمر النبي (ص)، بأن يمضيَ في طريقه، يقرأ القرآن، ويؤدّي الصلاة، ويدعو الله أن يحسن مدخله ومخرجه؛ وتذكر رسالة القرآن بأنها شفاء لأمراض الجاهليّة، ورحمة بالجماعة الإسلامية.

وفي الآيات ٨٨ ـ ١١١: نجد القسم الأخير من السورة، ويستمر الحديث في هذه الآيات عن نزول القرآن وإعجازه، بينما يطلب كفار مكّة خوارق مادية، يطلبون نزول الملائكة، ويقترحون أن يكون للرسول (ص) بيت من زخرف، أو جنّةٌ من نخيل وعنب، تتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً؛ أو أن يفجّر لهم من الأرض ينبوعاً من الماء، أو أن يرقى هو في السماء، ثم يأتيهم بكتاب ملموس محسوس، فيه شهادة بأنه مرسل من عند الله.. إلى آخر هذه المقترحات، التي يُمليها العنت والمكابرة، لا طلب الهدى والاقتناع. ويردّ الله سبحانه على هذا كلّه، بأنّ ذلك خارج عن وظيفة الرسول، وطبيعة الرسالة.

فالرسول بشر يوحى إليه، وليس إلهاً يتحكّم في مظاهر الكون؛ وقد سبق أن أعطى الله تعالى موسى (ع) معجزات مادية، فكذّب بها فرعون، وجحد نبوّة موسى؛ فكانت العاقبة، أن أغرق الله فرعون ومن معه من المكذِّبين.

إن طريقة القرآن الكريم، هي طريقة الدعوة الهادفة المتأنّية، وقد نزل مفرّقاً ليقرأه الرسولُ على قومه في هدوء وتُؤَدة، وليجيب عن أسئلة السائلين، وليكون كتاب الحياة، يحياها مع المؤمنين، يعلّمهم دينهم، ويردّ عنهم دعاوى أعدائهم، ويلفتهم إلى الكون وما فيه، حتّى يعبدوا الله ويسجدوا له

عن خشوع ويقين. وتُختم سورة الإسراء، بحمد الله وتنزيهه عن الولد والشريك في المُلْك، كما بدئت بتنزيه الله وتسبيحه؛ ففي أوّل السورة:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾.

وفي آخر السورة:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

من أسرار الإعجاز في سورة الإسراء

يقول الله تعالى في سورة الإسراء:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

لقد كانت هناك معركة فكرية ونفسية، بين القرآن والمشركين، ألصق المشركون فيها التُّهم بالرسول (ص) فَرَمَوْهُ بالسحر والجنون، وافتراء القرآن من عند نفسه، وقد نزلت سورة الإسراء في ذروة هذه المعركة واحتدامها، بعد أن مات أبو طالب عمّ الرسول، وماتت زوجته خديجة، فكان الإسراء تسريةً للرسول الأمين، وكانت سورة الإسراء قلعة من حصون البيان والجدال بالحجة الدامغة والدليل الواضح.

إنّك تحسّ عند قراءة السورة نبضاتٍ حيّة، تصوّر عنف المشركين وضلال عقيدتهم، وتبرز أسلوب الدعوة الجديد، الذي يملك الحجّة على قضية الالوهيّة، ويسوق الأدلة على قضيّته من سجلات التاريخ ومن واقع الكون ومشاهده، ومن التحدي بالقرآن، وتأكيد عجزهم عن الإتيان بمثله.

والقرآن في سياق حديثه، ينتقل من فن إلى فن، ومن وصف للإسراء إلى حديثٍ عن تاريخ اليهود، إلى ردّ على دعوى المشركين، إلى ذكر قصصٍ لآدم وإبليس، وفرعون، وموسى.

ويربط القرآن بين هذه الأفكار المتناثرة في الظاهر، برباط قوي متين، يؤكد أنه كتاب الله.

وقد تعرّضت علوم السابقين للنقض والتعديل، ولم يبقَ كتابٌ منزّهٌ عن النقض والعيب، إلاّ هذا الكتاب.

وفي ختام هذا الحديث، يمكننا أن نُرجع أهداف سورة الإسراء إلى الأمور الآتية:

١ ـ معجزة الإسراء من مكّة إلى بيت المقدس.

٢ ـ تاريخ بني إسرائيل، وإفسادهم في الأرض، وعقوبة الله لهم.

٣ ـ جملة من الآداب، يجب على المسلمين أن يتحلّوا بها، حتى تظلّ رابطتهم قوية متماسكة.

٤ ـ بيان أنّ كل ما في السماوات والأرض، مُسّبح لله.

٥ ـ الكلام على البعث، مع إقامة الأدلّة على إمكانه.

٦ ـ الردّ على المشركين، الذين اتخذوا مع الله آلهة، من الأوثان والأصنام.

٧ ـ الحكمة في عدم إنزال المعجزات التي اقترحوها، على محمد (ص).

٨ ـ قصص سجود الملائكة لآدم، وامتناع إبليس عن السجود.

٩ ـ تعداد بعض نعم الله سبحانه.

١٠ ـ طلب المشركين من الرسول (ص) أن يوافقهم في بعض معتقداتهم، وإلحافهم في ذلك.

١١ ـ أمر النبي (ص) بإقامة الصلاة والتهجّد في الليل.

١٢ ـ بيان إعجاز القرآن، وأنّ البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله.

١٣ ـ قصص موسى مع فرعون.

١٤ ـ الحكمة في إنزال القرآن مُنَجّماً.

١٥ ـ تنزيه الله سبحانه، عن الولد والشريك والناصر والمعين.

ترابط الآيات في سورة «الإسراء»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة الإسراء بعد سورة القَصَص، وقد كانت حادثة الإسراء في السنة الحادية عشرة للبعثة، فيكون نزول سورة الإسراء في هذه السنة.

وقد سُمِّيت هذه السورة بهذا الاسم، لابتدائها بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾. وتبلغ آياتها إحدى عشرة ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة ثلاثة أمور: أولها: إثبات حادثة الإسراء، وقد كان الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فاستدعى هذا بيان فضل هذا المسجد، وذكر بعضٍ من أخبار أهله. وثانيها: الموازنة بين كتابي المسجدين، القرآن والتوراة؛ وقد استدعى هذا، ذكر بعض ما أتى به القرآن من الحكم والمواعظ. وثالثها: بيان حكمة الإسراء من اختبار الناس به. وقد عاد السّياق، بعد هذا، إلى بيان فضل القرآن، فانتهى به الكلام في هذه السورة.

وقد ذُكرت سورة الإسراء بعد سورة النحل، لأن الإسراء كان رمزاً للهجرة إلى المدينة، وكان في الهجرة إليها تحقيق ما أُنذروا به، من قرب عذابهم في أول سورة النحل.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

إثبات الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى
الآيات (١ ـ ٨)

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ فذكر تعالى أنه أسرى بالنبي (ص) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ليريه ما فيه من آياته؛ ثم ذكر أنه أنزل التوراة على موسى شريعة لأهله من بني إسرائيل، وأنه قضى إليهم فيها، أنهم سيفسدون في أرضهم مرتين، ويخرجون على شريعتهم بعبادة الأوثان والأصنام، وأنه إذا جاءت المرة الأولى، بعث عليهم قوماً ذوي بأس شديد، ليخربوا ديارهم ويهدموا مسجدهم، وهم قوم بختنصّر ملك بابل، ثم ينقذهم منهم وينصرهم عليهم ويجعلهم أحسن حالاً ممّا كانوا عليه قبل غزوهم؛ فإذا جاءت المرة الثانية بعث عليهم قوماً آخرين يخربون ديارهم ويهدمون مسجدهم كما هدم في المرة الأولى، وهم الروم الذين غزوهم وأخرجوهم من ديارهم، ثم التفت السياق إلى اليهود المعاصرين للنبي (ص) بقوله تعالى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾.

الموازنة بين كتابي المسجدين
الآيات (٩ ـ ٥٩)

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ فذكر أن القرآن يهدي إلى شريعةٍ أقوم من التوراة، وأنه يبشّر المؤمنين بأن لهم أجراً كبيراً، وينذر الكافرين بأنّ لهم عذاباً أليماً؛ ثم ذكر سبحانه أنهم يستعجلون هذا العذاب، الذي ينذرهم به، استعجالهم للخير، وكان الإنسان عجولاً؛ واستدلّ على قدرته عليه، بأنه جعل الليل والنهار آيتين، فمحى آية الليل وجعل آية النهار مبصرة، ليبتغوا أرزاقهم فيها، وليعلموا عدد السنين والحساب ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ ثم ذكر أن كلّ إنسان تحصى عليه أعماله في دنياه، ليحاسب عليها يوم القيامة، وأنّ من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها، ولا تزرُ وازرة وِزر أخرى ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا

يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴿١٥﴾﴾.

ثم ذكر أنه تعالى إذا أراد أن يهلك قرية بذلك العذاب الذي يستعجلونه، أمَرَ مترفيها ففسقوا فيها، فَحَقَّ عليها العذاب فدمّرها تدميراً؛ وأنه كم أهلك من القرون، بهذا الشكل من بعد نوح (ع)، وأنه أعلم بذنوب عباده، فيقدّر لهم وقت عذابهم كما يريد ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴿١٧﴾﴾.

ثم ذكر أن من يريد العاجلة عجّل له فيها، ما يشاء من خير أو شر، لمن يريد. وليس لأحد أن يتعجّله في شيء، وأنّ من يريد الآخرة ويسعى لها، شَكَر له سعيه، وأنّه يمدُّ كلاً منهما في الدنيا بعطائه، ولا يحظره عن أحد من عباده، وأنه يفضّل بعضهم على بعض في هذا العطاء، وستكون الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

ثم بيّن بعضاً من شريعة القرآن، في الأصول والفروع والأخلاق، فنهى عن الشرك به، وأمر بالإحسان إلى الوالدين، وبإيتاء ذي القربي حقّه والمسكين وابن السبيل، ونهى عن التبذير في المال، وأمر بالاعتذار الحَسَن عند العجز عن الإحسان، إلى غير هذا من الأحكام التي ختمها بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴿٣٩﴾﴾ فختمها بالنهي عن الشرك كما ابتدأها به، وأتبعه بتوبيخهم على نوع خاص من شركهم، وهو زعمهم أن الملائكة بنات الله، فذكر أنه لا يصح أن يُؤثِرهم بالبنين، ويَتَّخِذَ من الملائكة إناثاً ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴿٤٠﴾﴾.

ثم ذكر تعالى أنه صرّف في القرآن هذا التصريف من الكلام في الأصول والفروع والأخلاق، ليكون فيه موعظة للناس، ولكنّه لا يزيدهم إلاّ نفوراً؛ وأمر النبي (ص)، أن يذكر لهم دليلاً على بطلان الشرك لا يمكنهم أن يماروا فيه، وهو أنه لو كان معه سبحانه آلهة لابْتَغَوْا سبيلاً إلى منازعته، ثم نزّه سبحانه نفسه عمّا يزعمونه من أن له شركاء في ملكه، وذكر أنه هو الذي تسبّح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وأنه ما من شيء إلاّ يسبّح بحمده، ولكنهم لا يفقهون تسبيحهم.

ثم ذكر أنه إذا قرأ القرآن جعل بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعل على قلوبهم أكنّة أن

يفقهوه، وفي آذانهم وقراً؛ وأنّه إذا ذكره في القرآن، ولم يذكر آلهتهم فرّوا على أدبارهم نفوراً، وأنه أعلم بحالهم حين يستمعون إليه وإذْ هُم نجوى إذ يقولون إنْ تتبعون إلاّ رجلاً مسحوراً؛ ثم ذكر ممّا يحملهم على زعم هذا فيه، أنّه يدعي أنهم يُبعثون بعد أن يصيروا عظاماً، ورفاتاً خلقاً جديداً؛ وردّ عليهم، بأن الذي فطرهم المرة الاولى قادر على بعثهم؛ ثم ذكر أنهم سَيُنْغِضُون رؤوسَهُمْ[1] ويقولون: متى هو؟ وأجابهم بأنه عسى أن يكون قريباً ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

ثم أمر النبي (ص) بأن يأمرهم بأن يقولوا التي هي أحسن، من قولهم إنه رجل مسحور؛ وذكر لهم أن الشيطان ينزغُ بينهم ويزيّن لهم هذه الشتائم، وأنه سبحانه هو أعلم بهم، إن يشأ يرحمهم بالإيمان أو يعذبهم بالكفر، ولم يرسله وكيلاً عليهم، حتى يضيقوا به ويشتموه، وأنه جلّ جلاله أعلم بمن في السماوات والأرض، وقد فضّل بعض النبيين على بعض بمقتضى علمه، وآتى داود زبوراً؛ فلا يصحّ لهم أن يقولوا في النبي (ص) وفي قرآنه، مالا علم لهم به.

ثم أمرهم بأن يدعوا شركاءهم ليكشفوا عنهم ذلك الضرّ، الذي يتعجّلون به، فإنهم لا يملكون كشفه عنهم، ولا تحويله، لأنهم عبيد مثلهم، يبتغون إليه سبحانه الوسيلة، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه؛ ثم ذكر أنه مامِنْ قريةٍ من قرى المكذّبين إلا هو مهلكها قبل يوم القيامة، أو معذّبها عذاباً شديداً، كان ذلك في الكتاب مسطوراً؛ ثم أشار إلى أنه اختار لهم أن يعذّبهم بتسليط المؤمنين عليهم، ولا يُهْلكَهم بآيات عذابه، فقال تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

بيان حكمة الإسراء
الآيات (٦٠ ـ ٨١)

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ

(١) أي سيحركونها.

﴿أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾ فذكر سبحانه أنه وعده بالنصر عليهم، حينما أخبرهم بالإسراء فكذّبوه، وارتدّ كثير منهم، وأنه لم يجعل رؤيا الإسراء إلاّ فتنة لهم؛ فقد افتتنوا بها، كما افتتنوا بشجرة الزُّقّوم الملعونة في القرآن، فقالوا: زعم محمد أن نار جهنم تحرقُ الحجر، ثم زعم أن في النار شجرة وهي تأكل الشجر، فكيف ينبت فيها الشجر؟ ثم ذكر أنه يخوّفهم بذلك، فما يزيدهم إلاّ طغياناً كبيراً.

ثم ذكر لهم قصة آدم مع الملائكة وإبليس، لأنها كانت للاختبار أيضاً، ليتّعظوا في اختبارهم بالإسراء، بما حصل لإبليس حينما عصى أمر ربه من الطرد واللعن، ولا يقعوا في مثل ما وقع فيه بتكذيبها؛ وقد ختمها بقوله لإبليس ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

ثم شرع السياق في أخذهم بالترغيب بعد الترهيب، فذكر سبحانه، أنه هو الذي يسوق السفن في البحر، ليبتغوا من فضله، وأنهم إذا مسّهم الضرّ في البحر وخافوا الغرق لا يلجأون إلاّ إليه في كشفه عنهم، فإذا نجّاهم إلى البر يعرضون عنه ويكفرون بنعمته؛ ولا يأمنون أن يخسف بهم جانب البر أو يرسل عليهم ريحاً حاصباً، أو يعيدهم في البحر مرة أخرى فيغرقهم بسبب كفرهم؛ ثم ذكر أنه كرّم بني آدم بنعمة العقل، وحملهم في البرّ والبحر، ورزقهم من الطيّبات، وفضّلهم على كثير من خلقه، وأنه سيبعثهم ويحاسبهم على ما أنعم به عليهم، فمن أوتي كتابه بيمينه، وهم الذين قاموا بحقّ هذه النعم، فإنهم يكافأون على ذلك ولا يُظْلَمُون فتيلاً؛ ومن لم يقم بحق هذه النعم، ولم ينظر بعقله في دنياه حتى صار فيها كالأعمى، فهو في الآخرة أعمى وأضلُّ سبيلاً.

ثم ذكر تعالى أن فتنة الإسراء، بلغ من شدّتها أنهم كادوا يفتنون النبي (ص) عمّا أوحي إليه من أمرها، ليفتري لهم غيره؛ ولولا أن ثبّته سبحانه فيها، لقد كاد يركن إليهم شيئاً قليلاً؛ ثم ذكر أنهم كادوا يحملونه على الخروج من مكّة، لشدّة استهزائهم به، ولو أنهم أخرجوه منها لأهلكهم كما أهلك من قبلهم منْ أخرجوا أنبياءهم من بينهم؛ ثم أمره بأن يعرض عنهم ويُقْبِل على

عبادته، وإقامة الصلاة له في أوقاتها من فروض ونوافل، لينصره عليهم، ويبعثه مقاماً محموداً يظهر فيه أمره عليهم؛ وقد كان ذلك بالهجرة إلى المدينة، وكان الإسراء قبلها بسنة واحدة، ثم أمَرَه أن يلجأ إليه في تهيئة ذلك المقام المحمود حتى يخرجه من مكّة مُخْرَج صدق، ويدخله ذلك المقام المحمود مُدْخل صدق، وأن ينبئهم بقرب ذلك اليوم الذي يظهر فيه حقّه على باطلهم ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴿٨١﴾﴾.

عود إلى بيان فضل القرآن الآيات (٨٢ ـ ١١١)

ثم قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴿٨٢﴾﴾، فعاد السياق إلى الكلام على فضل القرآن، وذكر أنه سبحانه ينزّل منه ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ويزداد به الكافرون خساراً إلى خسارهم؛ ثم بَيّن سبب ذلك فيهم، وهو استكبارهم واغترارهم بأموالهم التي أنعم الله بها عليهم؛ فذكر سبحانه أن شأن الكافر إذا أنعم عليه استكبر، وإذا مسّه الفقر بلغ به اليأس كل مبلغ؛ ثم ذكر أن كلاً من المؤمنين والكافرين، يعمل من ذلك على شاكلته، وأنه سبحانه أَعْلَمُ بمن هو أهدى سبيلاً منهم؛ ثم ذكر تعالى أنهم يسألون النبيّ (ص) عن الروح، وهو القرآن، ما دليله على أنه من عند الله؟ وأَمَرَه أن يجيبهم بأنه من أمره، وأن ما جاءهم به من العلم قليل بالنسبة إلى واسع علمه؛ وأنه سبحانه لو شاء أن يأخذ هذا القليل وذهب بما أوحى إليه من القرآن لفعل، لأنه لا يريد به شيئاً لنفسه، وإنما يريد مصلحتهم؛ ثم بَيّنَ لهم الدليل على أنه من عنده، وهو عَجْزُ الإنس والجن أن يأتوا بمثله؛ وذكر أنه تحدّاهم بذلك على وجوه كثيرة، فمِنْ عشر سور إلى سورة واحدة، إلى التحدي به كلّه؛ ولكنهم يأبون إلا كُفوراً، ويطلبون معجزات أخرى، كأن يفجّرَ لهم يَنْبُوعاً من الأرض، أو يكون له في واديهم جنّة من نخيلٍ وعنب تجري فيها الأنهار، إلى غير هذا مما اقترحوه على وجه التعنّت والتحَكُّم، وقد أمره تعالى بأن يجيبهم بأنه ليس إلاّ بشراً رسولاً؛ ثم ذكر أنهم لم يمنعهم من الايمان بالقرآن، إلاّ استبعادهم أن يكون رسوله من البشر، وأمره أن يجيبهم بأنه لو

كان في الأرض ملائكة، يمشون مطمئنين لنزل عليهم من السماء مَلَكاً رسولاً؛ وبأنه قد شهد على صدقه بمعجزة القرآن، وكفى به شهيداً بينه وبينهم؛ ثم ذكر أن الهداية والضلال بإرادته لا بالمعجزات، فإذا أراد هداية قوم هداهم، وإذا لم يرد هداية قوم، فلن يوجد لهم أولياء من دونه يهدونهم؛ ويحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمْياً بُكْماً صُمّاً، مأواهم جهنّم، كلّما خبت زادهم سعيراً، ذلك لأنهم كفروا بمعجزة القرآن، وأنكروا ما جاء به من بعثهم؛ ثم ذكر أنهم لو نظروا في خلق السماوات والأرض، لعلموا أنه قادر على أن يبعثهم، وأنه جعل لبعثهم أجَلاً لا ريبَ فيه، وإن كفروا به.

ثم ذكر أنهم لو ملكوا خزائن رحمته، وهي أعظم مّما اقترحوه من تفجير الأرض وغيره لَبَخِلوا بها، فلا فائدة من إجابتهم إلى ما اقترحوه عليه؛ ثم ذكر أنه آتى موسى تسع آيات بيّنات مثل هذه الآيات، فلم يؤمن فرعون بها، وأراد أن يستفزّ بني إسرائيل من أرضه فأغرقه جلّت قدرته، ومن معه جميعاً، وأسكن بني إسرائيل الأرض التي وَعَدَهم بها.

ثم عاد السياق إلى تعظيم شأن القرآن، فذكر سبحانه أنه لم ينزّله إلاّ بالحق وبالحق نزل، وأنه لم يرسله إلاّ مبشّراً ونذيراً، فمن شاء آمن ومن لم يشأ لم يؤمن؛ ثم ذكر أنه نَزله مفرّقاً ليقرأه على الناس على مُكْثٍ، وأن إيمانهم به وعدمه سواء، لأن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يُتْلى عليهم يخرُّون ساجدين لأذقانهم؛ ثم ختم السورة فأمَرَهم بأن يدعوه باسمه أو باسم الرحمن، أو غيرهما من أسمائه الحسنى؛ ونهاه أن يجهر بصلاته أو يخافت بها، وأمره أن يبتغي بين ذلك سبيلاً ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «الإسراء»(*)

إعْلَم أن هذه السورة، والسُّوَر الأربع التي بعدها، هي من قديم ما أُنزل. أخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال، في بني إسرائيل، والكهف ومريم وطه والأنبياء: «من العتاق الأول، وهنّ من تلادي[(1)]» وهذا وجه في ترتيبها، وهو اشتراكها في قِدَم النزول، وكونها مكّية، وكونها مشتملة على القصص.

وقد ظهر لي في وجه اتصالها بسورة النحل: أنه سبحانه، لمّا قال: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في آخر النحل[(2)] فسّر في هذه شريعة أهل السبت وشأنهم؛ فذكر فيها جميع ما شرع لهم في التوراة، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: «التوراة كلّها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل»[(3)]. وذكر عصيانهم وفسادهم، وتخريب مسجدهم؛ ثم ذَكَر استفزازهم للنبي (ص) ورغبتهم في إخراجه من المدينة، ثم ذَكَر سؤالهم إيّاه عن الروح، ثم خَتَم السورة بآيات موسى التسع، وخطابه مع فرعون، وأخبر أن استفزازهم للنبي (ص) ليخرجوه من المدينة هو وأصحابَهُ، نظيرَ ما وقع لهم مع فرعون لمّا استفزّهم، ووقع ذلك أيضاً.

ولما كانت هذه السورة مصدَّرة بقصة تخريب المسجد الأقصى، فقد أُسْرِي بالمصطفى إليه، تشريفاً له بحلول ركابه الشريف.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(1) أخرجه البخاري في التفسير: ٦/ ١٨٩ عن ابن مسعود؛ والتلاد: القديم.

(2) الآية ١٢٤.

(3) تفسير ابن جرير: ١٧/ ٢٤٣.

مكنونات سورة «الإسراء»(*)

١ ـ ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ [الآية٥].

قال ابنُ عبّاس وقَتَادَة: بَعَثَ الله عَلَيْهِم جالوت. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

وفي «العجائب» للكَرماني، قيل: هم سَنْحاريب[1] وجنوده[2].

وقيل: العمالقة.

وقيل: قَوْمٌ مُؤْمِنُون، بدليل إضافتهم إليه تعالى.

٢ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [الآية ٧].

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) كذا في «تفسير ابن كثير».

(٢) عزاه الحافظ ابن كثير في تفسيره» ٣/ ٢٥ إلى سعيد بن جبير، ثم قال الحافظ بعد ذلك: «وقد ذكر ابن أبي حاتم ـ أي في «تفسيره» له ـ أي سنحاريب ملك الموصل ـ قصّة عجيبة، في كيفية ترقيه من حال إلى حال، إلى أنه ملَك البلاد، وأنّه كان فقيراً مقعداً، ضعيفاً يستعطي الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنّه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقَتَلَ بها خلقاً كثيراً من بني إسرائيل؛ وقد روى ابن جرير إلى هذا المكان حديثاً، أسنده عن حذيفة مرفوعاً مُطوّلاً وهو موضوع لا محالة، لا يستريب في ذلك مَنْ عنده أدنى معرفة بالحديث؛ والعجب كل العجب، كيف راج عليه، مع جلالة قدره وإمامته، وقد صرح الحافظ العلامة أبو الحجاج المِزّي رحمه الله بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب. وقد وردت في هذا آثار كثيرة إسرائيلية، لم أر تطويل الكتاب بذكرها، لأن منها ماهو موضوع من وضع بعض زنادقتهم؛ ومنها ماقد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن في غنية عنها ولله الحمد». ثم ذكر ابن كثير رواية ابن جرير عن سعيد بن المسيّب، وهي قول سعيد بن المسيّب: ظهر بُخْتُنَصَّر على الشام، فخرب بيت المقدس، وقتلهم؛ ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلي على كبا، فسألهم ما هذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، كلما ظهر عليه الكبا ظهر، قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين، وغيرهم فسكن». قال ابن كثير: «وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب». وقال أيضاً: «وهذا هو المشهور».

قال عطيّة ومُجاهِد: بَعَث عليهم في الآخرة بُخْتُنَصّر. أخرجه ابن أبي حاتم.

٣ ـ ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الآية ٥٦].

قال ابن عبّاس: عيسى وأمه، وعُزَيْر. أخرجه ابن أبي حاتم[1].

٤ ـ ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الآية ٦٠].

قال ابن عباس: هي شَجَرة الزَّقُّوم أخرجه ابنُ أبي حاتم[2].

٥ ـ ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ [الآية ٧٣].

نزلتْ في رجالٍ من قريش، منهم: أُميّة بن خلف، وأبو جهل. أخرجه ابْن أبي حاتم، عن ابن عباس[3].

٦ ـ ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ [الآية ٧٦].

نَزَلَتْ في اليهود كما أخرجه البيهقي في «الدلائل»، من مُرْسَلِ عبد الرحمن ابن غَنْم[4].

٧ ـ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الآية ٨٠].

قال مَطَر الورّاق[5] المدينة؛

قال: و: ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الآية ٨٠]: مكّة. أخرجه ابنُ أبي حاتم[6].

٨ ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الآية ٨٥].

أخرج الشيخان[7] وغيرُهما عن ابنِ مَسْعُود: أنّ السائلين اليهود.

وأخرج التِّرمِذِيّ[8] عن ابنِ عبّاس: أنّهم قريش.

---

(١) وفي «تفسير الطبري» ١٥/ ٧٢ من طريق العَوْفي، عن ابن عبّاس، قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة وعُزَيْراً، وهم الذين يُدعون، يعني الملائكة والمسيح وعزيراً.

(٢) والبخاري في «صحيحه» برقم (٤٧١٦) في التفسير، والترمذي برقم (٣١٣٣) في التفسير، والواحدي في «أسباب النزول»: ٢١٨.

(٣) في «تفسير الطبري» ١٥/ ٨٨ عنه: أنهم من ثقيف.

(٤) ضعّفه الحافظ ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٥٣، غير كونه مرسلاً، فانظره.

(٥) مطر بن طَهْمان الورّاق، أبو رجاء، السلمي مولاهم، الخراساني، سكن البصرة، كان صدوقاً في حديثه، كثير الخطأ، مات سنة ١٢٥.

(٦) وأخرج نحوه الترمذي (٣١٣٨) وأحمد عن ابن عبّاس. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٧) البخاري (٤٧٢١) في التفسير، ومسلم في صفة القيامة (١٢).

(٨) برقم (٣١٣٩) في التفسير في «سننه» وقال هذا حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه.

٩ - ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا﴾ [الآية ٩٠].

سَمّى ابنُ عبّاسٍ، مِنْ قائِلي ذلك عَبْدَ الله بنَ أبي أميّة. أخرجه ابنُ أبي حاتم(١).

١٠ - ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الآية ١٠١].

قال ابنُ عبّاس: هي الطُّوفان، والجَرَاد، والقُمّل، والضّفادع، والدم، والعَصا، واليد، والسنون(٢)، ونقص من الثّمرات. أخرجه ابنُ أبي حاتم(٣) وأخرج عن سعيد بنِ جُبير، قال: كان بين كلّ آيتين من هذه التسع، ثلاثون يوماً. وأخرج عن زيد بنِ أسْلَم، قال: كانت في تسع سنين، في كل سنة آية.

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٣/ ٦٢.

(٢) السنون: الجدب.

(٣) قال ابن كثير: «وهذا القول ظاهر جليٌّ، حسنٌ قويّ».

لغة التنزيل في سورة «الإسراء»[*]

١ ـ قال تعالى: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ [الآية ٥]

قُرئ: فحاسُوا بالحاء المهملة، وليس هذا من باب الإبدال الذي يعرض لقرب مخارج الأصوات، كالعين والهمزة، والحاء، والهاء، والتاء، والثاء، والسين، والشين، وقد يكون لقرب صفة الصوت من صفة أخرى.

وعلى هذا، فإن «جاسوا» كلمة برأسها، و «حاسوا» كلمة أخرى، وإن اتّفق المعنى.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝٧﴾.

أي ليُهلكوا كلّ شيء غَلَبوه واسْتَوْلَوْا عليه[1].

٣ ـ وقال تعالى:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ۝٢٥﴾ يريد بـ «الأوّابين» «التوّابين».

وعن سعيد بن جبير: هي في البادرة تكون من الرجل إلى أبيه، لا يريد بذلك إلاّ الخير.

وعن سعيد بن المسيّب، الأوّاب: الرجل كلّما أذنَبَ بادر بالتوبة. ويجوز أن يكون هذا عامّاً لكل من فَرَطَتْ منه جناية ثمّ تاب منها، ويندرج فيه الجاني على أبويه، التائب من جنايته لوروده على أثره.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) انظر الآية ١٣٩ من سورة الأعراف.

أقول: وفي هذه الدلالات كلّها على التقائها، نلمح الفعل «آب» بمعنى رَجَعَ.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

الخِطْءُ: هو الإثم، وقُرِئَ الخَطَأ مثل الحَذَر، وخِطَاء بالفتح والكسر مع المد، والخَطا بالفتح وحذف الهمزة.

أقول: والخِطْء: هو الاسم كالخَطَأ والخِطَاء.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الآية ٤٦].

في هذه الآية، معنى المنع من الفقه، فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه، والتقدير كراهة أن يفقهوه. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾، فيه معنى المنع.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ [الآية ٥١] أي يحرّكون نحوك رؤوسَهُمْ تعجّباً واستهزاءً.

ونَغَضَ الشيء يَنْغِضُ نَغْضاً، ونُغُوضاً، ونَغَضاناً، وتَنَغَّضَ، وأَنْغَضَ، بمعنى تحرّك واضطرب. ونَغَضَتْ أسناني، أي: قَلِقَتْ وتحرّكَتْ. ونَغَضَ فلان رأسَه يتعدّى، ولا يتعدّى.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

وزَبُور والزُّبُور: الكتاب، وهو بمعنى مفعول، أي المزبور، والجمع زُبُر؛ وزَبَرْتُ الكتاب كتبته.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كَرَّمتَه عليّ، أي فَضَّلْتَه، لِمَ كَرَّمتَه عليّ، وأنا خيرٌ منه؟

ثم قال تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، أي لأَسْتَأْصِلَنَّهُمْ بالإغواء. وهذا من قولهم: احتَنَكَ الجرادُ الأرضَ، إذا جَرَدَ ما عليها أكْلاً، وهو من الحَنَك.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الآية ٦٤]

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ﴾ من الجلَبة، وهي الصياح.

والمراد بـ «الخيل» الخيّالة، أي الفرسان، ومنه قول النبي (ص): «ياخيلَ الله اركبي».

والرَّجِل: اسم جمع للرجال كالركب والصَّحْب، وقرئ، ورجْلك.

على أن فَعِلاً بمعنى فاعل، نحو: تَعِبٌ وتاعب.

ومعناه: وجمعك الرَّجِل، وتُضَمُّ جيمه أيضاً، فيكون مثل حدِث وحَدُث، ونَدِس ونَدُس، وفطِن وفَطُن.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

أقول: والتبيع: المُطالِب.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة/١٧٨] أي مُطالَبَة، قال الشمّاخ [من بحر الوافر]:

يَلوذُ ثعالبُ الشرفَينِ منها
كما لاذ الغريمُ من التَّبيعِ

ويقال: فلان على فلان تبيعٌ بحقّه، أي مسيطر عليه، مُطالِبٌ له بحقّه.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الآية: ٧٦]. وقوله تعالى ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾، أي: ليُزعجونَك بعَداوتهم ومَكْرهم.

أقول: فَزَّ فلاناً عن موضعه فَزّاً: أزعَجَه.

واستَفَزَّه: استَخَفَّه وأخرَجَه من داره[1] وأزعَجَه، وأفزَزْتُه: أزعَجْته.

وللاستفزاز في العربية المعاصرة خصوصية دلالية، فهو التحريش والإيذاء، بقصد إثارة الخصم، ليقول شيئاً أو يفعل؛ يقال استَفَزَّ القويُّ الضعيفَ، بمعنى ظلمه واعتدى عليه من غير سبب، ليحمله على أن يفعل شيئاً، فيحلّ عليه ظلمه واضطهاده.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي: كان مُضْمَحِلاً.

أقول: والفعل «زهق» في الآية من قولهم، كما أشرنا: «زَهَقَتْ نفسُه» إذا خَرَجَت.

و «الزُّهُوق» بمعنى خروج النفس، قد بقي شيء منه في الدارجة العراقية، يقال في هذه اللهجة العامّية: فلان زهق (بإبدال القاف كافاً ثقيلة) يريدون

---

(١) وإلى هذا المعنى، أشارت الآية الكريمة ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ﴾ [الآية ١٠٣].

غَضِبَ غضباً شديداً، حتى خرج عن الحدّ وتجاوز في السلوك. وهذا الاستعمال الدارج ذو صلة أكيدة بالكلمة الفصيحة القديمة التي لم يبق لها أثر في الفصيحة الحديثة، اللهم إلاّ ما كان قد أُخذ من لغة القرآن، واستعمل على غرار الآية.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾. والقبيل: الكفيل بما تقول، شاهداً بصحته.

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ . . . [الآية ٩٣]. المراد بـ «الزُّخرُف» الذَّهب.

أقول: كأنَّ البيت مزخرف بالذهب.

١٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾.

أي ضَيِّقاً بخيلاً.

أقول: في اللغة المعاصرة الأصل المزيد «قتَّر» وهو مُقَتِّر، أي بخيل ضيِّق.

المعاني اللغوية في سورة «الإسراء»(*)

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ [الآية ١] يقال «أَسْرَيْتُ» و «سَرَيْتُ».

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾ أي، والله أعلم، قُلْ يا محمد ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ وقل: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ [الآية ٥] و «الأولى» مثل «الكُبرى» يُتكلّم بها بالألف واللام، ولا يقال «هذه أولى».

والإضافة تعاقب الألف واللام، فلذلك قال سبحانه ﴿أُولَاهُمَا﴾، كما تقول «هذه كُبْراهُما» و «كُبراهنّ» و«كُبْرَاهُمْ عِنْدَه».

وقال تعالى: ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الآية ١١] بنصب «الدعاء» على الفعل، كما تقول «إنّكَ مُنْطَلِقٌ انْطلاقاً»(١).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الآية ٢٣] ويقال: «نهرَه» و «انتهَرَه» «ينتهِرُه».

قال تعالى ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا﴾ [الآية ٣١] من «خَطِئَ» «يخطَأُ» تفسيره: «أذْنَبَ» وليس في معنى: «أخطَأ» لأن ما أخطأت فيه ما صنعته خطَأً «خَطِئْتَ» فيه ما صنعته عمْداً، وهو الذنب. وقد يقول ناس من العرب: «خَطِئْتُ» في معنى «أخْطَأْتُ»(٢) قال امرؤ القيس [من الرجز وهو الشاهد التاسع والثلاثون بعد المئتين]:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٥٧٨.

(٢) نقله في زاد المسير ٥/ ٣١.

يا لَهفَ نَفسي[1] إذ خَطِئنَ كاهِلا
القاتِلِينَ المَلِكَ الحُلاحِلا
تاللهِ لا يَذهَبُ شَيخي باطِلا

وقال آخر[2] من الكامل وهو الشاهد الأربعون بعد المئتين]:

والنّاسُ يَلحَونَ الأميرَ إذا هُمُ
خَطِئوا الصَّوابَ ولا يُلامُ المُرشَدُ[3]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ هذا، وأشباهه مذكراً كان أو مؤنثاً، تقول فيه «أولئكَ». قال الشاعر[4] [من الكامل وهو الشاهد الحادي والسبعون]:

ذُمَّ المنازل بَعدَ مَنزِلَةِ اللِّوى
والعَيشَ بَعدَ أولئِكَ الأيّامِ[5]

وهذا كثير.

وقال تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ فالفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول: «إنّكَ مَشؤوم علينا» و «ميمون» وإنّما هو «شائم» و «يامن»، لأنه من «شأمَهُم» و «يَمَنَهُم» و «الحجابُ» هٰهنا هو الساتر؛ وقال سبحانه ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ (مَسْتُورا)[6].

وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ فقال ﴿عُلُوًّا﴾ ولم يقل «تعالياً» كما قال ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المُزّمّل]. قال الشاعر [من الكامل وهو الشاهد الحادي والأربعون بعد المئتين]:

أنتَ الفداءُ لكَعبَةٍ هَدَّمتَها
ونَقَرتَها بِيَدَيكَ كُلَّ مُنَقَّرِ

---

(١) ورد هذا الرجز، في ديوان امرئ القيس ص ١٣٤، بلفظ «هند» بدلاً من لفظ «نفسي» ومع تقديم المصراع الثالث، وبلفظ «والله»، وتأخير المصراع الثاني، وجاء بلفظ «هند» في اللسان، مادة «خطأ» أيضاً؛ بَيْدَ أنّ اللسان لم يذكر إلاّ المصراع الأوّل.

(٢) هو عبيد بن الأبرص. ديوانه ٤٢.

(٣) البيت في الديوان: إذا غوى خطب الصواب، ولا شاهد فيه؛ وورد في اللسان، مادة «أمر» كما رواه الأخفش.

(٤) هو جرير بن عطية اليربوعي، التميمي (ت ١١٠ هـ/ ٧٢٨م).

(٥) ديوان جرير ص ٩٩٠. وفيه «ذُمّ» مكان «ذُمّي»، و«الأقوام» مكان «الأيّام».

(٦) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٥٨٥، والبحر ٦/ ٤٢.

مَنَعَ الحَمامُ مَقِيلَهُ مِنْ سَقْفِها
ومِنَ الحَطِيمِ فَطارَ كُلُّ مُطَيَّرِ[1]

وقال الآخر [من الرجز وهو الشاهد الثاني والأربعون بعد المئتين]:

يَجْرِي عَلَيْها أَيَّما إجْراءِ

وقال الآخر[2] [من الوافر وهو الشاهد الثالث والأربعون بعد المئتين]:

وَخَيْرُ الأمرِ ما اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ
وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّباعا

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الآية ٤٧] «النَّجوَى» فِعْلُهُمْ كما تقول: «هُمْ قَوْمٌ رِضًى» وإنّما «الرِّضى» فِعْلُهم.

وقال تعالى ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الآية ٥٣] بجعله جواباً للأمر[3].

وقال تعالى ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الآية ٥٩] يقول «بها كانَ ظُلْمُهُم»[4] و«المُبْصِرةُ» البيِّنة، كما تقول: «المُوضِحَة» و«المُبَيِّنَةُ».

وقال تعالى ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ [الآية ٧٧] أي: سَنَنَّاها سُنَّةً[5]. كما قال ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الآية ٨٧].

وقال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الآية ٧٨] أي، والله أعلم، وَعَلَيْكَ قرآن الفجر[6].

وقال تعالى ﴿يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ مِنْ «يَئِس».

وقال جلّ شأنه ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ [الآية ١١٠] أي ـ والله أعلم ـ «أيًّا تَدْعُوا».

وقال سبحانه ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ [الآية ٦٤] من «أَجْلَبْتَ» وهو في معنى «جَلَبَ»، والموصولة من «جَلَبَ» «يَجْلُبُ».

(١) ورد في المحتسب ١/ ٨١ و٩٤ و ٣٠١، و٢/ ٦ و٢١. البيت الأوّل وحده مروياً عن الأخفش غير معزوّ.

(٢) هو القطامي. ديوانه ٣٥، والكتاب وتحصيل عين الذهب ٢/ ٢٤٤، والعجز في الخصائص ٢/ ٣٠٩ وفي البيان ٢/ ١٧٣ بـ «وخيراً الأمر».

(٣) نقله في البحر ٦/ ٤٩.

(٤) نقله في زاد المسير ٥/ ٥٢.

(٥) نقله في زاد المسير ٥/ ٧١.

(٦) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٥٩٢ والبحر ٦/ ٧٠، ونقله في الجامع ١٠/ ٣٠٥ ناسباً إيّاه الى الزّجاج.

وقال تعالى ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الآية ١١٠] يقول: «أيّ الدُّعائَيْنِ تَدْعُوا فَلَهُ الأسماءُ الحُسْنى»[1].

وقال سبحانه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ﴾ [الآية ٧٩] و﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ﴾ [التحريم/٨] يقال «عَسَى» من الله واجبة.

(١) نقله في إعراب القرآن ٢/٥٩٨، وأفاده في الكشاف ٢/٧٠٠.

لكل سؤال جواب في سورة «الإسراء»(*)

إن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ [الآية ١] ولم يقل «بنبيّه»، أو «برسوله»، أو «بحبيبه»، أو «بصفيّه»، ونحو ذلك؛ مع أن المقصود من ذلك الإسراء، تعظيمه وتبجيله؟

قلنا: إنّما سمّاه عبداً في أرفع مقاماته، وأجلّها، وهو هذا؛ وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم] كي لا تغلط فيه أمّته، وتضل به كما ضلّت أمة المسيح (ع) به، فدعته إلهاً. وقيل كي لا يتطرّق إليه العجب والكبر.

فإن قيل: الإسراء لا يكون إلاّ بالليل، فما فائدة ذكر الليل؟

قلنا: فائدته أنه ذُكِرَ مُنَكَّراً ليدل على قصر الزمان الذي كان فيه الإسراء والرجوع، مع أنه كان من مكّة إلى بيت المقدس مسيرة أربعين ليلة، وذلك لأن التنكير يدل على البعضية، ويؤيده قراءة عبد الله وحذيفة، «الليل»: أي بعض الليل كقوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً﴾ [الآية ٧٩] فإنه أمر بالقيام في بعضه.

فإن قيل: أي حكمة في نقله (ص)، من مكّة إلى بيت المقدس، ثم العروج به من بيت المقدس إلى السماء؛ ولِمَ لَمْ يُعْرَجْ به من مكة إلى السماء دُفْعةً واحدة؟

قلنا لأن بيت المقدس مَحْشَرُ الخلائق، فأراد الله تعالى أن يطأها الرسول (ص)، ليسهل على أمته يوم

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

القيامة وقفهم عليها، ببركة أثر قدمه (ص).

الثاني: أن بيت المقدس مجمعُ أرواح الأنبياء (ع)، فأراد الله تعالى أن يشرّفهم بزيارته (ص). الثالث: أنّه أسرى به إلى بيت المقدس، ليشاهدَ من أحواله وصفاته، ما يخبر به كفّارَ مكّةَ صبيحة تلك الليلةِ، فيدلّهم إخباره بذلك، مطابقاً لما رأوا وشاهدوا، على صدقه في حديث الإسراء.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الآية ١] ولم يقل باركنا عليه أو باركنا فيه، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المسجد، وحوله؛ خصوصاً المسجد الأقصى؟

قلنا: أراد سبحانه البركة الدنيوية، بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وذلك حوله لا فيه. وقيل أراد البركة الدينية، فإنه مقرّ الأنبياء (ع)، ومُتعبَّدُهم ومهبطُ الوحي والملائكة، وإنما قال جلّ وعلا: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ لتكون بركته أعمّ وأشمل، فإنه أراد بما حوله ما أحاط به من أرض بلاد الشام، وما قاربه منها، وذلك أوسعُ من مقدار بيت المقدس؛ ولأنه إذا كان هو الأصل، وقد بارك في لواحقه وتوابعه من البقاع، كان هو مباركاً فيه بالطريق الأولى، بخلاف العكس. وقيل المراد البركة الدنيوية والدينية، ووجههما ما مرّ. وقيل المراد باركنا حوله، من بركة نشأت منه، فعمّت جميع الأرض، فإن مياه الأرض كلّها، أصل انفجارها من تحت الصخرة التي في بيت المقدس.

فإن قيل، ماوجه ارتباط قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ بما قبله، ومناسبته له؟

قلنا: معناه لا تتّخدوا من دوني ربّاً فتكونوا كافرين، ونوح كان عبداً شكوراً، وأنتم ذرّية من آمن به، وحمل معه، فتأسّوا به في الشكر، كما تأسّى به آباؤكم.

فإن قيل لِمَ قال الله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ﴾ [الآية ٧] ولم يقل: فعليها، كما قال سبحانه: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصّلت/٤٦] ؟

قلنا: اللام هنا بمعنى على، كما في قوله تعالى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣﴾ [الصافات] وقوله تعالى ﴿يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ﴾ [الآية ١٠٧] وقيل معناه، فلها رجاء بالرحمة، أوفلها خلاصٌ بالتوبة والاستغفار؛ والصحيح، أن اللام هنا على بابها، لأنها للاختصاص؛ وكل عامل مختص

بجزاء عمله، حسناً كان أو سيئاً؛ وقد سبق مثل هذا مستوفى في آخر سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الآية ١٢] وقال في قصة مريم وعيسى (ع) ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء] ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون/ ٥٠] مع أن عيسى (ع) كان وحده آياتٍ شتّى، حيث كلّم الناس في المهد، وكان يُحيي الموتى بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق الطير وغير ذلك؛ وأمّه وحدها، كانت آية، حيث حملت من غير فحل؟

قلنا: إنّما أراد به الآية التي كانت مشتركة بينهما ولم تتم إلاّ بهما، وهي ولادة ولد من غير فحل، بخلاف الليل والنهار والشمس والقمر. والثاني: أن فيه آية محذوفة، إيجازاً واختصاراً تقديره: وجعلناها آية وابنها آية، أي وجعلنا ابن مريم آية، وأمّه آية.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الآية ١٢] والإبصار من صفات ما لَهُ حياة؛ والمراد بآية النهار، إمّا الشمس وإمّا النهار نفسه؛ وكلاهما غير مبصر؟

قلنا: المبصرة في اللغة بمعنى المضيئة، نقله الجوهري، وقال غيره معناه بيّنة واضحة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الآية ٥٩] أي آية واضحة مضيئة، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل/ ١٣] الثاني، معناه، مُبْصَراً بها إن كانت الشمس، أو فيها، إن كانت النهار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس/ ٦٧] أي مُبْصَراً فيه؛ ونظيره قولهم، ليل نائم ونهار صائم: أي ينام ويصام فيه. والثالث، أنه فعل رباعي منقول بالهمزة عن الثلاثي الذي هو بَصُرَ بالشيء: أي علم به، فهو بصير، أي عالم؛ معناه: أنه يجعلهم بصراء، فيكون أبصره بمعنى بصره، وعلى هذا حمل الأخفش قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل/ ١٣] أي تُبَصِّرهم، فتجعلهم بُصَراء. الرابع، أن بعض الناس زعم أن الشمس حيوان له حياة وبصر وقدرة، وهو متحرك بإرادته امتثالَ أمر الله تعالى، كما يتحرّك الإنسان.

فإن قيل: ما الحكمة في ذكر عدد السنين، مع أنه لو اقتصر على القول

لتعلموا الحساب، دخل فيه عدد السنين، إذ هو من جملة الحساب؟

قلنا: العدد كله موضوع الحساب، كبدن الإنسان فإنه موضوع الطب، وأفعال المكلفين موضوع الفقه، وموضوع كل علم مغاير له، وليس جزءاً منه. كبدن الإنسان ليس جزءاً من الطب، ولا أفعال المكلفين جزءاً من الفقه؛ فكذا العدد، ليس جزءاً من الحساب؛ وإنما ذُكِرَ عددُ السنين وقُدِّمَ على الحساب، لأن المقصود الأصلي من محو الليل وجعل آية النهار مبصرة، علم عدد الشهور والسنين، ثم يتفرّع من ذلك علم حساب التاريخ، وضرب المدد والآجال.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴿١٤﴾﴾ وقال في موضع آخر ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]؟

قلنا: مواقف القيامة مختلفة، ففي موقف يَكِلُ الله، سبحانه، حسابهم إلى أنفسهم، وعلمه محيط به؛ وفي موقف يحاسبهم، هو جلّ جلاله. وقيل إنه سبحانه هو الذي يحاسبهم لا غيره، وقوله تعالى ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴿١٤﴾﴾، أي يكفيك أنك شاهد على نفسك بذنوبها، عالم بذلك؛ فهو توبيخ وتقريع، لا أنه تفويض لحساب العبد إلى نفسه. وقيل من يريد مناقشته في الحساب يحاسبه بنفسه، ومن يريد مسامحته فيه يكل حسابه إليه.

فإن قيل: قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام/١٦٤] ويرد ماجاء في الأخبار، أن في يوم القيامة يؤخذ من حسنات المغتاب والمديون، ويزاد في حسنات ربِّ الدَّيْن والشخص الذي اغْتِيب، فإن لم تكن لهما حسنات يوضع عليهما من سيئات خصميهما، وكذلك جاء هذا في سائر المظالم؟

قلنا المراد من الآية، أنها لاتحمله اختياراً ردّاً على الكافرين؛ حيث قالوا للذين آمنوا، كما ورد في التنزيل ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت/١٢]، والمراد من الخبر، أنها تحمله كرهاً، فلا تَنَافِي؛ وقد سبق هذا مرة في آخر سورة الأنعام.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الآية ١٦] وقال في آية أخرى ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف/٢٨].

قلنا: فيه إضمار تقديره أمرناهم بالطاعة ففسقوا. وقال الزّجاج، ومثله

قولهم أمرته فعصاني، وأمرته فخالفني، لا يفهم الأمر بالمعصية ولا الأمر بالمخالفة. الثاني: أن معناه كثّرنا مترفيها، يقال أمرته وآمرته بالمد والقصر يعني كثّرته وقد قرئ بهما، ومنه الحديث «خير المال مهرة مأمورة وسكّة مأبورة»، أي كثيرة النتاج والنسل. والثالث أن معناه أمّرنا مترفيها بالتشديد، يقال أمّرت فلاناً بمعنى أمرته: أي جعلته أميراً، فمعنى الآية سلطانهم بالإمارة، ويُعزّز هذا الوجه قراءة من قرأ (أمّرنا) بالتشديد. وقال الزمخشري رحمه الله: لا يجوز أن يكون معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا، لأن حذف مالا دليل عليه في اللفظ غير جائز، فكيف يقدّر حذف ماقام الدليل في اللفظ على نقيضه، وذلك لأن قوله تعالى ﴿فَفَسَقُوا﴾ يدل على أن المأمور به المحذوف، هو الفسق، وهو كلام مستفيض، يقال أمرته فقام، وأمرته فقعد، وأمرته فقرأ؛ لا يفهم منه، إلا أن المأمور به القيام والقعود والقراءة؛ بخلاف قولهم أمرته فعصاني، وأمرته فخالفني؛ حيث لا يكون المأمور به المحذوف المعصية والمخالفة؛ لأن ذلك مناف للأمر، مناقض له؛ ولا يكون ما يناقض الأمر وينافيه مأموراً به، فيكون المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه، ولا منويّ؛ والمتكلم بمثل هذا، لا ينوي لأمرِهِ مأموراً به؛ بل كأنه قال: كان منّي أمر، فلم تكن منه طاعة، أو كانت منه مخالفة؛ كما تقول: مُرْ زيداً يطعك، وكما تقول: فلان يأمر وينهى، ويعطي ويمنع، ويصلُ ويقطَعُ، ويضرُ وينفَعُ؛ فإنك لا تنوي مفعولاً.

فإن قيل: على هذا، حقيقة أمرهم بالفسق، أن يقول لهم افسقوا؛ وهذا لا يكون من الله، فلا يقال يقدّر الفسق محذوفاً، ولا مأموراً به.

قلنا: الفسق المحذوف المقدر، مجاز عن إترافهم؛ وصب النعم عليهم صبّاً، أفضى بهم إلى جعلها ذريعة إلى المعاصي، ووسيلة إلى اتّباع الشهوات؛ فكأنهم أمروا بذلك، لمّا كان السبب في وجوده الإتراف، وفتح باب النعم.

فإن قيل: لم لا يكون ثبوت العلم، بأن الله لا يأمر بالفحشاء، وإنما يأمر بالطاعة والعدل والخير، دليلاً على المراد أمرناهم بالطاعة ففسقوا.

قلنا: لو جاز مثل هذا الإضمار والتقدير، لكان المتكلّم مريداً من مخاطبه علم الغيب؛ لأنه أضمر ما لا

دلالة عليه في اللفظ، بل أبلغ، لأنه أضمر في اللفظ ما يناقضه وينافيه؛ وهو قوله تعالى ﴿فَفَسَقُوا﴾ فكأنه أظهر شيئا، وادّعى إضمار نقيضه، فكان صرف الأمر إلى ماذكرنا من المجاز، هو الوجه؛ هذا كله كلام الزمخشري، ولا أعلم أحداً من أئمة التفسير صار إليه غيره؛ ثم إنه أيّد فقال: ونظيره أمر «شاء»، في أن مفعوله استفاض فيه الحذف، لدلالة ما بعده تقول: لو شاء فلان لأحسن إليك، ولو شاء لأساء إليك، تريد لو شاء الإحسان لأحسن، ولو شاء الإساءة إليك لأساء، فلو ذهَبْتَ تضمر خلاف ما أظهرت فتعني، ولو شاء الإساءة لأحسن إليك، ولو شاء الإحسان لأساء إليك؛ وتقول قد دلّت حال من أسدت إليه المشيئة، أنه من أهل الإحسان دائماً، ومن أهل الإساءة دائماً: فيترك الظاهر المنطوق به، ويضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة، لم تكن على سداد.

فإن قيل: على الوجه الأول، لو كان المضمر المحذوف الأمر بالطاعة كان مخصوصاً بالمترفين، لأن أمر الله تعالى بالطاعة، عامّ للمترفين وغيرهم.

قلنا: أمر الله بالطاعة وإن كان عامّاً، ولكن لمّا كان صلاح الأمراء والرؤساء وفسادهم، مستلزماً لصلاح الرعيّة وفسادها غالبا؛ خصّهم بالذكر. ويؤيد هذا ما جاء في الخبر «صلاح الوالي صلاح الرعيّة، وفساد الوالي فساد الرعيّة».

فإن قيل: قوله تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الآية ١٨] يدل على أن من لم يزهد في الدنيا ولم يتركها، كان من أهل النار، والأمر بخلافه.

قلنا: المراد من كان يريد بإسلامه وطاعته وعبادته الدنيا لا غير، ومثل هذا لا يكون إلاّ كافراً أو منافقاً؛ ولهذا قال ابن جرير: هذه الآية لمن لا يؤمن بالمعاد، وأما من أراد من الدنيا قدر ما يتزوّد به إلى الآخرة، فكيف يكون مذموماً؛ مع أن الاستغناء عن الدنيا بالكلّيّة وعن جميع ما فيها، لا يتصوّر في حق البشر، ولو كانوا أنبياء، فعُلِمَ أن المراد ما قلنا.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾ أي ممنوعاً، ونحن نرى ونشاهد في الواقع، أن واحداً أعطاه قناطير مقنطرة، وآخر منعه العطاء حتى الحبّة؟

قلنا: المراد بالعطاء هنا الرزق، والله

تعالى ساوى في ضمان الرزق وإيصاله، بين البرّ والفاجر والمطيع والعاصي، ولم يمنع الرزق عن العاصي بسبب عصيانه، فلا تفاوت بين العباد في أصل الرزق، وإنّما التفاوت بينهم في مقادير الإملاك.

فإن قيل: لِمَ منع الله تعالى الكفّار التوفيق والهداية، ولم يمنعهم الرزق؟

قلنا: لأنه لو منعهم الرزق لهلكوا، وصار ذلك حجّة لهم يوم القيامة، بأن يقولوا لو أمهلتنا ورزقتنا، لبقينا أحياء فآمنّا. الثاني: أنه لو أهلكهم بمنع الرزق، لكان قد عاجلهم بالعقوبة، فيتعطّل معنى اسمه الحليم عن معناه؛ لأن الحليم، هو الذي لا يعجّل بالعقوبة على من عصاه. الثالث: أنّ منع الطعام والشراب من صفات البخلاء الأخسّاء، والله تعالى منزّه عن ذلك. وقيل إعطاء الرزق لجميع العبيد عدل، وعدل الله عامّ، وهبته التوفيق والهداية فضل، وإنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿عِندَكَ﴾ من قوله سبحانه: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الآية ٢٣]؟

قلنا: الحكمة أنهما يكبران في بيته وكنفه، ويكونان كَلاًّ عليه لا كافل لهما غيره، وربما تولّى منهما من المشاق، ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الآية ٣٢] ولم يقل ولا تزنوا؟

قلنا: لو قال «ولا تزنوا» كان نهياً عن الزنى، لا عن مقدماته كاللمس والمعانقة والقبلة، ونحو ذلك؛ ولمّا قال ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟﴾ كان نهياً عنه وعن مقدّماته، لأن فعل المقدّمات قربان للزنى.

فإن قيل: الإشارة بقوله تعالى ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ [الآية ٣٨] على ماذا تعود؟

قلنا: الإشارة إلى كل ما هو مَنْهِيٌّ عنه، من جميع ماذكر من قوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الآية ٢٣] إلى هذه الآية؛ لا إلى جميع ما ذكر، فإن فيه حَسَناً وسيئاً؛ وقال أبو علي هو إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ [الآية ٣٦] وما بعده، لأنه لا حَسَنَ فيه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الآية ٤٤]

فقوله جلّ شأنه ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ يتناول أهل الأرضين كلّهم، والمراد به العموم كما هو مقتضى الصيغة، بدليل تأكيده بقوله تعالى بعده؛ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الآية ٤٤]، والتسبيح هو التنزيه عن كل ما لايليق بصفات جلاله وكماله، والكفّار يضيفون إليه الزوج والولد والشريك وغير ذلك، فأين تسبيحهم؟

قلنا: الضمير في قوله تعالى ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ راجع إلى السماوات فقط. الثاني: أنه راجع إلى السموات والأرض، والمراد بقوله تعالى ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ يعني من المؤمنين فيكون عامّاً أريد به الخاصّ؛ وعلى هذا يكون المراد بالتسبيح المسند إلى من فيهنّ، التسبيح بلسان المقال. الثالث: أن المراد به التسبيح بلسان الحال، حيث تدلّ على وجود الصانع، وعظيم قدرته، ونهاية حكمته؛ فكأنها تنطق بذلك، وتنزّهه عمّا لا يجوز عليه، وما لا يليق به من السوء، ويؤيده قوله تعالى بعده: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الآية ٤٤]، والتسبيح العامّ للموجودات جميعها، إنّما هو التسبيح بلسان الحال.

فإن قيل: لو كان المراد هو التسبيح بلسان الحال، لما قال سبحانه ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾ [الآية ٤٤]، إلا أنّ التسبيح بلسان الحال مفقود لنا: أي مفهوم ومعلوم؟

قلنا: الخطاب بقوله تعالى ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾ للكفّار، وهم مع تسبيحهم بلسان الحال، لا يفقهون تسبيح الموجودات على ماذكرنا من التفسير؛ لأنهم لمّا جعلوا لله شركاء وزوجاً وولداً، دلّ ذلك على عدم فهمهم التسبيح والتنزيه للموجودات، وعدم إيضاح دلائل الوحدانيّة لأنّ الله تعالى طَبَعَ على قلوبهم.

فإن قيل: ﴿وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [الآية ٤٤] وهم الملائكة والثَّقَلانِ يسبّحون حقيقةً، والسموات والأرض والجمادات تسبّح مجازاً، فكيف جمع بين إرادة الحقيقة والمجاز من لفظ واحد، وهو قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ﴾؟

قلنا التسبيح المجازي بلسان الحال، حاصل من الجميع، فيحمل عليه دفعاً لما ذكرتم من المجاز.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الآية ٥٢]

والمستعمل الشائع دعاه فاستجاب لأمره أو بأمره: أي أجاب؟

قلنا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بقوله تعالى ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ بأمره. وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: إذا دعا الله الخلائق للبعث، يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك؛ وقال غيره وهم يقولون: الحمد لله الذي صَدَقَنا وَعْدَه؛ فعلى هذا تكون الباء بمعنى مع، كما في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون/٢٠] وقوله تعالى ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر/٩٨].

فإن قيل: لِمَ أجمل ذكر الأنبياء كلهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ [الآية ٥٥] ثم خصّ داود بالذكر فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾. قلنا: لأنه اجتمع له مالم يجتمع لغيره من الأنبياء، وهو: الرسالة، والكتابة والخطابة، والخلافة، والملك، والقضاء، في زمن واحد؛ قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص] وقال جلّ شأنه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص/٢٦]. الثاني: أنّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ [الآية ٥٥] إشارة إلى تفضيل محمد (ص)، وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ دلالة على وجه تفضيله (ص)، وهو أنه خاتم الأنبياء، وأنّ أمّته خير الأمم؛ لأنّ ذلك مكتوب في زبور داود (ع)، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الانبياء] يعني محمّداً (ص) وأمته.

فإن قيل: لم نكّر الزّبُور هنا، وعرّفه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ [الأنبياء/١٠٥] ؟

قلنا: يجوز أن يكون الزّبُور من الأعلام التي تستعمل بالألف واللام، وبغيرهما، كالعبّاس والفضل والحسن والحسين ونحوها؛ الثاني: أنه نكّره هنا لأنه أراد: وآتينا داود بعض الزبور، وهي الكتب. الثالث: أنه نكّره لأنه أراد به، ماذكر فيه رسول الله (ص) من الزبور، فسمى ذلك زبوراً؛ لأنه بعض الزبور، كما سمّى بعض القرآن قرآناً، فقال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ﴾ [الآية ١٠٦] وقال تعالى: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [يوسف/٣] وأراد به سورة

يوسف؛ وقال: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الآية ٧٨] أي القرآن المتلوّ في صلاة الفجر.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ [الآية ٥٦] مغنٍ عن قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴿٥٦﴾﴾ لأنهم إذا لم يستطيعوا كشف الضرّ لا يستطيعون تحويله، لأنّ تحويل الضر نقله من محل، وإثباته في محل آخر، ومنه تحويل الفراش والمتاع وغيرهما، وكشف الضرّ مجرّد إزالة، ومن لا يقدر على الإزالة وحدها، فكيف يقدر على الإزالة مع الإثبات؟ والمراد بالآية كشف الضر والمرض والقحط ونحوها؟

قلنا: التحويل له معنيان: أحدهما ما ذكرتم. والثاني التبديل، ومنه قولهم: حوّلت القميص قباء، والفضة خاتماً؛ وأريد بالتبديل هنا الكشف، لأن في الكشف المنفي في الآية تبديلاً؛ فإن المرض متى كشف يبدّل بالصحة، والفقر متى كشف يبدّل بالغنى، والقحط متى كشف يبدّل بالخصب؛ وكذا جميع الأضداد، فأطلق التبديل وأراد به الكشف، إلا أنه لم يرد به كشف الضّر لئلاّ يلزم التكرار، بل أراد به مطلق الكشف الذي هو الإزالة، يعني فلا يستطيعون كشف الضّر عنكم، ولا كشفاً ما، ولهذا لم يقل ولا تحويله. وهذا الجواب ممّا فتح الله علي به، من خزائن جوده؛ ونظيره ماذكرناه في سورة النحل، في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴿٧٣﴾﴾ [النحل].

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الآية ٥٩]. الآية فيها أسئلة: أوّلها أنّ الله تعالى لا يمنعه عمّا يريده مانع، فإن أراد إرسال الآيات، فكيف يمنعه تكذيب الأمم الماضية؟ وإن لم يرد إرسالها، يكن وجود تكذيبهم وعدمه سواء، ويكن عدم الإرسال لعدم الإرادة. الثاني أن الإرسال يتعدّى بنفسه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح/١]. فأيّ حاجة إلى الباء؟ الثالث: أن المراد بالآيات هنا، ما اقترحه أهل مكّة على رسول الله (ص)، مِنْ جَعْل الصفا ذهباً، وإزالة جبال مكّة، ليتمكّنوا من الزراعة، وإنزال مكتوب من السماء، ونحو ذلك؛ وهذه الآيات، ما أرسلت إلى الأوّلين، ولا شاهدوها فكيف

كذّبوا بها؟ الرابع: أن تكذيب الأوّلين، لا يمنع إرسالها الى الآخرين، لجواز أن لا يكذّب الآخرون. الخامس: أيّ مناسبة وأيّ ارتباط بين صدر الآية وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الآية ٥٩]؟ السادس: ما معنى وصف الناقة بالإبصار؟ السابع: أنّ الظلم يتعدّى بنفسه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء/ ١١٠]. فأي حاجة إلى الباء ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الآية ٥٩]، ولم لَمْ يقل فظلموها يعني العقر والقتل، الثامن: أن قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ [الآية ٥٩] يدل على عدم الإرسال بها؟

قلنا: الجواب عن الأول، أن المنع مجازٌ عُبِّر به عن ترك الإرسال بالآيات، كأنه تعالى قال: وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات، إلاّ أن كذّب بها الأولون. وعن الثاني: أن الباء لتعدية الإرسال إلى المرسل به، لا إلى المرسل، لأن المرسل محذوف وهو الرسول، تقديره، وما منعنا أن نرسل الرسل بالآيات، والإرسال يتعدّى إلى المرسل بنفسه، وإلى المرسل به بالباء، وإلى المرسل إليه بإلى، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [هود]. وعن الثالث: أنّ الضمير في قوله تعالى ﴿بِهَآ﴾ [الآية ٥٩]، عائد إلى جنس الآيات المقترحة، لا إلى هذه الآيات المقترحة، كأنّه تعالى قال: وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة، إلاّ تكذيب من قبلهم بالآيات المقترحة، يريد المائدة والناقة ونحوهما، ممّا اقترحه الأوّلون على أنبيائهم. وعن الرابع: أنّ سنة الله تعالى في عباده، أنّ من اقترح على الأنبياء آية، وأتوه بها فلم يؤمن، عجّل الله هلاكه؛ والله تعالى لم يرد هلاك مشركي مكّة، لأنّه تعالى علم أنه يولد منهم من يؤمن، أو لأنه قضى وقدّر في سابق علمه، بقاء من بُعِثَ إليهم محمّد (ص) إلى يوم القيامة، فلو أرسل بالآيات التي اقترحوها، فلم يؤمنوا، لأهلكهم؛ وحكمته اقتضت عدم إهلاكهم، فلذلك لم يرسلها؛ فيصير معنى الآية: وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة عليك، إلا أن كذّب بالآيات المقترحة الأوّلون، فأهلكوا، فربما كذّب بها قومك، فأهلكوا. وعن الخامس: أنه تعالى لما أخبر أن الأوّلين كذّبوا بالآيات المقترحة، عيّن منها واحدة

وهي ناقة صالح عليه السلام، لأنّ آثار ديارهم المهلكة في بلاد العرب قريبة من حدودهم، يبصرها صادرهم وواردهم. وعن السادس: أنّ معنى مبصرة دالّة، كما يقال الدليل مرشدها وقيل مُبْصَراً بها، كما يقال ليل نائم ونهار صائم أي يُنام فيه ويُصام فيه، وقيل معناه مبصرة، يعني أنها تُبْصِّرُ الناسَ صحّة نبوّة صالح عليه السلام؛ ويُعزِّز هذا قراءة من قرأ (مَبْصَرَة) بفتح الميم والصاد: أي تبصرة. وقيل مبصرة صفة لآية محذوفة، تقديره: آية مَبصَرة: أي مضيئة بيّنة. وعن السابع: أن الباء ليست لتعدية الظلم إلى الناقة، بل معناه: فظلموا أنفسهم بقتلها أو بسببها، وقيل الظلم هنا الكفر، فمعناه: فكفروا بها، فلمّا ضمن الظلم معنى الكفر عدّاه تعديته. وعن الثامن: أنّ المراد بالآيات ثانيا العبر والدلالات، لا الآيات التي اقترحها أهل مكّة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الآية٦٠] وليس في القرآن لعن شجرة ما؟

قلنا: فيه إضمار تقديره: والشجرة الملعونة المذكورة في القرآن. الثاني: أنّ معناه: الملعون آكلوها وهم الكفرة. الثالث: أنّ الملعونة يعنى المذمومة، كذا قال ابن عبّاس رضي الله عنهما، وهي مذمومة في القرآن، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان]. وبقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات] الرابع: أن العرب تقول لكل طعام مكروه أو ضار ملعون؛ وفي القرآن الإخبار عن ضررها وكراهتها. الخامس: أن اللعن في اللغة، الطرد والإبعاد، والملعون هو المطرود عن رحمة الله تعالى المبعد، وهذه الشجرة مطرودة مبعدة، عن مكان رحمة الله تعالى وهو الجنة، لأنّها في قعر جهنّم، وهذا الإبعاد والطرد مذكوران في القرآن، بقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ [الصافات]. وقال ابن الأنباري سُميَت ملعونة، لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل.

فإن قيل: لِمَ خصّ أصحاب اليمين بقراءة كتبهم بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ [الآية ٧١] وَلِمَ خصّهم بنفي الظلم عنهم، بقوله تعالى: ﴿وَلَا

يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴿٧١﴾ مع أن أصحاب الشمال يقرأون كتابهم ولا يظلمون أيضاً؟

قلنا: إنما خصّ أصحاب اليمين بذكر القراءة، لأن أصحاب الشمال اذا رأوا ما في كتبهم من الفضائح والقبائح، أخذهم من الحياء والخجل والخوف ما يوجب حبسة اللسان، وتتعتع الكلام، والعجز عن إقامة الحروف، فتكون قراءتهم كـ «لاقراءة»؛ فأمّا أصحاب اليمين، فأمرهم على عكس ذلك؛ لا جرم أنهم يقرأون كتابهم أحسن قراءة وأبينها، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم، حتى يقول القارئ لأهل المحشر ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة]. وأمّا قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴿٧١﴾﴾ فهو عائد إلى كلّ الناس، لا إلى أصحاب اليمين. الثاني: أنّه عائد إلى أصحاب اليمين خاصة، وإنما خصّهم بذلك، لأنهم يعلمون أنهم لا يُظلمون، ويعتقدون ذلك؛ بخلاف أصحاب الشمال، فإنهم يعتقدون أو يظنون أنهم يُظلمون، يعضد هذا الوجه قوله تعالى ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴿١١٢﴾﴾ [طه].

فإن قيل لِمَ قال موسى (ع) لفرعون كما ورد في التنزيل ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ﴾ يعني الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الآية ١٠٢] يعني بيّنات وحججاً واضحات؛ وفرعون لم يعلم ذلك، لأنه لو علم ذلك، لم يقل لموسى عليه السلام كما ورد في التنزيل ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴿١٠١﴾﴾ أي مخدوعاً، أو قد سحرت، أو ساحراً، مفعول بمعنى فاعل على اختلاف الأقوال، بل كان يؤمن به؛ وكيف يعلم ذلك، وقد طبع الله على قلبه وأضلّه، وحال بينه وبين الهدى والرشاد، ولهذا قرأ عليّ كرم الله وجهه ﴿لَقَدْ عَلِمْتُ﴾ [الآية ١٠٢] بضم التاء، وقال: والله ما علم عدوّ الله، ولكن موسى (ع)، هو الذي علم. واختار الكسائي وثعلبُ قراءة عليّ رضي الله عنه، ونَصَراها، بأنه لمّا نسبه إلى أنّه مسحور، أعلمه بصحّة عقله؟

قلنا: معناه لقد علمت، لو نظرت نظراً صحيحاً إلى الحجّة والبرهان، ولكّنك معاند مكابر، تخشى فوات دعوى الإلهية لو صدقتني؛ فكان فرعون ممن أضلّه الله على علم، ولهذا بلغ ابن عباس قراءة علي رضي الله عنه ويمينه، فاحتج بقوله تعالى ﴿وَجَحَدُوا

بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل/ ١٤].

فإن قيل: لِمَ قال موسى (ع) كما ورد في التنزيل ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا۝١٠٢﴾ وموسى (ع) كان عالماً بذلك، لا شكّ عنده فيه؟

قلنا: قال أكثر المفسرين الظن هنا بمعنى العلم، كما في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة/ ٤٦] وإنما أتي بلفظ الظنّ ليعارض ظنّ فرعون بظنّه، كأنّه قال: إن ظننتني مسحوراً، فأنا أظنّك مثبوراً، والمثبور الهالك والمصروف عن الخيرات، أو الملعون والخاسر.

فإن قيل: لِمَ كرّر تعالى الإخبار بالخُرور[(١)]؟

قلنا: كرّره ليدل على تكرار الفعل منهم. الثاني: أنه كرّره لاختلاف الحالين، وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين، وفي حال كونهم باكين. الثالث: أنه أراد بالخُرور الأول، الخرور في حالة سماع القرآن وقراءته؛ وبالخرور الثاني، الخرور في سائر الحالات وباقيها.

---

(١) الخُرور: مصدر خرّ يقال: خرّ ساجداً، ومعنى خرّ في هذا السياق، في الأصل: سقط. فكأنّ الذي يخرّ ساجداً، يسقط، لفرط خشوعه، من علٍ، حيث هو واقف، إلى الأرض، ليسجد.

المعاني المجازية في سورة «الإسراء»(*)

في قوله سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الآية ١٢] استعارتان إحداهما: قوله سبحانه: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾. والآية العلامة. والمراد بمحوها ـ والله أعلم ـ على قول بعضهم أي جعلنا ظلمة الليل مشكلة، لا يُفهم معناها، ولا يُعلم فحواها، لِمَا استأثر الله تعالى بعلمه من المصلحة المستسرّة في ذلك.

وحقيقة المحو طمْسُ أثر الشيء. من قولهم: محوتُ الكتاب. إذا طمست سطوره حتى يُشكِل على القارئ، ويَخفى على الرائي.

وقال قوم: آية الليل، القمر خاصة. ومحوه: تصييرُ تلك الطمسة في صفحته، حتى نقص نوره عن نور الشمس، لِمَا يَعْلم الله سبحانه من المصلحة في ذلك. وآية النهار الشمس. وقال آخرون: بل آيتا الليل والنهار ضوء هذا في الجملة، وظلمة هذا في الجملة. لأن الضوء علامة النهار، والظلمة علامة الليل، على ما قدمنا ذكره.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ وفي ذلك وجهان: أحدهما أن يكون المراد، أنّا جعلناها مكشوفة القناع مبيّنة الإبصار،

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

على خلاف آية الليل إذ جعلناها مُشرَجة[1] الغلاف، بهيمة الأطراف.

والوجه الآخر أن يكون معنى مبصرة، أي يبصر الناس فيها، ويهتدون بها كما تقدم قولنا في قولهم، نهار صائم، وليل نائم أي أهل هذا صيام، وأهل هذا نيام. وكما يقولون: رجل مُخبِث: إذا كان أهله وولده خبثاء. ورجلٌ مُضعِف: إذا كانت دوابه وظهوره ضعفاء. فعلى هذا يسمى النهار مبصراً، إذا كان أهله بصراء. وقد مضى الكلام على مثل ذلك فيما تقدّم.

وقوله سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الآيـــة ١٣] وهـــذه استعارة. والمراد بالطائر هٰهنا، والله أعلم، ما يعمله الإنسان من خيرٍ وشرّ، ونفع وضرّ. وذلك مأخوذ من زجر الطير على مذاهب العرب. لأنهم يتبرّكون بالطائر المتعرّض من ذات اليمين، ويتشاءمون بالطائر المتعرّض من ذات الشمال.

ومعنى ذلك أنه سبحانه يجعل عمل الإنسان من الخير والشر، كالطوق في عنقه، بإلزامه إيّاه، والحكم عليه به. وقال بعضهم: معنى ذلك أنّا جعلنا لكل إنسان دليلاً من نفسه على ما بيّناه له، وهديناه إليه. والعرب تقيم العنق والرقبة، مقام الإنسان نفسه. فيقولون لي في رقبة فلان دم، ولي في رقبته دين. أي عنده. وفلان أعتق رقبة، إذا أعتق عبداً أو أمَة. ويقول الداعي في دعائه، اللهم أعتق رقبتي من النار وليس يريد العنق المخصوصة، وإنّما يريد الذات والجملة.

وجعل سبحانه الطائر مكان الدليل الذي يستدل به، على استحقاق الثواب والعقاب، على عادة العرب التي ذكرناها في التبرّك بالسانح، والتشاؤم بالبارح.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الآيـــة ٢٤] وهـــذه استعارة عجيبة، وعبارة شريفة. والمراد بذلك الإخبات[2] للوالدين، وإلانة القول لهما، والرفق واللطف بهما.

وخفض الجناح في كلامهم عبارة

---

(١) أشرج الشيء: ضمّ بعضه إلى بعض وأحكم شده.

(٢) أي الخضوع.

عن الخضوع والتذلّل، وهما ضد العلوّ والتعزّز. إذ كان الطائر إنّما يخفض جناحه إذا ترك الطيران، والطيرانُ هو العلوُ والارتفاع. وقد يستعار ذلك لفرط الغضب والاستشاطة. فيقال قد طار فلان طيرة، إذا غضب واستشاط. وقد أومأنا إلى هذا المعنى فيما تقدّم.

وإنّما قال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الآية ٢٤] ليبيّن تعالى أنّ سبب الذل لهما الرأفة والرحمة، لئلاّ يقدّر أنه الهوان والضراعة. وهذا من الأغراض الشريفة، والأسرار اللطيفة.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الآية ٢٩] وهذه استعارة. وليس المراد بها اليد التي هي الجارحة على الحقيقة، وإنّما الكلام الأول كناية عن التقتير، والكلام الآخر كناية عن التبذير وكلاهما مذموم، حتى يقف كل منهما عند حدّه، ولا يجري إلاّ إلى أمده. وقد فسّر هذا قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الآية ٤٦]. وهذه استعارة لأنه ليس هناك على الحقيقة كِنانٌ على قلب، ولا وَقْرٌ في سمع. وإنّما المراد أنهم، لاستثقالهم سماع القرآن عند أمر الله سبحانه نبيّه عليه السلام بتلاوته على أسماعهم وإفراغه في آذانهم، كالذين على قلوبهم أكِنّة دُونَ علمه، وفي آذانهم وقرٌ دون فهمه، وإن كانوا من قِبَلِ نفوسهم أتوا، وبسوء اختيارهم أخذوا؛ ولو لم يكن الأمر كذلك، لما ذُمّوا على اطّراحه، ولَعُذِروا بالإضراب عن استماعه.

وقوله سبحانه: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الآية ٤٧] وهذه استعارة لأن النجوى مصدر كالتقوى. وإنّما وُصِفوا بالمصدر، لما في هذه الصفة من المبالغة في ذِكر ماهم عليه، من كثرة تناجيهم، وإسرار المكايد بينهم. والصفة بالمصادر تدلُّ على قوة الشيء الموصوف بذلك مثل قولهم: رجلٌ رضاً وقومٌ عَدلٌ. وما يجرى هذا المجرى.

وقوله سبحانه: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الآية ٥٩]. وهذه استعارة. والمعنى: جعلنا الناقة آية مبصرة، أي

مبصرةً للعاشي[1] ومذكرة للناسي، ومظنّةً لاعتبار المعتبر، وتفكّر المفكر. لأن من عجائب تلك الناقة تمخّض الصخرة بها من غير حمل بطن، ولا فرع فحل. وأنها كانت تقاسم ثَمُود الوِرْدَ؛ فلها يوم، ولثَمُود يوم.

قال سبحانه: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء] فإذا كان يومها شربت فيه الماء مثلما كانت ثمود تأخذ أشقاصها[2] وزروعها، وأصرامها[3] وشروبها. وهذا من صوادح العبر، وقوارع النذر.

وقال بعضهم يجوز أن يكون معنى «مبصرة» هٰهنا أي ذات إبصار. والتأويلان يؤولان إلى معنى واحد.

وقوله سبحانه عن إبليس: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ وهذه استعارة على بعض التأويلات في هذه الآية. وهو أن يكون الاحتناك هٰهنا افتعالاً من الحنك. أي لأقودنّهم إلى المعاصي، كما تقاد الدابة بحنكها، غير ممتنعة على قائدها. وهي عبارة عن الاستيلاء عليهم، والامتلاك لتصرفهم، كما يمتلك الفارس تصرّف فرسه، بثني العنان تارة، ويكبح اللجام مرة.

وقال يعقوب[4] في «إصلاح المنطق» يقال: حَنَك الدّابة يحنُكُها حَنْكاً، إذا شدّ في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به. وقد احتنك الدّابةَ[5] مثل حَنَكها إذا فعل بها ذلك.

وقال بَعْضُهم عن قوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أي لألقينّ في أحناكهم حلاوة المعاصي، حتى يستلذّوها، ويرغبوا فيها ويطلبوها. والقول الأول أحبُّ إليّ.

وقال بعضهم: لأستاصلنّ ذريته

---

(١) العاشي اسم فاعل من عشا عن الشيء، أي أعرض وصدر عنه إلى غيره.

(٢) الأشقاص: جمع شِقص بكسر الشين، وهو القطعة من الشيء أو من الأرض.

(٣) الأصرام: جمع صِرم بكسر الصاد، وهو الجماعة من الشيء أو من البيوت.

(٤) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، المعروف بابن السِّكِّيت، وكان أبوه من أصحاب الكِسائي المشهور في اللغة والنحو. أما صاحبنا فقد شهد له المؤرخون بالعلم الغزير في اللغة والشعر والثقة في الرواية. وكتابه «إصلاح المنطق» يقول فيه المُبَرِّد: «ما رأيت للبغداديين كتاباً أحسن من كتاب يعقوب بن السكّيت في المنطق» توفي سنة ٢٤٤. وقد طبع «إصلاح المنطق» طبعة موثقة بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون.

(٥) في «إصلاح المنطق» ص ٨٢ (وقد احتنك دابته).

بالغواية، ولأستقصين إهلاكهم بالضلال، لأن اتّباعهم غيّه وطاعتهم أمره، يَؤُولان بهم إلى موارد الهلاك، وعواقب البوار.

وقال الشاعر [بحر الرجز]:

نَشْكُو اليكَ سَنَةً قَدْ أَجْحَفَتْ

واحْتَنَكَتْ أمْوالَنا وَجَلَّفَتْ[1]

أي أهلكت أموالنا.

ويقال احتنكه إذا استأصله. ومن ذلك قولهم: احتنك الجراد الأرض.

إذا أتى على نبتها.

وقيل أيضاً: المراد بذلك، لأضيقنّ عليهم مجاري الأنفاس من أحناكهم، بإيصال الوسوسة لهم، وتَضَاعُف الإغواء عليهم. ويقال احتنك فلانٌ فلاناً إذا أخذ بمجرى النفس من حنكه. فكان كالشَّبَا[2] في مقلته والشَّجا[3] في مَسْعَلِهِ.

وقوله سبحانه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الآية ٧٨] وهذه استعارة. لأن الدّالك، المائل في كلامهم. فكأنه سبحانه أمر بإقامة الصلاة عند ميل الشمس. فقيل عند ميلها للزوال، وقيل عند ميلها للغرب؛ والشمس على الحقيقة لا تميل عن موضعها، ولا تزول عن مركزها، وإنّما تعلو أو تنخفض، وترتفع بارتفاع الفلك وانخفاضه، وسيره وحركاته.

وقوله سبحانه ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

وهذه استعارة. لأنهم يقولون: زَهَقَتْ نفس فلان إذا خرجت. ومنه قوله تعالى ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة] فالمراد، والله أعلم، وَهلَك الباطل إنّ الباطل كان هَلُوكاً، تشبيهاً له بمن فاضت نفسه، وانتقضت بنيته؛ لأنّ الباطل لا مِساكَ لذمائه، ولا سِماكَ لبنائه.

---

(١) ورد هذا الرجز في «مجازات القرآن» لأبي عبيدة هكذا:

تشكو إليك سنة قد أجحفت   جهداً إلى جهدٍ بنا فأضعفت

واحتنكت أموالنا وجلفت

انظر «مجازات القرآن» لأبي عبيدة. طبعة سامي الخانجي ص٣٨٤؛ والرجز كذلك في الجامع لأحكام القرآن» جـ ١٠ ص٢٨٧. ولم ينسبه أبو عبيدة، ولا القرطبي، لقائله.

(٢) الشَّبا جمع شَباة، وهي حد السيف، أوقدر مايقطع به منه.

(٣) الشّجا ما يعترض الحلق، فيشجى به.

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الآية ٨٤] وهذه استعارة، لأن الأولى أن يكون المراد هٰهنا بالشاكلة، والله أعلم، الطريقة التي تشاكل أخلاق الإنسان، وتوافق طبيعته. وذلك مأخوذ من الشاكلة، وجمعها شواكل، وهي الطرق المتّسعة المتشعّبة عن المحجّة العظمى. فكأنّ الدّنيا هٰهنا مشبّهة بالطريق الأعظم، وعادات الناس فيها وطبائعهم التي جبلوا عليها مشبّهة بالطرق المختلجة من ذلك الطريق، الذي هو المعمود، وإليه الرجوع.

وقال بعضهم: الشاكلة العلامة، وأنشد [بحر البسيط]:

بدَت شَوَاكِلُ حُبٍّ كنت تُضمِرُهُ
في القلبِ أنْ هَتَفَتْ في الدّارِ وَرْقاءُ

فكأنه تعالى قال: كلٌّ يعمل على الدلالة التي نصبت لاستدلاله، والأمارة التي رفعت لاهتدائه.

وقوله سبحانه: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الآية ١٠٠] وهذه استعارة، والمراد بالخزائن، هٰهنا، المواضع التي جعلها الله سبحانه وتعالى، جفناتٍ لدرور الرزق ومنافع الخلق. وإلى تلك المواضع ترفع الأيدي عند السؤال، والرغبات، واستدرار الخير والبركات.

وقوله سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الآية ١٠٦] وهذه استعارة، ومعنى فَرَقْنَاهُ: أي بيّناه للناس بنصوع مصباحه وشدوخ أوضاحه، حتّى صار كمفرق الفرس في وضوح مخطِه[1] أو كفرق الصبح في بيان منبلجه.

وقال بعضهم: معنى فرقناه أي فصّلناه سوراً وآيات. وذلك بمنزلة فَرْق الشعر وهو تمييز بعض من بعض، حتى يزول التباسه، ويتخلص التفافه.

(١) المَخطُ هو مكان الخط، أو الفرق في مفرق الحصان.

سورة الكهف

١٨

أهداف سورة «الكهف»(*)

سورة مكية

المشهور بين العلماء أن سورة الكهف مكّية كلها، وأنها من السور التي نزلت جملة واحدة كما جاء في الخبر الذي أخرجه الديلمي في مسند الفردوس، عن أنس، عن النبي (ص) إذ يقول: «نزلت سورة الكهف جملة».

وقد رَوَى ذلك أيضاً عن بعض الصحابة، واختاره الداني، ومشى عليه أكثر أهل التفسير والمتكلّمين في علوم القرآن. وهناك روايات أخرى تخالف هذا المشهور فتقرر أن السورة مكّية إلا بعضَ آياتها، فإنّه مدني.

وفي المصحف الفؤادي المطبوع بمصر، سورة الكهف مكّية إلا الآية ٣٨، ومن الآية ٨٣ إلى الآية ١٠١ فكلّها مدنية، وآياتها ١١٠ نزلت بعد الغاشية.

وقال الفيروزآبادي: «السورة مكية بالاتفاق، وفيها إحدى عشرة آية مختلف فيها بين مكّيتها ومدنيّتها، وهي الآيات: ١٣، ٢٢، ٢٣، ٣٢، ٣٥، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ٩٢، ١٠٣».

وينبغي أن يُعلم أن كثيراً ممّا ذكر أنه مدني فتضمنته سورة مكية، أو مكّي فتضمنته سورة مدنية، هو موضع خلاف بين العلماء لاختلاف الرواية فيه، أو لبناء الحكم فيه على اجتهاد واستنباط من القائل به وفي ذلك يقول ابن الحصار فيما نقله عنه السيوطي في الإتقان: «كل نوع من المكّي والمدني

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

منه آيات مستثناة، إلا أن من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل».

القصص في سورة الكهف

القَصَص هو العنصر الغالب في هذه السورة، ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة أصحاب الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس. وفي وَسَطها تجيء قصّة موسى مع العبد الصالح. وفي نهايتها قصة ذي القرنين. ويستغرق هذا القَصَص معظم آيات السورة فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشرٍ ومئة آية، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق على القَصَص أو تعقيب عليه.

ويلتقي هذا القَصَص حول فكرة أساسية للقرآن، وهي إثبات أن البعث حق، وأن المؤمن يكافأ بحسن الجزاء، وأن الكافر يلقى جزاء عنته وكفره في الدنيا أو الآخرة.

قصة أصحاب الكهف

في قصة أصحاب الكهف يتجلى صدق الإيمان، وقوة العقيدة، والإعراض عن كل ما ينافيها إعراضاً عملياً صارماً، لا تردُّدَ فيه ولا مواربة: فِتيةٌ رأوا قومهم في الضّلال يَعْمَهُون، وفي ظلمات الشرك يَخْبِطون، لا حجّة لهم ولا سلطان على ما يزعمون، أحسوا في أنفسهم غَيْرَةً على الحق لم يستطيعوا معها أن يظلوا في هذه البيئة الضالة بأجسامهم، ولو خالفوها بقلوبهم، فتركوا أوطانهم وتركوا مصالحهم واعتزلوا قومهم وأهليهم، وخرجوا فارّين مجتنبين الشطط وأهل الشطط، وآثروا كهفاً يأوون إليه في فجوة منه، لا يراهم فيه أحد، ولا يؤنسهم في وحشتهم إلاّ كلبهم.

ذلك هو مغزى القصة الخُلُقي، وفيه ما فيه من إرشاد وإيحاء، وتمجيد لأخلاق الشرف والرجولة والثبات على العقيدة والتضحية في سبيلها.

أما المعنى العام الذي تتلاقى فيه القصة مع غرض السورة، فهو إثبات قدرة الله على مخالفة السنن التي أَلِفها الناس، وظنوا أنها مستعصية عليه جل شأنه، أن تُبدّل أو تُحوّل كما هي مستعصية على كلّ مخلوق؛ وشتّان ما بين قدرة الخالق والمخلوقين، وهذا ما

تشير إليه القصة في ثناياها، إذ يقول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الآية ٢١].

قصة موسى والخضر

أما قصة موسى وفتاه والعبد الصالح، فَلُبابها ومغزاها إثبات قصور الخلق مهما سمت عقولهم، وكثرت علومهم أمام إحاطة الله سبحانه وعلمه. وهكذا، ترتبط في سياق السورة، قصة موسى والعبد الصالح، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله الذي يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذي يقصر عنه البشر الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عمّا وراءها من الأسرار إلاّ بمقدار.

لقد وقف موسى (ع) خطيباً في بني إسرائيل فأجاد وأبدع في خطبته، فقال له أحد المستمعين: ما أفصحك يا نبيّ الله، هل في الأرض من هو أكثر علماً منك؟ قال موسى: لا، فأخبره الله أن في الأرض من هو أكثر علماً منه؛ فقال موسى: يا ربّ دلّني عليه حتى أذهب إليه فأتعلّم منه.

وضرب موسى لنا مثلاً رائعاً في الرحلة لطلب العلم وتحمُّل الصعاب والمشقّات بهمّة الرجال وعزيمة الأبطال.

إذا هَمَّ ألقى هَمَّهُ بين عينه
ونَكَّب عن ذكر العواقب جانبا

سار موسى مع تابعٍ له هو يوشع بن نون ومعهما حوت في مِكْتَل[1]، وبلغ مجمع البحرين: بحر الروم وبحر القلزم. أي البحر الأبيض والبحر الأحمر، أو أنه مجمع خليجي العقبة والسويس في البحر الأحمر.

وفي المكان الذي أراد الله أن يلتقي فيه نبي إسرائيل بعبده الصالح، فَقَدَ موسى حوته، وعاد ليبحث عنه فوجد رجلاً نحيل الجسم، غائر العينين، عليه دلائل الصلاح والتقوى، فسلم عليه موسى، وتلطّف معه في القول، وأبدى رغبته في اتّباعه ليتعلّم منه العلم، فاشترط الخضر على موسى الصبر والتريث، فقال موسى كما ورد في التنزيل:

---

(١) المِكْتَل: القُفّة

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ٦٩﴾.

وانطلق موسى مع الخضر في سفينة جيّدة، وفي غفلة من أهلها أخذ الخضر لَوْحَيْن من خشب السفينة فخلعهما، فذكّره موسى بأن هذا ظلم وفساد، فالتفت الخضر إليه، وقال، كما ورد في التنزيل، أيضاً:

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢﴾.

فاعتذر موسى بالنسيان، ووعد أن يرافقه مع الصبر والسكوت. وسار الرجلان، ثم قتل الخضر غلاماً بريئاً في عمر الزهر فاحتج موسى، وذكره الخضر بالشرط فسكت.

وفي الجولة الثالثة دخل الرجلان قرية، وكان الجوع قد اشتدّ بهما فطلبا من أهلها طعاماً، فأبوا إطعامهما؛ ورأى الخضر جداراً متداعياً أوشك أن يقع، فطلب من موسى مساعدته حتّى بناه وأتم بناءه؛ واعترض موسى على هذا العمل لأن أهل القرية لا يستحقون مثل هذا المعروف، فهم بُخَلاء لؤماء، فينبغي أن يأخذ الخضر أجراً على بناء الجدار لهم؛ وافترق الرجلان بعد أن سمع موسى من الخضر سبب هذه الأعمال:

أمّا السفينة، فكانت مُلْكاً لجماعة من المساكين يعتمدون عليها في كسب الرزق ووراءهم مَلِكٌ ظالم يستولي «غصْباً» على كلّ سفينة صالحة للعمل، فَخَرَقَ الخضر السفينة ليراها الملك مَعِيبة فيتركها ليستفيد بها أهلها، فهو عمل مؤلم في الظاهر، ولكنه مفيد في الحقيقة والواقع.

وأمّا الغلام، فقد كان مفسداً وسيشبّ على الفساد والإفساد، وكان أبواه مؤمنين فأراد الله أن يقبض الغلام إلى جواره، وأن يعوّض والديه بنتاً صالحة تزوجت نبيّاً، وأنجبت نبيّاً.

وأمّا الجدار، فكان مُلْكاً لغلامين يتيمين تحدّرا من رجل صالح كريم، وكان تحت الجدار كنز من المال، ولو سقط الجدار لتبدّد الكنز، فأراد الله أن يقام الجدار ويجدَّد حتى يبلغا أشدّهما، ويستخرجا كنزهما حلالاً طيّباً لهما..

ثم قال الخضر، كما ورد في التنزيل:

﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾.

وقد يتساءل الإنسان عن عمل الخضر عليه السلام، وهل هو مشروع على الإطلاق، وهل يجوز لمن علم، في حادثةٍ مّا، مثل ما علمه العبد الصالح من حقيقة الأمر فيها، أن يخالف الظاهر؟

وقد اهتمّ بعض المفسّرين بترديد أمثال هذه الأسئلة والمناقشات والإجابة عنها، وتخريج ما يحتاج منها إلى تخريج؛ كأن الأمر أحكام تشريعية أو بيان لموضوعات خلافية. والواقع أنه لم يقصد بهذه القصة إلا الإقناع بأن الانسان، مهما اتّسع عقله، وسمت مداركه، وعلا منصبه، محدود في علمه، وأن كثيراً من الأمور يَخْفَى عليه، وأن لله عباداً قد يخصّهم بنوع من العلم لا يبذله للناس جميعهم، ولا يستقيم حال الدنيا على بذله للناس جميعهم.

قصة ذي القرنين

تلك قصة عبدٍ مكّن الله له في الأرض، وسخّر له العلم والقوة والآلات والمواصلات، وآتاه من كل شيء سبباً. وقد استغلّ هذه الإمكانات في عمل مثمرٍ نافعٍ يعمّ، ويبقى أثره.

وقد تحرّك ذو القرنين إلى المغرب غازياً فاتِحاً، محارِباً مجاهِداً، وسار النصر في ركابه حتى انتهى إلى عينٍ اختلط ماؤها وطينها فتراءى له أن الشمس تغرب فيها وتختفي وراءها؛ وظن أنْ ليس وراء هذه العين مكان للغزو، ولا سبيل للجهاد، ولكنه رأى عندها قوماً هَالَهُ كفرهم، وكبر عليه ظلمهم وفسادهم، فَخَيَّره الله بين قتالهم أو إمهالهم ودعوتهم للعدل والإيمان، فاختار إمهالهم؛ وقام فيهم مدةً ضرب فيها على يد الظالم، ونَصَرَ المظلوم، وأَخَذَ بيد الضعيف، وأقام صرح العدل، ونشر لواء الإصلاح. وقد وضع لهم دستور الحكم العادل قال تعالى:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾.

وقد عاد ذو القرنين إلى الشرق فسار غازياً مجاهداً حتى انتهى إلى غاية العمران في الأرض، وهناك وجد أقواماً تطلع الشمس عليها، ولكن ليس لهم بيوت تسترهم، أو أشجار تُظِلُّهم. ولعلّهم كانوا على حال من الفوضى

ونصيب من الجهل. . فبسط حكمه عليهم ونفّذ فيهم دستور العدل، ومكافأة المحسن، ومعاقبة المسيء الذي سبق ذكره، ثم تركهم إلى الشمال غازياً مجاهداً مُظَفَّراً منصوراً، حتى انتهى إلى بلاد بين جبلين يسكنها أقوام لا تكاد تعرف لغاتهم، أو يفهم في الحديث مرماهم، ولكنهم قد جاوروا يأجوج ومأجوج، وهم قوم مفسدون في الأرض، وأوْزاعٌ[1] من الخلق ضالّون مُضِلّون.

وقد لجأ الأقوام إلى ذي القرنين ليَحُول بينهم وبين المفسدين، وشرطوا على أنفسهم نَوْلاً يدفعونه إليه، وأموالاً يضعونها بين يديه. ولكنّ ذا القرنين أجابهم إلى طلبهم، وردّ عطاءهم وقال لهم، كما روى القرآن ذلك، حكاية عنه:

﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الآية ٩٥].

ثم طلب إليهم أن يُعِينوه على ما يفعل، فحشدوا له الحديد والنحاس، والخشب والفحم، فوضع بين الجبلين قطع الحديد وحاطها بالفحم والخشب، ثمّ أوقد النار، وأفرغ عليه ذائب النحاس، واستوى ذلك كله بين الجبلين سدّاً منيعاً قائماً، ما استطاعت يأجوج ومأجوج أن تظهره لملاسته، أو تنقبه لمتانته؛ وأراح الله منهم شعباً كان يشكو من أذاهم، ويألم من عدوانهم.

ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به، فلم يأخذه البطر والغرور، ولكنه ذكر الله فشكره، وردّ إليه العمل الصالح الذي وَفَّقَه إليه، وتبرّأ من قوته إلى قوة الله، وأعلن عقيدته في البعث والحشر، وإيمانه بأنّ الجبال والحواجز والسدود ستُدَكّ قبل يوم القيامة، فتعودُ الأرض سطحاً أجردَ مستوياً؛ وهكذا تختم هذه القصة، بتأكيد قدرة الله سبحانه، على البعث؛ قال تعالى:

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾.

«وبذلك تنتهي قصة ذي القرنين، النموذج الطيّب للحاكم الصالح، يُمَكِّنُهُ الله في الأرض، وييسّر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا يتجبّر ولا يتكبّر، ولا يطغى ولا يتبطّر ولا يتّخذ من الفتوح وسيلة للغُنْم

(١) الأوزاع: الجماعات، ولا واحد لها.

المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخّر أهلها في أغراضه وأطماعه؛ وإنّما ينشر العدل في كل مكان يحلّ به، ويساعد المتخلّفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسّرها الله له في التعمير والإصلاح ودفع العدوان، وإحقاق الحق. ثم يُرْجِعُ كلّ خير يُحقِّه الله على يديه إلى رحمة الله وفضله، ولا ينسى، وهوفي إبّان سطوته، قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله».

أهداف سورة الكهف

نزلت سورة الكهف بمكّة في وقت اشتدت فيه حملة القرآن على المنكرين المكذّبين بيوم الدين. وقد نزلت قبلها سورة الغاشية، وهي سورة تبدأ وتنتهي بحديث الساعة، وإياب الناس جميعاً إلى الله، ليحاسبهم على ما قدّموا.

ونزلت، بعد سورة الكهف، سورة النحل وعدّة سور تحدّثت عن البعث والجزاء، وأثبتت وحدانيّة الله وقدرته، وذكرت عقوبته للمكذّبين، وأخذه على يد الظالمين.

لقد كان كفّار مكّة ينكرون البعث، ويستبعدون وقوعه بعناد وإصرار، فتكفّل القرآن بمناقشتهم وتفنيد آرائهم، وأثبت قدرة الله على البعث والجزاء، وقدّم الأدلة على هذه القضية؛ وساق في سورة الكهف عدداً من الحجج والبراهين على حقيقتها، مبرزاً ذلك بصورةٍ واضحة قد اكتملت فيها عناصر القوة والروعة والإفحام. فالمحور الموضوعي لسورة الكهف هو تصحيح العقيدة، وتأكيد قدرة الله على البعث والجزاء، وتصحيح المفاهيم الخاطئة.

ونستطيع أن نجمل مظاهر ذلك فيما يأتي:

١ ـ بدأت السورة بقوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾.

وهي تتحدّث في هذا البدء عن الدار الآخرة وما فيها من بأس شديد يصيب أقواماً، وأجرٍ حَسَنٍ يفوز به أقوام آخرون.

وختمت بقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

وهي تتحدّث في هذا الختام، عن الدار الآخرة أيضاً، وعمّن يرجو لقاء ربه، وما يجب عليه، أثراً لهذا الرجاء والإيمان، من عمل صالح، وتوحيد لله لا يخالطه إشراك.

وهكذا يتلاقى أول السورة وآخرها: أولها يتحدث عن الآخرة بطريق التقرير لها، وبيان مهمة القرآن في إثبات ما يكون فيها من الجزاء إنذاراً وتبشيراً، وآخِرها يتحدث عن هذه الحقيقة التي تركزت وتقررت، ويحاكم الناس إليها في الإيمان والعمل الصالح.

وممّا يلاحظ أن آيات البدء، قد ذُكر فيها أمر الذين قالوا اتّخذ الله ولداً، من إنذارهم وبيان كذبهم وتخليطهم وجهلهم على الله، وذلك هو قول الذين يشركون بالله، ويعتقدون ما ينافي وحدانيته وتنزيهه؛ وأن آية الختام قررت ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وأنَّ على من يُؤمِن به، ويرجو لقاءه ألاّ يشرك بعبادته أحداً، فتطابق الأول والآخِر في إثبات الوحدانية والتنزيه لله جلّ وعلا، كما تطابقا في أمر البعث والدار الآخرة.

٢ ـ أمّا في أثناء السورة، وما بين بدئها وختامها، فقد جاء أمر البعث عدة مرات:

أ ـ جاء في مقدمة قصة أصحاب الكهف التي ساقها الله حقيقةً من حقائق التاريخ الواقعية، ودليلاً على قدرته، وتنظيراً لما ينكره الكافرون من أمر البعث والنشور:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾، وفي ثنايا هذه القصة:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ [الآية ٢١].

فهي تقرر أن أصحاب الكهف آيةٌ مِنْ آيات الله، وأنهم، مع غرابة أمرهم، لا يُعَدّون في جانب القدرة الإلهية عَجَباً، فإنما هم فتية آمنوا بربّهم، وأَوَوْا إلى الكهف فِراراً بعقيدتهم، فضرب الله على آذانهم فيه مدة من الزمن، ثم بعثهم. فالله، إذن، قادر على أن يضرب على آذان الناس جميعاً في هذه الدار بالموت، كما يضرب على آذانهم

بالنوم، ثم يبعثهم إلى الدار الآخرة كما بَعَثَ هؤلاء الفِتْية، وما ذلك على الله بعزيز، ولا هو في قدرته بعجيب. وتقرر هذه المقدمة أنّ العبرة من بعثهم والإعثار عليهم: أنْ يعلم الناس، أنّ وعد الله حقّ، وأنّ الساعة لا ريب فيها.

ب ـ وجاء أمر البعث مرة ثانية في هذه السورة حينما قررت أن الحق من الله، وأن كل امرئ مخيّر في الإيمان أو الكفر:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الآية ٢٩] فهناك دار أخرى غير هذه الدار، يحاسب فيها كل امرئ، ويُجْزَى بما يستحقه:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الآية ٢٩] وللذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الآية ٣١].

جـ ـ وجاء أمر البعث في المثل الذي ضربه الله للناس عن صاحب الجنّتين وزميله، وما كان من إنكاره قدرة الله، وشكّه في الساعة، ونُصْحِ صاحبه له وتَبرُّئِهِ منه، وأن الله قد أحالَ الجنتين صعيدا زَلَقاً؛ وحينئذٍ، تنبه الكافر فقال، كما ورد في التنزيل:

﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

د ـ وجاء أمر البعث، بعد هذا، في المثل الذي ضربه الله بالحياة الدنيا، يكون فيها نبات وزينة، ثمّ يصبح ذلك كلّه هشيماً تذوره الرياح، وتنتهي الدنيا وما فيها. وقد عقّب الله سبحانه على هذا المثل بذكْر الجبال وسيرها، والأرض وبروزها، والحشر وشموله، والعَرْض على الله، ووضع الكتاب، وإشفاق المجرمين ممّا فيه؛ قال تعالى، حكاية عنهم:

﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

هـ ـ وجاء في السورة أيضاً إشارة إلى قصّة آدم وإبليس، حيث طلب الله من إبليس أن يسجد لآدم فأبى، فتقررت بينهما العداوة منذ ذلك اليوم إلى أبد الدهر. وحذر الله أبناء آدم من أن يتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دونه، مع هذه العداوة المتأصّلة. ثم ذكر لهم أمراً من أمور الآخِرة بعد هذا التحذير من اتّخاذ الأولياء أو الشُّرَكاء، حيثُ يُنادَى الشركاء فلا يجيبون،

ويُستجارُ بهم فلا يُجيرون؛ وتبرز الجحيم فيراها المجرمون ويظنون أنهم مواقعوها، ولا يجدون عنها مَصْرِفاً.

في هذا الأسلوب، جَمْعٌ بين المبدأ والمعاد، ووضعٌ لقضية الخلق والبعث، مقترنتين بين يدي العقل، ليدرك الإنسان أنه، منذ أوّل نشأته، هدفٌ لعدوّ مُبين يحاول إضلاله ولفته عن الطريق المستقيم حسداً له وانتقاماً منه؛ وأن أخطر هذا الإضلال هو الوصول إلى حد الثقة بالعدوّ المبين، واتخاذه وليّاً من دون الله يَتّبِعُ أمره ويَنْصُر هواه؛ وأن هذا العدوّ المخاتل، سيكون أمره يوم الجزاء كسائر الشركاء، يُزَيِّنون الكفر والعصيان ما داموا في الدنيا. حتى إذا جاء أمر الله، أعلنوا براءتهم ممّن اتّبعوهم وضلّوا بسببهم:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر].

و ـ وجاء في هذه السورة أيضاً، مما يتصل ببراهين البعث، قصةُ موسى (ع) وفتاه والعبد الصالح. وهي قصة عظيمة حافلة بالفوائد والمعاني الجليلة. وفيها يساق الحديث على نحو يشعر معه كل سامع شعوراً قوياً، بأن لله سبحانه عِلْماً فوق عِلْم الناس، وتصريفاً للكون على سُنَنٍ، منها ما هو معروف ومنها ما هو خفيّ. وإذا آمن الناس بهذا واطمأنّوا إليه، لم يَعُدْ هناك مجال للعجب من أمر الساعة. فما هي إلا تغيير يحدثه خالق الكون ومالك ناصيته. فإذا السُنَنُ المعروفة تحلُ محلّها سننٌ أخرى، ومن قَدِر على إنشاء السنن قَدِر على تغييرها. وبهذا يؤمن كل عاقل، بصدق ما أخبر به المعصوم من كل أمر يبدو أمام العقول عجيباً. وهو في قدرة الله غير عجيب.

ز ـ جاءت السورة أيضاً، بعد هذه القصة، بقصة أخرى عن عبدٍ مَكّن الله له في الأرض وآتاه من كلّ شيءٍ سبباً، وسخّر له العلم والقوة وأسباباً أخرى كثيرة، ذلك هو «ذو القرنين». وقد لجأ إليه قومٌ لِيَحُولَ بينهم وبين المفسدين، فأنجدهم وأعانهم وجعل الله عمله في ذلك رحمةً للناس، يبقى ما بقيت هذه الحياة؛ فإذا جاء وعد الله ضاعت السدود والحوائل وأصبحت دكّاً، وترك الناس مضطربين يموج بعضهم في

بعض، ثم يُنفَخ في الصور فَيُجْمَعون كلّهم، وتُعْرَض يومئذ للكافرين جَهَنَّمُ عَرْضاً، فيبصرون، وقد كانت أعينهم من قبل في غطاء، ويسمعون وقد كانت آذانهم من قبل في صمم. وهكذا نجد القصة قد انتهت إلى أمر البعث والدار الآخرة وما فيها، وتخلّصت إليه في براعة وقوة، مذكِّرةً به، منذِرةً بما هنالك من الأهوال والشدائد.

حـ ـ ثم تأخذ السورة بعد ذلك في تهديد الكافرين الذين اتّخذوا مِنْ دون الله أولياء، وتُبيِّن ما أُعِدَّ لهم، وتُوازِنُ هؤلاء جميعاً بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أُعِدَّ لهم؛ ويأتي ختامها بعد إثبات القدرة والعظمة لله، وأنّ كلماته سبحانه لا تنفد ولو كانت مياه البحار كلها مداداً لها. والمراد آياته في الكون وتصريفه وآثار قدرته، فتذكر رسالة الرسول، وأنها عن وحي من هذا الخالق القادر الواحد؛ وتتوجّه بعد ذلك إلى الناس جميعهم بصيغةٍ من صِيَغ العموم، هي لفظ «مَنْ» فتقول:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾.

بهذا، يتجلّى للناظر في السورة أنها منتظمة النسق، مُطّرِدة السياق، واضحة الغَرَض، قويّة الأسلوب، متماسكة في أوّلها وآخرها وفي ثناياها، يجول فيها معنىً واحدٌ، تلتقي عليه الآيات والأمثال والقصص والوعد والوعيد والتذكير والبيان. ولذلك يقول الله عز وجل في آيةٍ من آياتها:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «الكهف»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نَزَلَت سورة الكهف بعد سورة الغاشية، وهي من السور التي نزلت بعد الإسراء وقبيل الهجرة، فيكون نزول سورة الكهف في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمِّيت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة أصحاب الكهف فيها، وتبلغ آياتها عَشْراً ومائةَ آية.

الغرض منها وترتيبها

قيل إن قريشاً بعثت إلى أحبار اليهود بالمدينة يُخْبِرونهم بأمر النبي (ص)، ويسألونهم عنه، فقالوا: سلوه عن ثلاثة فِتْيةٍ ذَهَبُوا في الدهر الأوّل: ما كان من أمرهم؟ وعن رجل طوّاف قد بَلَغ مشارق الأرض ومغاربها: ما كان نبأه؟ فسألوا النبي (ص) عن ذلك، فقال: أخبركم بما سألتم عنه غداً. ولم يقل: «إن شاء الله». فمكث خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحي، حتّى أرجف أهل مكّة به، وقالوا: وَعَدَنا محمّدٌ غداً، واليومَ خمسَ عشرةَ ليلة. فشقّ هذا عليه، ثم نزل عليه جبريل بسورة الكهف، وفيها معاتَبَةٌ له على حُزْنِه لعدم إيمانهم بما أنزل إليه، وخبر أولئك الفتية، وذلك الرجل الطوّاف.

وقد افتُتِحت هذه السورة بمقدّمة في بيان الغَرَض من تنزيل القرآن، وهو

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

إنذار الكافرين وتبشير المؤمنين؛ فليس على النبي (ص) إلا أنْ ينذرهم ويُبَشّرهم، ولا يصح له أن يَحْزَن لعدم إيمان قومه ورؤسائهم به، لأنه لا قيمة لما عندهم من أمر الدنيا. وقد مَهَّدَ بهذا لذكر قصة أصحاب الكهف، لأنهم آثروا دينهم على دنيا قومهم، واعتزلوهم في الكهف حينما خافوا منهم على دينهم، ثم ذَيَّل قصة أصحاب الكهف بما يناسب الغَرَض من ذكرها؛ ثم ذكر قصة الرجل الطوّاف وهو ذو القرنين، وذَيَّلها بما ذيلها به إلى آخِر السورة.

وقد ذُكرت هذه السورة بعد سورة الإسراء لأنها، مِثْلَها، تُنَوِّه بشأن القرآن، ولأنّ سورة الإسراء جاء في ختامها تنزيه الله عن الولد، وقد جاء في أوّل سورة الكهف إنذار للذين قالوا اتّخذ الله ولداً.

المقدمة
الآيات [١ ـ ٨]

قال الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١)﴾، فذكر أنه أنزل عليه القرآن كاملاً في ذاته، مُكَمِّلاً لغيره، لِيُنْذِر الكافرين عامّةً بأساً شديداً من لَدُنْهُ، ويُبَشِّرَ المؤمنين بأنّ لهم أجْراً حسناً، وينذر الذين قالوا إنّ الله اتّخذ ولداً؛ ثم ذكر للنبي (ص) أنه لعلّه باخِعٌ نَفْسَهُ أَسَفاً، لأنّ قومه لم يؤمنوا بما أنزل عليه، وأنه جَعَلَ ما على الأرض زينةً لها ليبلُوَهُم أيُهم أحسن عملاً: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾.

قصة أصحاب الكهف
الآيات [٩ ـ ٨٢]

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا (٩)﴾ فذكر للنبي (ص) أنه حَسِبَ أنّ أصحاب الكهف والرقيم (اسم كلبهم) كانوا عجباً من آياته؛ وأمَرَهُ أن يَذْكُر إذْ أوَوْا إلى الكهف طالبين منه أن يرحمهم ويُرْشدهم إلى رضاه، فَضَرَب على آذانهم في الكهف سنين عدداً، ثم بعثهم لِيُظْهِر أيَّ الحزبين المختلفين في

مُدّة لَبْثِهم بالكهف أحصى لها أَمَداً؛ ثم فصّل هذا الإجمال، فذكر أنهم فتية آمنوا به سبحانه، وزادَهُم هُدًى، وأنه رَبَطَ على قلوبهم، إذ قاموا بين يَدَيْ مَلِكِهِمْ فَصَرَّحوا له بإيمانهم؛ وخالفوه وقومَهُ في عبادة آلهتهم؛ ثم ذكر أنهم اتفقوا حينما اعتزلوا قومَهُم، أنْ يأْوَوْا إلى كهف بجبل قريب من مدينتهم. فلمّا ذهبوا إليه، وضُرِبَ على آذانهم فناموا، كانت الشمس، إذا طلعت، تميل عن كهفهم ذات اليمين، وإذا غَرَبت تميلُ عَنْهُ ذاتَ الشّمال، ليصُونَ أجسامهم من الفساد بضوء الشمس؛ ثم ذكر أنه كان يُقَلِّبهُم ذاتَ اليمين وذات الشّمال لئلا تَبْلى أجسامهم، وأنَّ كلبهم وقع في النوم معهم وهو باسطٌ ذراعيه بباب الكهف لِيَحْرُسَهم؛ ثم ذكر أنه، جلَّ جلاله، بعثهم من نومهم ليتساءلوا بينهم عن مدة لَبْثِهم، وأنهم بَعَثُوا أحدهم بوَرِقهم ليشتري لهم طعاماً من مدينتهم، وأمروه أن يتلطّف في أمره حتى لا يشعر أحدٌ بهم فيرجموهم أو يعيدوهم في ملّتهم؛ ثم ذكر أنه أعثر قومهم عليهم، ليعلموا أنّ وعْدَهُ سبحانه، بالبعث حقّ، لأنّ قيام أصحاب الكهف بعد ذلك النوم الطويل يُشبهُ البَعْثَ من الموت. ثم ذكر أن قومهم تنازعوا في أمرهم، لأنه أماتهم بعد إعثارهم عليهم، فقال بعضهم: الأَوْلى أن نَسُدَّ باب الكهف فلا يدخل عليهم أحد، ولا يقف على أحوالهم إنسان. وقال آخرون: بلِ الاولى أن نبني على باب الكهف مَسْجِداً نعبد الله فيه، ونستبقي آثار أصحاب الكهف به.

ثم ذكر ما كان من اختلافهم في عددهم، وأمر النبي (ص) أن يذكر لهم أنّ الله أعلم به، وأنه لا يعلمه إلاّ قليل ممّن آثره بعلمه، ونهاه أن يجادلهم في أمرهم إلاّ جدالاً ظاهراً، فلا يُكَذِّبَهُم فيما يُعيِّنونهُ من عدد، بل يذكر لهم أنّ هذا التعيين لا دليل عليه، فيجب التوقف في أمره وتَرْك القطع به. ثم نهاه أن يستفتي أحداً منهم فيهم لأنهم لا علم عندهم بهم، وألاّ يُقدِمَ على شيء من ذلك وغيره إلاّ بإذنه ومشيئته، فلا يَرْجُم بالغيب كما يرجمون في أمر أصحاب الكهف. ثم ذكر اختلافهم

أيضاً في مدة لَبْثهم، وأنّ بعضهم يذهب إلى أنهم لَبِثُوا في كهفهم ثلاثمائة سنين، وبعضهم يزيد على ذلك تسع سنين، وأمَرَهُ أن يذكر لهم أن الله أعلم بمدة لَبْثِهم: ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴿٢٦﴾﴾.

وذُيِّلت نهاية هذه القصة بما يناسبها، فأمر سبحانه رسوله (ص) أن يتلو ما أوحي إليه فيها، لأنه هو الحق الذي لا تبديل فيه، ولن يجد من دونه مُلْتَحَداً يلجأ في علم شيءٍ إليه؛ ثم أمره أنْ يَصْبِرَ نَفْسَه مع الذين آمنوا به، ونهاه أن تعدُوَ عيناه عنهم إلى أهل الدنيا من رؤساء قومه وأغنيائهم، وأن يُطِيعَ هؤلاء الرؤساء والأغنياء في طَرْدِ مَنْ آمن به ليؤمنوا هم به، فيكونَ له بهذا أسوةٌ بأصحاب الكهف؛ ثم أمره أن يذكر لهم أنّ الحق منه وهو غنيٌّ عنهم، فمن شاء فَلْيُؤمن، ومن شاء فَلْيَكْفُرْ، فمن كفر فله عذابه الذي أُعِدّ له، ومن آمن فلن يضيع عليه عمله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الآية ٣١].

ثم أمره أن يضرب لهم أربعة أمثال تبيّن لهم خطأهم في تعاليهم بغناهم على فقراء المؤمنين، لأن الافتخار يجب أن يكون بالعمل الصالح لا بالمال:

الأول: مَثَلُ رجلين جعل الله لأحدهما جنّتين من أعناب محفوفتين بنخلٍ، وجَعَلَ بينهما زرعاً، وقد آتى كلٌّ منهما ثَمَرَهُ كاملاً غير منقوص، فافتخر بذلك على صاحبه، وظنّ أنه باقٍ له لا يفنى، وأنه ليس هناك مَعَادٌ يُخافُ حِسابُه. ولئن كان هناك مَعَادٌ، لَيَكونَنّ فيه أحسن حالاً ممّا هو عليه في الدنيا، فأنكر عليه صاحبه أن يكفر بالله ولا يقابل نعمته بشكره عليها. وذكر له أنه إذا كان يَفْخَر عليه بذلك، فعسى أن يؤتيه الله خيراً منه، ويرسل على جنّته صواعق من السماء فتبيدها؛ وكان أنّ الله أرسل عليها ذلك، فأبادها؛ وأصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها، ويتمنّى أنْ لو كان آمن بربه، ولم يجد من ينصره من دون الله، وما

كان منتصراً: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴿٤٤﴾﴾.

والثاني: مَثَلُ الحياة الدنيا في حقارتها وقِلّة بقائها، فهي كَمَاءٍ أنزله الله من السماء فاختلط به نبات الأرض، ولم يلبث أن جفّ وتكسّر وأصبح هشيماً تذوره الرياح. وما يفتخر به أولئك المشركون على فقراء المؤمنين من المال والبنين، هو من زينة الحياة الدنيا، فهو سريع الزوال مثلها؛ والأعمال الصالحة الباقية، خيرٌ منه ثواباً؛ ثم ذكر لهم يوم يسيّر الجبال وتبرز الأرض ويَحْشُرَهم جميعاً، وأنهم يُعْرَضون عليه وليس معهم شيء من أموالهم وأولادهم؛ ويوضع أمامهم كتابُ أعمالهم، فيُشفِقون مما فيه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴿٤٩﴾﴾.

والثالث: مَثَلُ آدم وإبليس، لأنّ إبليس لعنه الله، إنما تكبّر على آدم، لأنه افتخر بأصله ونسبه، وكان من الجن فَفَسق عن أمر ربه؛ وقد نهاهم عن الاقتداء به في ذلك، واتخاذه وذُرِّيَّته أولياء من دونه، وهم لهم عدوّ، والعاقل لا يتّخذ عدوّه وليّاً له، ومِثْلُهم لا يصح أن يكون شريكاً بالله، وهو لم يُشهِدْهم خلق السماوات والأرض ولا خَلْقَ أنفُسِهم، وهم مُضِلّونَ لا يمكن أن يتّخذ الله له عَضُداً منهم. ثم ذكر أنه إذا جاء يومُ القيامة أمرهم أن ينادوا أولئك الشركاء الذين اتخذوهم أولياء، فيدعونهم فلا يستجيبون لهم، ولا ينفعونهم بشيء ممّا كانوا يزعمونه فيهم. ثم ذكر أنه جلّت قدرته، ضرب تلك الأمثال لهم ليعتبروا بها، ويرتدعوا عن افتخارهم بكثرة أتباعهم وأموالهم على فقراء المسلمين؛ ولكنّ هذه الأمثال لا تؤثّر فيهم، بل يمضون فيما جُبلوا عليه من الجدال والشغب، ويطلبون أن تأتيَهم سُنّة الأوّلين من عذاب الاستئصال، أو تتوالى عليهم ضروب العذاب وهم أحياء؛ والله جل جلاله لم يرسل المرسلين إلا مُبشّرين ومنذِرين ليؤمن الناس طوْعاً لا كَرْهاً؛ ولكنهم يجادلون

بالباطل، ليدحضوا به الحق، ولا يريدون الإيمان إلاّ بما يقترحونه من تلك الآيات؛ وإنّما يتّخذون ما جاءهم من الآيات، وما أنذروا به منها لعباً وهُزُواً؛ وليس أظلم ممّن ذُكّر بآيات ربه فأعرض عنها، ونسي ما قدّمت يداه. ثم ذكر أن سبب إعراضهم، أنه جعل في قلوبهم أكِنّةً تمنعهم من فهمها، وأنه جعل في آذانهم وَقْراً يمنعهم من سماعها؛ ثم ذكر أنه لو يؤاخذهم بذلك لعجّل لهم ما طلبوه من العذاب، ولكنّ عذابهم له موعد لن يجدوا من دونه مَوئلاً: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾.

والرابع مَثَلُ موسى وبعضِ علماءِ عَصْرِه، فقد بلغ موسى من عُلوّ المنصب ما بلغ؛ ولكنه تواضع لذلك العالم الذي آثره الله بعلمٍ لم يعلمه موسى، وسافر إليه لطلب ذلك العلم، وكان أن ذَكَرَ لِفَتاهُ أنّه لا يَبْرَحُ عن السّير حتّى يبلغَ مجمعَ البحرين، فيجد عنده هذا العالِمَ؛ فلمّا بلغ ذلك المكان، نسي فتاهُ حوتاً كان معهما، فانساب في البحر؛ وكان هذا علامة مكان العالم الذي يطلبه، ولكن فتاه لم يخبره بذلك، حتّى جاوزا ذلك المكان، وطلب منه غداءهما، فأخبره بأنه نسي حُوتهما إذْ أَوَيا إلى الصخرة فانساب في البحر، فذكر له أنّ هذا هو ما كان يطلبه؛ فارْتَدّا إلى ذلك المكان، فوجدا عنده ذلك العالم، فطلب منه موسى أن يَتْبَعَهُ على أن يُعلِّمَهُ ممّا آثره به ربُّه، فأخبر موسى بأنه لن يستطيع الصبر على تعلُّم ذلك العلم الذي لا يحيط به، وتَخْفى عليه أسراره؛ فأخبره موسى بأنه سيجده صابراً على ذلك إن شاء الله تعالى، فطلب منه ألاّ يسألهَ عن شيءٍ حتى يُحدِّثه عنه ويُعَرِّفه حقيقته. فانطلقا، حتّى ركبا في سفينةٍ، فَعَمَدَ ذلك العالِم إليها فخرقها، فأنكر موسى عليه أن يخرقها ليُغرق أهلها، فذكّره بما أخبره به، من أنه لن يستطيع الصبر معه، فاعتذر له موسى بأنه نسي وطلب منه ألاّ يؤاخذه على ذلك النسيان؛ فانطلقا، حتّى وجدا غلاماً، فَعَمَدَ ذلك العالم إليه فقتله، فأنكر موسى عليه

ذلك أيضاً، فعاد إلى تذكيره بما أخبره به من أنه لن يستطيع الصبر معه، فذكر له موسى أنه إن سأله عن شيء بعد ذلك فلا يصاحبه، لأنه قد بلغ منه العذرَ؛ فانطلقا حتى أتيَا أهل قرية، فَطَلَبَا من أهلها طعاماً فأبَوْا أن يُطْعموهما، فوجد ذلك العالم فيها جداراً يوشك أن يسقط فأقامه، فأنكر عليه موسى أن يقيمه من غير أجر لقوم أبَوْا أن يطعموهما، فذكر له أنه لا يمكنه أن يصاحبه بعد هذا، وأنه سيخبره بتأويل ما أنكره عليه من هذه الأمور الثلاثة؛ فذكر له أن السفينة كانت لمساكين يعملون في البحر، وكان هناك مَلِكٌ يَغْصِبُ كلّ سفينة صحيحة، فخرقها ليعيبها فلا يغصبها؛ وأنّ الغلام كان أبواه مؤمِنَيْنِ ولو بقي لشبّ على الطغيان والكفر، وفُتِن به أبواه فكفرا مثله؛ وأن الجدار كان لغلامين يتيمين، وكان تحته كنزٌ لهما، وكان أبوهما صالحاً، فأقامه لهما، حتّى يبلغا أشُدَّهما، ويستخرجا كنزهما: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

قصة ذي القرنين
الآيات [٨٣ ـ ١٠٨]

ثم قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ فذكر، سبحانه، أنهم سألوا الرسول (ص) عن ذي القرنين وأن الرسول (ص) أجابهم بأنه سيتلو عليهم بعض أخباره؛ وفصّلَ السياق ذلك بأنه جلّ جلاله مكّنَ له في الأرض، وأعطاه من العلم والقدرة والعُدّة ما يتوصّل به إلى مقصوده. فلما أراد أن يُوَسّعَ ملكه جهة الغرب، سار حتى بلغ أوائل بلاد المغرب، فوجد هناك عيناً حَمِئَةً، ووجد عندها قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، فدعاهم إلى الدخول في طاعته، فمن أبى عَذّبه عذاباً شديداً في الدنيا، إلى ما سيناله من عذاب الله في الآخرة، ومن دخل في طاعته جازاه بالحسنى، ويسّرَ عليه زكاته وخَرَاجه وغيرهما؛ ثم أراد أن يُوَسّع ملكه جهة الشرق فسار حتى بلغ أوائل بلاد الشرق الأقصى، فوجد هناك قوماً كالأوّلين، لا يسترون أجسامهم

من الشمس، فقضى فيهم ما قضاه سابقاً مِنْ تعذيب مَنْ لم يدخل في طاعته، والإحسان إلى من دخل فيها؛ ثم سار من هناك حتى بلغ بين السَّدَّيْنِ، فوجد هناك قوماً كالأولين أيضاً، وهم قوم يأجُوجَ ومأجُوجَ من قبائل التُّرْكِ؛ وكانوا مفسدين في الأرض، فشكاهم إليه مَنْ دَخَل في طاعته من أهل تلك البلاد، وطلبوا منه أن يقيم سَدًّا يمنع غاراتهم عليهم، فأجابهم إلى ما طلبوه من ذلك السدّ، وأمرهم أن يأتوه بقطع الحديد فوضع بعضها على بعض حتى سُدّتْ ما بين الجبلين إلى أعلاهما، ثم وضع المنافخ عليها حتّى إذا صارت كالنار صَبَّ النحاس المُذابَ عليها، فالتصقَ بعضها ببعض حتى صارت جَبَلاً صَلْداً، فلم يَقْدِروا أن يَظْهَرُوهُ[1] أو يَنْقُبُوهُ؛ ولما تمّ له ذلك، ذكر أنه رحمة من الله بعباده، وأنه إذا جاء وَعْدُ الله بخروجهم سوّاهُ بالأرض، فيخرجون منه، يموج بعضهم في بعض، ويعيثونَ فساداً في الناس، وذلك من أمارات يوم القيامة؛ وبعد هذا يُنفخُ في الصور فيُجْمَعون وسائِرَ الناس للحساب، وتُعْرَضُ جهنّم للكافرين الذين عَمُوا وصمُّوا عما يُذكّرهم بذلك اليوم.

ثم وبّخهم على ظنّهم أن ينتفعوا بمن اتخذوهم أولياء من دونه، مع إعراضهم عن تَدَبُّر ما ذُكّروا به؛ وذكر سبحانه، أنه أعدّ لهم جهنّم نُزُلاً فلا يصرفهم أحد عنها؛ ثم ذكر من قبيح صفاتهم، أنهم قد ضلّ سعيهم في الدنيا وهم يَحْسَبُونَ أنهم يُحْسِنُونَ صُنْعاً، إلى غير ذلك مما ذكره من وعيدهم؛ ثمّ أتْبَع وعيدهم بوعد المؤمنين على عادته في الجمع بين الترهيب والترغيب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

الخاتمة
الآيات [١٠٩ ــ ١١٠]

ثمّ قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ

(١) ظَهَرَ الحائطَ يَظْهَرُه ظهوراً: فِعْلٌ مُتَعَدٍّ، معناه: عَلَاه.

﴿مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ۝١٠٩﴾.

فختم السورة بالتنويه بشأن ما جاء فيها من ذلك القَصَص العجيب، وذكر جلّ جلاله أن كلماته في هذا الشأن العجيب لا تنفد، وأنه لو كان البحر مِداداً لها لَنَفِد قبل نفادها؛ ثـمّ أمر الرسول (ص) أن يذكر لهم أنّ مثله لا يقدر على مثل هذا، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾.

أسرار ترتيب سورة «الكهف»(*)

قال بعضهم: مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء: افتتاح تلك بالتسبيح، وهذه بالتحميد[1]، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيحُ التحميدَ، نحو: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر/٩٨] ونحو ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [غافر/٥٥؛ ق/٣٩؛ الطور/ ٤٨]. وسبحان الله وبحمده.

قلت: مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضاً[2]، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف.

ثم ظَهَر لي وجه آخر أحسن في الاتصال. وذلك: أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي (ص) عن ثلاثة أشياء: عن الروح، وعن قصّة أصحاب الكهف، وعن قصّة ذي القرنين[3]. وقد ذُكِر جواب السؤال الأول في آخر «الإسراء»، فناسب اتصالها بالسورة التي اشتملت على جواب السؤالين الآخَرين.

فإن قلت: لماذا لم يُجمع الثلاثة في سورة واحدة؟

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وسبب آخر ذكره ابن الزَّمْلكاني هو: أن «سورة الإسراء» اشتملت على الإسراء الذي كَذَّبَ به المشركون وكذَّبوا الرسول (ص) من أجله. وتكذيبه تكذيب لله، فأتى بـ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ تنزيهاً لله عما نُسِب الى نبيه من الكذب. وسورة الكهف، لمّا نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة اصحاب الكهف، وتأخُّرَ الوحي، نزلت مُبَيِّنَةً أن الله لم يقطع نعمته عن رسوله ولا عن المؤمنين فناسب افتتاحها بالحمد (الاتقان: ٣/ ٣٨٧).

(٢) ختام الإسراء: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء/ ١١١].

(٣) انظر تفسير ابن كثير: ٥/ ١٣٧.

قلت: لمّا لم يقع الجواب عن الأول بالبيان[1]، ناسب فصله في سورة.

ثم ظهر لي وجه آخر: وهو أنه لما قال سبحانه فيها: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، والخطاب لليهود، واستظهر على ذلك بقصة موسى (ع) في بني إسرائيل مع الخضر (ع)، التي كان سببها ذكر العالم والأعلم[2]، وما دلت عليه معلومات الله عز وجل التي لا تحصى من الإحاطة، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل على ما ذكر من الحكم.

وقد ورد في الحديث أنه لما نَزَلَ في سورة الإسراء: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، قال اليهود: قد أوتينا التوراة، فيها علم كل شيء، فنزل في هذه السورة[3]: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾. فهذا وجه آخر في المناسبة. وتكون السورة من هذه الجهة جواباً عن شبهة الخصوم، فيما قدّر بتلك.

وأيضاً، فلما قيل هناك: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ [الإسراء] شُرِح ذلك هنا، وبُسِط، بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [الآية ٩٨] إلى قوله جلّ وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾. ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ فهذه وجوه عديدة في الاتصال.

---

(١) لم يقع الجواب بالبيان، وإنما وقع بإسناد علم الروح الى الله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء].

(٢) أخرجه الامام أحمد في المسند: ١/ ٢٥٥، وفيه أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً.

(٣) وفي رواية لابن جرير في التفسير: ١٥/ ١٠٤: فنزلت: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ [لقمان/ ٢٧].

مكنونات سورة «الكهف»(*)

١ ـ ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾ [الآية ٩].

قال أبو جَعْفَر: كان أصحابُ الكهف صيارفةً.

قال مُجاهِد: كانوا أبناءَ عظماءِ أهلِ مدينتهم.

وقال ابن إسحاق: الكهف في جبل يُقال له: بنجلوس.

وقال مُجاهِد: بين جبلين.

أخرج ذلك كُلَّه ابنُ أبي حاتِم.

وأخرج ابنُ جَرير عن ابن عباس: أن الرَّقيم وادٍ [بين عُسْفَان وأَيْلة وهو](١) قريب من أَيْلة.

وأخرج عن شعيب الجبائي أن اسم جبل الكهف: «بنجلوس»(٢) واسم الكهف: «حرم»(٣).

٢ ـ ﴿وَكَلْبُهُم﴾ [الآية ١٨].

قال الحسن: اسْمُهُ قِطْمِيرٌ.

وقال مُجاهِد: قطمورا.

وقال شُعَيْب الجَبَائي: حُمران(٤).

وقال كثير النَّوَّاء(٥): كان أصفر.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) زيادة من «تفسير الطبري» ١٥/ ١٣١. وعُسْفان: قرية بين الجحفة ومكّة. انظر «معجم البلدان» ٤/ ١٢٢.

(٢) كذا في «تفسير الطبري» ١٥/ ١٣٢.

(٣) كذا في الأصول، وفي «تفسير الطبري» و«تفسير ابن كثير» ٣/ ٧٣: «حيزم». وانظر مادة «الرقيم» في «معجم البلدان».

(٤) وهو خطأ، ومخالف للطبري ١٥/ ١٣٢.

(٥) هو كثير بن إسماعيل، أو ابن نافع، أبو إسماعيل التميمي، الكوفي؛ ضعّفه حفّاظ الحديث، كأبي حاتم والنسائي. و«النّوّاء» نسبة الى بيع النّوى.

وقال رجل يقال له عبيد: أحمر.

أخرج ذلك كُلّه ابنُ أبي حاتِم، إلاّ قولَ شُعَيْب فابنُ جرير.

وفي «العجائب» للكَرِماني: قيل: إن الرّقيم: اسم كَلْبِهِم.

قلت: أخرجه ابنُ أبي حاتم عن أنس.

٣ ـ ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ [الآية ١٩].

هو تمليخا. قاله ابنُ إسحاق.

٤ ـ ﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الآية ١٩].

قال مُقاتِل[1]: هي مَنْبِج. أخرجه ابنُ جَرير.

٥ ـ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ [الآية ٢٢].

قالَهُ اليهود.

٦ ـ ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾ [الآية ٢٢].

قاله النَّصارى، قاله السُّدِّيّ وغيره.

٧ ـ ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

قال ابن عبّاس: أنا من أولئك القليل؛ وهم سبعة[2].

وفي رواية عنه: وَهُمْ ثمانية. أخرجهما ابنُ أبي حاتم. وأخرج عن ابن مسعود أيضاً قال: أنا من القليل؛ كانوا سبعة. وسمّاهم ابن إسحاق: تمليخا، ومكسميلينا، ومحسملينا ومرطونس، وكسوطونس، وبيورس، وبكرنوس، ونطسوس، وقالوس[3].

فائدة:

أَكْثَرُ الْعُلَماء عَلى أنَّ أصحابَ الكهف كانوا بعد عيسى (ع). وذهب ابنُ قُتَيْبَة[4] إلى أنّهم كانوا قبله، وأنه أخبر قومه خبرهم، وأن يقظتهم بعد رفعه زمن الفترة. وحكى ابنُ أبي

---

(١) لم نجد هذا الأثر في تفسير ابن جرير.

(٢) وأخرجه الطبراني في «الأوسط» وفيه يحيى بن أبي روق، وهو ضعيف. قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٥٣.

(٣) هناك بعض الاختلاف في النسخ وابن كثير ٣/ ٧٨ أهملنا ضبطها لقول ابن كثير: «وفي تسميتهم بهذه الأسماء، واسم كلبهم، نظر في صحته، والله أعلم. فإن غالب ذلك مُتلقّى من أهل الكتاب. وقال الله تعالى ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الآية ٢٢] أي سهلاً هيّناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة».

(٤) ابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦) هـ: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، من أئمة الأدب والدين، ومن المصنّفين المكثرين، سمّوه فقيه الأدباء وأديب الفقهاء، ولد ببغداد وسكن الكوفة، صنّف: «تأويل مختلف الحديث» و«أدب الكاتب» و«المعارف» و«عيون الأخبار» و«غريب الحديث»، وغيرها كثير.

خيثمة[1] أنهم يُبْعَثُونَ[2] في أيام عيسى (ع) إذا نزل، ويحجّون البيت.

٨ ـ ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الآية ٢٨].

تَقَدَّم بيانُهم في سورة الأنعام.

٩ ـ ﴿مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ﴾ [الآية ٢٨].

قال خَبّاب[3]: يعني عُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس[4].

وقال ابن بُرَيْدة[5]: هو عُيينة. أخرج ذلك ابن أبي حاتم. وأخرج عن الرَّبيع أنه أُمَيّة بنُ خَلَفَ. وكذا أخرجه ابن مَرْدُوْيه[6] عن ابن عبّاس.

١٠ ـ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ [الآية ٣٢].

قال الكَرماني في «العجائب»:

قيل: كانا من أهل مكة، أحدُهما مؤمنٌ وهو: أبو سَلَمة، زوج أم سَلَمة.

وقيل: كانا أخوين في بني إسرائيل، أحدُهما مؤمنٌ اسمه: تمليخا.

وقيل: يهوّذا والآخَرُ كافرٌ اسمه: فطروس؛ وهما المذكوران في سورة الصافات[7].

١١ ـ ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الآية ٥٠].

أخرج ابنُ أبي حاتم عن مُجاهِد قال: ولد إبليس خمسة: ثَبْر، والأعور، وزَلَنْبُور، ومِسْوَط[8]،

---

(١) ابن أبي خيثمة (١٨٥ ـ ٢٧٩) هـ: أحمد بن زهير، أبو بكر، مؤرخ ومن حفاظ الحديث، كان ثقة، راوية للأدب. صنف «التاريخ الكبير» وهو كتاب مخطوط، يكثر المصنفون من النقل عنه. قال الدارقطني: لا أعرف أغزر فوائد من تاريخه..

(٢) عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام/ ٥٢].

(٣) يعني خَبّاب بن الأرتّ الصحابي، رضي الله عنه.

(٤) أثر خبّاب هذا، أخرجه الحافظ بن حجر في «المطالب العالية» برقم: (٣٦١٨) وعزاه لأبي يَعْلَى وابن أبي شيبة، وأفاد الحافظ البوصيري، كما في هامش «المطالب العالية»، أن سند أبي يعلى صحيح، وعزاه أيضاً الى ابن ماجه مختصراً.

أقول: وأخرجه الواحدي في «أسباب النزول»: ٢٢٤ عن سَلْمان الفارسي.

(٥) كما في «الدر المنثور» ٤/ ٢٢٠.

(٦) والواحدي في «أسباب النزول»: ٢٢٥.

(٧) في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١﴾ [الصافات].

(٨) كذا في «الطبري» ١٥/ ١٧١ و«الدر المنثور» ٤/ ٢٢٧ و«تاج العروس» مادة (سوط).

وداسِم[1]. فمِسْوَط: صاحب الصَّخَب. والأعور ودَاسِم لا أدري ما يعملان. وثَبْر: صاحب المصائب. وزَلَنْبُور: الذي يُفرِّق بين الناس، ويُبَصِّر الرجلَ عيوبَ أهله[2].

وأخرج ابنُ جرير[3] عنه قال:

زَلَنْبُور: صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق [ما بين السماء والأرض][4] وثَبْر: صاحب المصائب. والأعور: صاحب الزنا. ومِسْوَط: صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقيها في أفواه الناس، ولا يجدون لها أصلاً. ودَاسِم: الذي إذا دخل الرجل بيته، ولم يسلم، ولم يذكر الله بَصَّره من المتاع ما لم يُرفع. وإذا أكل ولم يذكر اسم لله أكل معه.

١٢ - ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الآية ٦٠].

قال ابن عبّاس وغيره: هو يوشعُ بن نون. أخرجه ابنُ أبي حاتِم[5]. وفي «العجائب» للكَرِماني: كان أخاً ليوشع.

١٣ - ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الآية ٦٠].

قال قَتَادة: هما بحرا المشرق والمغرب بحرا فارس والروم. وكذا قال الرَّبيع.

وقال السُّدِّي: هما الكُرّ والرَّس[6] حيث يصبّان في البحر.

وقال محمد بنُ كعب: مَجْمَعُ البحرين بطَنْجَة[7].

وقال أُبَيّ بنُ كعب: بأفريقية. أخرج ذلك ابنُ أبي حاتم.

١٤ - ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الآية ٦٥].

---

(١) كما ورد في «تفسير الطبري» و«تاج العروس».

(٢) كذا في «تاج العروس».

(٣) ١٥/ ١٧١.

(٤) زيادة من«الطبري».

(٥) رواية ابن عبّاس هذه، جاءت مرفوعة في «صحيح البخاري» برقم (٤٧٢٦) في التفسير.
وجاء في «الإتقان» ٢/ ١٤٧: «وقيل: أخوه يثربي».

(٦) كذا في «فتح الباري» ٨/ ٤١٠، و«معجم البلدان» ٣/ ٤٤، وفيه أنهما يصبّان في بحر جرجان.

(٧) «طَنْجَة» مدينة معروفة في المغرب تطلّ على البحر.

هو الخَضِر، كما في «الصحيح»[1] وغيره.

واسْمُهُ: بليا. وقيل: اليسع. وقيل: إلياس. حكاه الكِرماني في «عجائبه».

١٥ ـ ﴿لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ [الآية ٧٤].

قال شُعيب الجَبَائي: اسمه: جيسورا[2] أخرجه ابن أبي حاتم.

١٦ ـ ﴿أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الآية ٧٧].

قال ابن سيرين: هي الأُبُلَّة[3].

وقال السُّدِّيّ: باجَرْوان[4]. أخرجه ابن أبي حاتم. وأخرج من طريق قَتادة عن ابن عبّاس، قال: هي أبرقة.

قال: وَحَدَّثَني رَجُلٌ أنّها: أنطاكية.

وقيل: هي قُرْطُبَة. حكاه ابن عَسْكَر.

١٧ ـ ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الآية ٧٩].

اسمه هُدَد بن بُدَد. كما في «البخاري»[5].

وقيل: الجلندا[6]. حكاه ابن عَسْكَر.

١٨ ـ ﴿أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الآية ٨٠].

اسم الأب: كازَبَرا، والأم: سهوى[7].

١٩ ـ ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ [الآية ٨١].

قال ابنُ عبّاس: أُبْدِلا جاريةً وَلَدَتْ نبياً. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

وأخرج ابنُ أبي حاتِم عن السُّدِّيّ، قال: ولدت جارية، وَلَدَتْ نبيّاً؛ وهو الذي كان بعد موسى، الذي قالت له

---

(١) البخاري برقم (٤٧٢٥) في التفسير، ومسلم في الفضائل (١٦٢)، والترمذي (٣١٤٨) في التفسير، والحميدي، في «مسنده» برقم (٣٧١)، والخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» برقم (٢٩).

(٢) في «تفسير ابن كثير» ٣/ ٩٨: «حيثور»، وفي «الإتقان» ٢/ ١٤٧: «جيسون»، بالجيم وقيل بالحاء».

(٣) الأُبُلَّة: بلدة على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج، الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة. قال الأصمعي: جنات الدنيا ثلاث: غوطة دمشق، ونهر بَلْخ، ونهر الأُبُلَّة. «معجم البلدان».

(٤) باجَرْوان: مدينة في نواحي الأبواب قرب شروان. «معجم البلدان» ١/ ٣١٣.

(٥) برقم (٤٧٢٦) في التفسير.

(٦) ما ذكره المصنّف أعلاه منسوباً الى ابن عسكر، أسنده الحافظ في «فتح الباري» ٨/ ٤٢٠ الى «تفسير مقاتل» وزاد: «وكان بجزيرة الأندلس» قال: «وقيل: منولة بن الجلندي بن سعيد الأزدي».

(٧) في «فتح الباري» ٧/ ٤٢١: «وفي المبتدأ» لوهب بن منبّه: «كان اسم أبيه: ملامس، واسم أمه: رحما؛ وقيل: اسم أبيه: كادري، واسم أمه: سهوى».

بنو إسرائيل: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة/٢٤٦] وكان اسمه: شمعون، وكان اسمها: حنة.

٢٠ - ﴿لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ﴾ [الآية ٨٢].

هما صُرَيْم، وأصْرَم، ابنا كاشح؛ وأمهما دُنْيا.

٢١ - ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ [الآية ٨٦] كافرين.

٢٢ - ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ [الآية ٩٠].

قال قتادة: يقال إنهم الزنج. أخرجه عبدُ الرزاق.

٢٣ - ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ [الآية ٩٦].

قال الضَّحَّاك: هُما من قِبَل أرمينية وأَذْرَبِيجان[1]. أخرجه ابن أبي حاتم[2].

---

(١) يجوز فيها فتح الراء، وسكون الذال؛ وفتح الذال؛ وسكون الراء. كما في «معجم البلدان» ١/ ١٢٨.

(٢) والطبري: ١٦/ ٢١.

لغة التنزيل في سورة «الكهف»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.

الباخع: القاتل المهلك، يقال: بَخَعَ نفسه يَبْخَعُها بَخْعاً وبُخُوعاً، قال ذو الرُّمَّة:

ألا أيُّهذا الباخِعُ الوَجْدُ نفسَه
لشيءٍ نَحَتْه عن يَدَيْه المقادِرُ

أقول: والبَخْعُ من الكلم القديم الذي افتقدناه منذ عصور.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾.

قالوا: الرَّقيم اسم كلبهم، قال أمية بن أبي الصَّلت:

وليس بها إلاّ الرَّقيمُ مجاوراً
وَصِيدَهُم والقومُ في الكَهْفِ هُمَّدُ

وقيل: هو لوح من رَصاص، رُقِمَت فيه أسماؤهم، جُعِلَ في باب الكهف.

وقيل: إنّ الناس رقموا حديثهم نَقْراً في الجَبَل.

وقيل: هو الوادي الذي فيه الكهف، وقيل: الجَبَل، وقيل: مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين.

أقول: الذي أراه أن «الرَّقيم» هو «المرقوم»، ولعله كتابهم أو كتابتهم، وما سطروه ونقشوه.

وما زال «الرَّقم» في العربية يشير إلى الكتابة والنقش والإشارة.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية ١٤].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، أي: قوّيناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والفرار بالدّين إلى بعض الغِيران[1]، وجسّرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام.

أقول: والرَبْط على القلوب، كناية جميلة عن تقويتها بالصبر والجلَد على الصعاب.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الآية ١٧].

قوله تعالى: ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ أي: تتمايل، والأصل تَتَزاوَر.

وقُرِئ: تـزوَرُ وتَـزوارُ بـوزن تَـحْـمَـرُ وتَحمارُ، وكلّها من الزَّور وهو الميل، ومنه زارَه إذا مال إليه.

وهذا يدلنا على أن «الزيارة» من الزَّور، وهو المَيْل الحسّي الذي تحوّل إلى زيارة، وذهاب؛ فيهما ميل جَسَدي، وآخرُ معنويّ عاطفيّ.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الآية ١٨]. انظر: [آل عمران/ ٩].

٦ ـ وقال تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الآية ١٩].

«الوَرِق»: الفضّة مضروبةً كانت أو غير مضروبة، وقُرِئَ بسكون الراء والواو مكسورة أو مفتوحة، وكذلك الرِّقةُ، وقالوا: إنها الدراهم.

أقول: وهذا من الكلم القديم الذي بقي في النصوص القديمة.

٧ ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الآية ٢١].

أي: وكذلك أعثرنا عليهم (أي: أهل الكهف) أهلَ المدينة.

و «أعثَرَ» في الآية فعل متعدٍ، حُذِفَ مفعوله، تقديره: أَهْلَ المدينة.

وقد جاء هذا الفعل في الآية: ١٠٧ من المائدة، ببناء الثلاثي وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾.

أقول: وعلى هذا، يكون استعمال المعاصرين صحيحاً حين يقولون: عثرنا على هذه المسألة، مثلاً.

---

(١) الغيران، جمع الغار.

وجاء في معجمات العربية: وعَثَر على الأمر: اطّلع عليه.

ولا حجّة لمن ذهب إلى خطأ هذا القول من المعاصرين.

٨ - وقال تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾ [الآية ٢٤].

أقول: إن الاكتفاء بالحركة القصيرة بعد النون، يهيّئ مناسبةً أن يجيء بعدها حركة طويلة في قوله تعالى: ﴿رَبِّى﴾، ولو أنك أطلت في الأولى وقرأت «يهديني» لما حَسُنَ الأداء من الناحية الصوتية، ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [الآية ١٧].

فإن ﴿ٱلْمُهْتَدِ﴾ جاء بالكسر، والأصل «المهتدي»، ولكن لمّا حَسُن الوقف عليه اجتُزِئ بالكسر، توقُّعاً للسكون، الذي يتطلبه الوقف.

٩ - وقال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾.

«المُلتَحد» بزنة اسم المفعول: المُلتَجأ.

أقول: وليس لنا في عربيتنا المعاصرة إلاّ الثلاثي، ومنه «اللَّحْد».

١٠ - وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾، أي: احْبِسها معهم وثبّتها، قال أبو ذؤيب:

فصَبَرْتُ عارفةً لذلك حرّةً
تَرسُو إذا نفسُ الجبان تَطَلَّعُ

أقول: وهذا من معاني «الصبر» القديمة، التي عفا أثرها بسبب شيوع معنى «الصبر» المعروف، وهو الصبر على المحن والشدائد، وبهذا المعنى أصبح الفعل «صَبَر» من الأفعال اللازمة، وأصله التعدّي؛ لأن المعنى هو الحَبْس في الأصل، فكأن «الصابِر» على الشدّة من يحبِس نفسه، فيحملها على الاحتمال.

قلت: لم يبقَ من هذا المعنى شيء إلاّ ما اصطلح عليه أهل الشمال الإفريقي، الذين أخذوا المضاعف، وأطلقوه على ما يحبس من الفواكه والخضر واللحوم في الصفيح، وهو ما

ندعوه في المشرق «المعلّبات» وعندهم يقال: «المصبّرات».

أقول: وأهل إفريقية في هذه اللفظة، أفصح منا نحن عرب المشرق؛ ذلك أن «المعلّبات» و«التعليب» قد جاء من «العُلبة»، وهي قَدَحٌ ضَخم من جلود الإبل، وقيل: العُلْبة من خشب، كالقَدَحِ الضخمْ يحلب فيها، وقيل: إنها كهيئة القَصْعة من جلد، ولها طَوْق من خشب.

وهذه «العُلبة» القديمة كان لنا في العراق شيء منها، ولا سيّما في بغداد، فهي وعاء من خَشب، تضع فيه القرويات اللبن الخاثر، ويأتين به ليباع.

وجاء في الآية أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾.

والمعنى: ولا تتجاوزهم عيناك وتتعدّياهم، أي: لا تتجاوز عيناك الفقراء، وتَزْوَرّا عنهم.

أقول: وهذا استعمال جميل للفعل «عدا يعدو».

وجاء في الآية نفسها: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾.

والمعنى: كان أمرُه مجاوزاً الحدّ.

وهذا من الكلم الجميل الذي لا نعرفه الآن، وإن كنا نستعمل الإفراط والتفريط.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

وقال أيضاً: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

والمعنى: المُرتَفَقُ هو المُتّكَأ من المرفق، وهذا لمشاكلة قوله سبحانه: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾، وإلاّ فلا ارتفاق لأهل النار، ولا اتّكاء.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الآية ٣٣].

أي: كلّ واحدةٍ من الجنّتَين آتت غَلّتَها، وأخرَجَتْ ثمرتَها.

أقول: جاء الفعل مختوماً بتاء التأنيث آتت، ولم يأت «آتتا» كما وردت في بعض القراءات.

فماذا يقال في هذه المسألة؟ قالوا: إنّ «كلتا» مفرد، ولذلك حُمِل الفعل بعدها على اللفظ، ولوحُمِل على المعنى لقيل: آتتا.

كأن «كلتا» اسم مقصود مفرد، ولذلك فإنّ مراعاة لفظها أكثر وأفصح

من مراعاة معناها، مثلها مثل «كُلّ» فلفظها مفرد، وهو المحمول عليه أكثر مما يحمل على معناها؛ ومثل هذا «مَنْ» و«ما» الموصوليّتان أو الشرطيّتان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ﴾، أي: لم تنقص.

وإفادة «الظلم» لمعنى النقص معروف في العربية وهو كقول الشاعر:

أيظلمني مالي كذا ولوى يدي
لوى يدهُ الله الذي هو غالبُهْ

أي: ينقصني مالي.

أقول: ولشيوع «الظلم» في دلالته المعروفة في عصرنا، أنسيت هذه الدلالة الأخرى التي وردت في الآية.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٤٣].

أقول: كنّا قد أشرنا إلى أن العربية قد تحمل على اللفظ كثيراً، فأشرنا إلى أن كلمة «كلّ» لفظها لفظ المفرد، وكذلك «رَكْب»، و«وفد»، و«قوم»، و«شَجَر»، و«طفل» وغير ذلك كثير.

وقد تحمل على المعنى في الكلمات التي أشرنا إليها، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات/ ١١].

وفي غير هذه الكلمات.

وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نقول: إنّ هذا أفصح من ذاك.

وقد كنا عرضنا لكلمة «طائفة»، وكيف وردت في الآيات الكريمة يُراعَى لفظها مرّةً، كما يُراعَى معناها أخرى.

ومثل « طائفة» كلمة «فئة»، ولنعرض الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة/ ٢٤٩].

﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران/ ١٣].

﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ [الأنفال/ ١٩].

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ﴾ [القصص/ ٨١].

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾ [آل عمران/ ١٣].

أقول: ومجيء كلمة «فئة» في جملة هذه الآيات نظير ما ورد في كلمة

«طائفة» وغيرها في لغة التنزيل.

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الآية ٥٣].

قوله تعالى: ﴿مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي: مخالطوها واقعون فيها.

أقول: وهذا استعمال للفعل «واقَعَ» يحقّ لنا أن نقف عليه.

١٥ ـ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾.

أي: لقد جئتَ شيئاً عظيماً، وهو من أمِرَ الأمرُ إذا عظُم، قال داهيةً دَهْياءَ إدًّا إمراً.

أقول: ما كان أحوجَنا إلى أن تحتفظ عربيّتنا المعاصرة بهذا النوع من الكلم الثلاثي الجميل، وهو قريب مِنّا، ولا سيما أن مادة «أمر» كثيرة التداول.

١٦ ـ وقال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الآية ٧٧].

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾، أي: طَلَبا الطعام.

وقوله سبحانه: ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقرئ يُضِيفوهما. ويقال: ضافَه إذا كان ضيفاً.

وحقيقته: مالَ إليه، من ضافَ السهم عن الغَرَض، ونظيره: زارَه من الازوِرار.

وأضافَه وضيّفه: أنزَلَه وجَعَله ضيفه.

وفي قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة.

أقول: كأن القول: يوشِك أن ينقضَّ. واستعارة الإرادة للمداناة والمشارفة لا نعرفها في العربية المعاصرة، ولكننا نجدها في العامّية الدارجة في العراق، فنقول في المناسبة نفسها في الحديث عن جدار آيل للسقوط: «يريد يسقط».

المعاني اللغوية في سورة «الكهف»(*)

قال تعالى ﴿عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ [الآية ٢] أي: أنزل على عبده الكتاب قَيِّما، ولم يجعل له عِوَجا.

وقال سبحانه ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ بالنصب على الحال، على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ [الآية ٢].

وقوله تعالى ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ [الآية ٥] في معنى: أَكْبِرْ بِها كَلِمَةً.

وقال تعالى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية ٥٠] أي: «عَنْ رَدِّ أَمْرِ رَبِّهِ» نحو قول العرب: «أُتْخِمَ عَنِ الطَّعام» أي: عَنْ مَأكَلِهِ أُتْخِمَ، ولما رَدَّ هذا الأمر فسق(1).

وقال تعالى: ﴿مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝١٦﴾ أي: شَيْئاً يرتَفِقُونَ بِهِ.

وفي قوله تعالى ﴿تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ [الآية ١٧] «ذاتَ الشِّمالِ» نَصْبٌ على الظرف.

وفي قوله تعالى ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الآية ١٩] فلم يُوصَل «فَلْيَنْظُر» الى «أيّ» لأنه من الفعل الذي يقع بعده حرف الاستفهام تقول: «انْظُرْ أَزَيْدٌ أَكْرَمُ أَمْ عَمْرٌو».

وقال تعالى ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الآية ٢٤] أي: إِلاّ أَنْ تَقُولَ: «إِنْ شاءَ اللهُ» فَأَجْزَأَ من ذلك هذا؛ وكذلك اذا طال الكلام أَجْزَأَ فيه، وصار شبيهاً بالإِيماءِ، لأَنَّ بَعْضَه يدلّ على بعض.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(1) نقله في التهذيب ٨/ ٤١٤ فسق، والصحاح فسق، ونسبه في الجامع ١٠/ ٤٢٠ الى محمد بن مطرب.

وقال سبحانه ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الآية ٢٦] أي: ما أَبْصَرَهُ وأَسْمَعَه، كما تقول: «أَكْرِمْ بِهِ» أي: ما أَكْرَمَهُ. وذلك أن العرب تقول: «يا أَمَةَ اللهِ أَكْرِمْ بِزَيْدٍ» فهذا معنى ما أَكْرَمَهُ، ولو كان يأمرها أن تفعل، لقال «أَكْرِمِي زَيْداً».

وقال تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الآية ٢٢] أي: ما يَعْلَمُهُمْ من الناس إلاّ قليلٌ. والقليل يعلمونهم.

وقال سبحانه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الآية ٢٩] أي: قُلْ هُوَ الحَقُّ. وقوله من الآية نفسها: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: وساءت الدار مرتفقاً.

وقال تعالى ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الآية ٣٢] ثم قال في الآية نفسها: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الآية ٣٤] وإنما ذكر الرَّجُلَيْنِ في المعنى وكان لأحدهما ثمرٌ، فأجزأ ذلك من هذا[1].

وقال تعالى ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الآية ٣٣] بجعل الفعل واحداً، على اللفظ، لا على المعنى.

وقال تعالى ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الآية ٥٩] يعني: أَهْلَهَا كما قال ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف/ ٨٢] أجري اللفظ على القوم وأجري اللفظ في «القَرْيَة» عليها، الى قوله تعالى ﴿ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف/ ٨٢]؛ وقال سبحانه ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [الآية ٥٩] ولم يقل «أَهْلَكْناهَا» حمله على القوم، كما قال «وجاءَتْ تميمُ» وجعل الفعل لـ «بني تَميم» ولم يجعله لـ «تَمِيم» ولو فعل ذلك لقال: «جاءَ تَميم» وهذا لا يحسن في نحو هذا، لأنه قد أراد غير تميم في نحو هذا الموضوع، فجعله اسماً، ولم يحتمل اذا اعتل ان يحذف ما قبله كله، يعني التاء من «جاءَتْ» مع «بني» وترك الفعل على ما كان، ليدل على أنه قد حذف شيئا قبل «تَمِيم».

وقال ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ [الآية ٦٠] أي: لا أزالُ. قال الشاعر [من الطويل وهو الشاهد الخامس والأربعون بعد المئتين]:

وَمَا بَرِحُوا حتَّى تَهادَتْ نِساؤُهُمْ
بِبَطْحاءِ ذِي قارٍ عِيابَ اللَّطَائِمِ

---

(١) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٦٠٦.

أي: ما زالوا.

وأمّا قوله تعالى ﴿فَخَشِينَآ﴾ [الآية ٨٠] فمعناه: كَرِهنا، لأنّ الله جلّ جلاله لا يَخْشى[1].

وفي قوله تعالى ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الآية ٩٤] جُعِلَ الألف من الأصل، وجعل «يأجوج» من «يَفْعُول» و«مأجوج» من «مَفْعُول»[2].

وفي قوله تعالى ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الآية ٩٥] رفع ﴿خَيْرٌ﴾ لأن ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ اسم مستأنف.

وقوله تعالى ﴿فَمَا اَسْطَٰعُوٓاْ﴾ [الآية ٩٧] من «اِسْطَاعَ» «يَسْطِيع» أي «اِسْتَطاع» «يستطيع»؛ وهي لغة عند العرب[3].

وفي قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي﴾ [الآية ١٠٢] جُعِلَت «أَنْ» التي تعمل في الأفعال، فاستغني بها، كما في قوله سبحانه ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا﴾ [البقرة/ ٢٣٠]؛ أو ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ﴾ [الآية ٣٥] استغني هٰهنا بمفعول واحدٍ، لأنّ معنى ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾: ما أظنها أنْ تبيدَ.

وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ فـ «النُّزُلُ» من نزول بعض الناس على بعض[4]. أمّا «النَّزَلُ» فـ «الرَّيْعُ» تقول: «ما لِطَعَامِهِم نَزَلٌ» و«ما وَجَدْنَا عِنْدَهُمْ نَزَلاً».

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ [الآية ١٠٩] أي «مِدَاد يكتب به» ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ١٠٩﴾ كأنّ المعنى: «مَدَدٌ لَكُم» وقال بعضهم أي: جئنا بمثلهِ مِداداً تكتب به. ويعني بالمِدادِ، أنه مدد للمداد يُمَدُّ به ليكون معه.

(١) نقله في الصحاح «خشي»، وزاد المسير ٥/ ١٧٩، وفيه أن الزجاج أفاده.

(٢) في معاني القرآن ٢/ ١٥٩ والسبعة ٣٩٩ والكشف ٢/ ٧٦ والتيسير ١٤٥ الى عاصم، وفي الطبري ١٦/ ١٦ الى الأعرج، أما في البحر ٦/ ١٦٣ فزاد الأعمش ويعقوب في رواية، وكذلك في الأنبياء، وقال إنها لغة بني أسد وقد نقل ذلك في الصحاح «اج ج» والبحر ٦/ ١٦٣ والجامع ١١/ ٥٥.

(٣) نقله في الصحاح «طوع» و«هرق». ونقله في إعراب القرآن ٢/ ٦٢٠.

(٤) نقله في الصحاح «نزل».

وقـــال تـــعـــالـــى: ﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾؛ وذلك نحو قولهم: «بِئْسَ فِي الدَّارِ رَجُلًا».

وفـي قـولـه تـعـالـى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الآيـة ٧٤] قـيـل ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ لأن اللِّقاء كان علّةً للقتل.

وفـي قـولـه تـعـالـى: ﴿هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الآية ٩٨] أي: هـذا الرَّدْمُ رحـمـة من ربي.

لكل سؤال جواب في سورة «الكهف»(*)

إن قيل: قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾ [الآية ٢] يعني مستقيما، وقوله ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١﴾ مغنٍ عن قوله ﴿قَيِّمًا﴾ لأنه متى انتفى العِوَج ثَبُتت الاستقامة، لأنّ العِوَج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد به هنا نفي الاختلاف والتناقض في معانيه، وأنه لايخرج منه شيء عن الصواب والحكمة. وقيل في الآية تقديم وتأخير، تقديره: «الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجاً».

قلنا: قال الفراء: معنى قوله تعالى ﴿قَيِّمًا﴾ قائماً على الكتب السماوية كلها، مصدّقاً لها، شاهداً بصحتها، ناسخاً لبعض شرائعها. فعلى هذا لا تكرار فيه. وعلى القول المشهور، يكون الجمع بينهما للتأكيد سواء أقدْر «قيّماً» مقدّما أو أُقر في مرتبته، ونصب بفعل مضمر تقديره: ولكن جعله قيّماً. ولا بد من هذا الإضمار، أو من التقديم والتأخير، وإلاّ صار المعنى: ولم يجعل له عوجاً مستقيماً، والعوج لا يكون مستقيماً.

فإن قيل: اتّخاذ الله تعالى ولداً محال، فلِمَ قال سبحانه: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الآية ٥]؟ وإنما يستقيم أن يقال فلان ماله علم بكذا، إذا كان ذلك الشيء ممّا يعلمه غيره أو ممّا يصحّ أن يُعْلم، كقولنا زيد ما له علم بالعربية أو بالحساب أو بالشعر، ونحو ذلك.

قلنا: معناه ما لهم به من علم، لأنه ليس ممّا يُعْلم لاستحالته، وهذا لأنّ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

انتفاء العلم بالشيء تارةً يكون للجهل بالطريق الموصل إليه، وتارة يكون لاستحالة العلم به، لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلّق العلم به. وما نحن فيه من هذا القبيل.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ وهو أعلم بذلك في الأزل؟

قلنا: معناه لنعلم ذلك علم المشاهدة، كما علمناه علم الغيب.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ [الآية ١٩] ولم يقل «واحِدَكم»؟

قلنا: لأنه أراد فرداً منهم أيّهم كان، ولو قال «واحدكم» لدلّ على بعث رئيسهم ومقدّمهم، فإن العرب تقول: رأيت أحد القوم: أي فرداً منهم، ولا تقول: رأيت واحداً لقومٍ إلا إذا أرادت المقدّم المعظّم.

فإن قيل: لِمَ جيء بسين الاستقبال في الفعل الأول دون الآخَرَيْنِ في قوله تعالى ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ [الآية ٢٢].

قلنا: أريد دخول الفعلين الآخَرَيْنِ في حكم الأول بمقتضى العطف، فاقْتُصِرَ على ذكر السين في الأول إيجازاً، كما يقال: زيد قد يخرج ويركب، أي وقد يركب.

فإن قيل: لِمَ دخلت الواو في الجملة الثالثة دون الأولَيَيْنِ، وفي قوله تعالى: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الآية ٢٢].

قلنا: قال بعض المفسّرين: هي واو الثمانية، وقد ذكرنا مثلها في آخر سورة التوبة. وقال الزجّاج: دخول هذه الواو وخروجها سواء في صفة النكرة، وجاء القرآن بهما. وقال غيره: الواو مرادة في الجملتين الأوليين، وإنما حُذِفت فيهما تخفيفاً، وأُتي بها في الجملة الثالثة دلالةً على إرادتها فيهما؛ ويردُ على هذا القول: أنه لوكان كذلك لكانت مذكورة في الجملة الأولى، محذوفة في الجملة الثانية والثالثة، ليدل ذكرها أوّلاً على حذفها بعد ذلك كما سبق في سين الاستقبال. وقال الزمخشري وغيره: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفةً للنكرة، كما تدخل على الصفة الواقعة حالاً من المعرفة، تقول: جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف، ومنه قوله تعالى ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾﴾ [الحِجر]، وفائدتها توكيد اتصال الصفة بالموصوف، والدلالة على أنّ اتّصافه

بها أمر ثابت مستقر؛ وهذه الواو هي التي أذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم، قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم، والدليل عليه أن الله تعالى أتبع القولين الأولين قوله ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الآية ٢٢] وأتبع القول الثالث قوله سبحانه ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الآية ٢٢]. وقال ابن عباس: وقعت الواو لقطع العدد: أي لم يبق بعدها عدد يلتفت إليه، ويثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبتات. وقال الثعلبي: هذه واو الحكم والتحقيق، كأنّ الله تعالى حكى اختلافهم، فتمّ الكلام عند قوله سبعة، ثم حكى بأنّ ثامنهم كلبهم باستئنافه الكلام، فحقّق ثبوت العدد الأخير لأن الثامن لا يكون إلا بعد السبعة، فعلى هذا يكون قوله ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الآية ٢٢] من كلام الله تعالى حقيقة أو تقديراً. ويُردّ على هذا، أن قوله تعالى بعد هذه الواو: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الآية ٢٢] وقوله تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الآية ٢٢] يدل على بقاء الإبهام وعدم زوال اللبس بهذه الواو.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الآية ٢٧] وقال في موضع آخر ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل/١٠١] ويلزم من تبديل الآية بالآية، تبديل الكلمات فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: معنى الأول لامغيّر للقرآن من البشر، وهو جواب لقولهم للنبي (ص): ائتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدّله. الثاني: أنّ معناه لا خلف لمواعيده ولا مغيّر لحكمه، ومعنى الثاني النسخ والتبديل من الله تعالى فلا تنافي بينهما.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الآية ٢٩] إباحة وإطلاق للكفر؟

قلنا: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: معناه: فمن شاء ربكم فليؤمن ومن شاء ربكم فليكفر، يعني لا إيمان ولا كفر إلاّ بمشيئته. الثاني: أنّه تهديد ووعيد. الثالث: أنّ معناه لا تنفعون الله بإيمانكم ولا تضرّونه بكفركم، فهو إظهار للغنى، لا إطلاقٌ للكفر.

فإن قيل: لبس الأساور في الدنيا عيب للرجال، ولهذا لا يلبسها من يلبس الذهب والحرير من الرجال، فكيف وعدها الله سبحانه المؤمنين في

الجنة، في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الآية ٣١]؟

قلنا: كانت عادةُ ملوك الفرس والروم لبسَ الأساور والتيجان مخصوصين بها دون مَنْ عداهم، فلذلك وعدها الله تعالى المؤمنين لأنهم ملوك الآخرة.

فإن قيل: لِمَ أُفرِدَ لفظ الجنة بعد التثنية، في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ [الآية ٣٥]؟

قلنا: أفردها ليدل على الحصر، معناه: ودخل ما هو جنته، لاجنة له غيرها ولا نصيب له في الجنة التي وُعِد المتقون، بل ما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد جنةً معينة منهما، بل جنس ما كان له.

فإن قيل: لِمَ قال الأخ المؤمن لأخيه، كما ورد في التنزيل ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ وهذا تعريض بأنّ أخاه مشرك، وليس في كلام أخيه ما يقتضي الشِّرْك، بل الكفر، وهو قوله، كما ورد في القرآن ذلك حكاية عنه ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الآية ٣٦]؟

قلنا: إشراك أخيه الذي عرض له به، هو اعتقاده أنّ زكاة جنّته ونماءها بحوله وقوّته، ولهذا قال له، كما ورد في التنزيل: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الآية ٣٩] ولهذا قال هو أيضاً لمّا أصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها، وهي خاوية على عروشها، كما ورد في القرآن: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ فاعترف بالشرك.

فإن قيل: ما الحكمة في إيراد «أنا» في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ﴾ [الآية ٣٩]؟

قلنا: «أنا» في مثل هذا الموضع تفيد حصر الخبر في المخبر عنه، ومنه قوله تعالى ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه/١٢] وقوله جلّ جلاله ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه/١٤] ونظائره كثيرة.

فإن قيل: ما معنى قوله تعالى ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية ٤٣] وكذلك ما أشبهه مما جاء في القرآن العزيز ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم]، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت] ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ [العنكبوت/٤١]، وكيف تحقيق معناه؟

قلنا: «دون» يستعمل في كلام العرب بمعنى «غير» كقولهم لفلان: مالٌ دون هذا، ومن دون هذا: أي غير هذا. ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون/٦٣] أي من غيره، وتستعمل أيضاً بمعنى «قبل» كقولهم: المدينة دون مكّة: أي قبلها، ومن دونه خرط القتاد. ولا أقوم من مجلسي دون أن تجيء، ولا أفارقك دون أن تعطيَني حقي، وما أعلم أنها جاءت في القرآن العزيز بمعنى «قبل» بل بمعنى «غير» فقط؟

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية ٤٤] يعني في يوم الآخرة أو في يوم القيامة، والولاية بكسر الواو السلطان والملك، وبفتح الواو التولّي والنصرة، وكل ذلك لله تعالى في الدنيا والآخرة؛ يُعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء، وينصر من يشاء، ويخذل من يشاء، ويتولّى من يشاء بحراسته وحفظه، فما الحكمة في تخصيص يوم القيامة؟

قلنا: الحكمة فيه أن الدعاوى المجازية كثيرة في الدنيا ويوم القيامة تنقطع كلّها، ويسلم الملك لله تعالى عن كل منازع، وقد سبق نظير هذا السؤال في سورة الأنعام في قوله تعالى ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام/ ٧٣].

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ أي عاقبة، وغير الله تعالى لا يُثِيبُ ليكون الله خيراً منه ثواباً؟

قلنا: هذا على الفرض والتقدير، معناه: لو كان غيره يُثِيبُ لكان ثوابه أفضل، ولكانت طاعته أحمدَ عاقِبةً وخيراً من طاعة غيره.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ [الآية ٤٧] بلفظ الماضي وما قبله مضارعان، وهو قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الآية ٤٧] أي لا شيء عليها يسترها كما كان في الدنيا؟

قلنا: للدلالة على أن حَشرهم كان قبل التسيير، وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأهوال والعظائم؛ كأنّ المعنى: وحشرناهم قبل ذلك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الآية ٤٩] مع أنه أخبر أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر، بقوله

تعالى ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء/ ٣١].

قلنا: الآية الأولى في حق الكافرين، بدليل قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الآية ٤٩] والمراد بهم هنا الكافرون، كذا قال مجاهد، وقال غيره: كل مجرم في القرآن. فالمراد به الكافر؛ والآية الثانية، المراد بها المؤمنون؛ لأن اجتناب الكبائر لا يكون متحققاً مع وجود الكفر. الثاني: لو ثبت أن المراد بالمجرم مطلق المذنب، لم يلزم التناقض، لجواز أن تكتب الصغائر ليشاهدها العبد يوم القيامة، ثم تكفر عنه، فيعلم قدر نعمة العفو، فإن أكثر ذنوب العبد ينساها، خصوصاً الصغائر.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الآية ٥٠] يدلّ على أنه من الجن، وقوله تعالى في موضع آخر ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الآية ٥٠] يدلّ على أنه من الملائكة، فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: فيه قولان: أحدهما أنه من الجنّ حقيقة، عملاً بظاهر هذه الآية، ولأن له ذرية قال تعالى ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الآية ٥٠] والملائكة لا ذرّية لهم، ولأنه أكْفرُ الكَفَرَة وأفسق الفَسَقَة، والملائكة معصومون عن الكبائر لأنهم رسل الله، وعن المعاصي مطلقاً، لأنهم عقول مجردة بغير شهوة، ولا معصية إلاّ عن شهوة؛ ويؤيّده قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ يعني الملائكة؛ فكيف يكون إبليس منهم ويؤمر بالسجود فيمتنع، فعلى هذا يكون استثناؤه من الملائكة استثناء من غير الجنس؛ أو يكون استثناء من جنس المأمورين بالسجود، لا من جنس الملائكة، ويكون التقدير: وإذ قلنا للملائكة وإبليس اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس؛ كما تقول: أمَرْتُ إخوتي وعبدي بكذا، فأطاعوني إلا عبدي، والعبد ليس من الإخوة ولا داخلاً فيهم إلاّ من حيث شمله الأمر بالفعل معهم، فهذا كذلك. القول الثاني: أنه كان من الملائكة قبل أن

يعصي الله تعالى، فلمّا عصاه مَسَخه شيطاناً. روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، فيكون معنى قوله تعالى ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الآية ٥٠] لمخالفته، فتكون «كان» بمعنى صار. وقيل معناه: أنه كان من الجن في سابق علم الله تعالى؛ وهذان القولان يدلاّن على أنه كان من الملائكة قبل المعصية. وروي عنه أيضاً أنه كان من خُزّان الجنة، وهم جماعة من الملائكة يُسمّون الجن؛ فعلى هذا يكون قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي من الملائكة الذين هم خُزّان الجنة ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية ٥٠] بمخالفته فيكون استثناء من الجنس. وقال الزمخشري في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة/٣٤]: وهو استثناء متصل، لأنه كان جنّيّاً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بهم، فَغُلِّبوا عليه في قوله ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾. قلت: وفي هذا التعليل نظر، ثم قال بعده: ويجوز أن يجعل منقطعاً.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الآية ٥٠] والأولياء: الأصدقاء والأحباب وهم ضد الأعداء، ويؤيّده قوله تعالى ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الآية ٥٠] وليس من الناس أحد يحب إبليس وذريته ويصادقهم؟

قلنا: المراد بالموالاة هنا، إجابة الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصي، ويوسوسون في صدورهم وطاعتهم إيّاهم؛ فالموالاة مجاز عن هذا، لأنه من لوازمها.

فإن قيل: قال تعالى هنا: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ [الآية ٥٢]: أي فلم يُجِبِ الأصنامُ المشركين، فنفى عن الأصنام النطق، وقال تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النحل] يعني فكذّبتهم الأصنام فيما قالوا، فأثبت لهم النطق فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: المراد بقوله تعالى ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الآية ٥٢] أي نادوهم للشفاعة لكم أو لدفع العذاب عنكم، فَدَعَوْهم فلم يجيبوهم لذلك، فنفى عنهم النطق بالإجابة إلى الشفاعة ودَفْع العذاب عنهم. وفي سورة

النحل، أثبت لهم النطق بتكذيب المشركين في دعوى عبادتهم، فلا تناقض بين المنفي والمُثبت.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ وقال في سورة النحل ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾؟

قلنا: قوله تعالى ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ معناه: في زعمكم واعتقادكم، ولهذا قال ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ وأخرجه مُخْرَجَ التهكّم بهم، كما قال المشركون للنبي (ص) وفاقاً، لما ورد في التنزيل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر]، وقوله تعالى ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ يعني آلهتهم التي جعلوها شركاء، فإضافتها إلى الله تعالى لجعلهم إياها شركاء؛ والإضافة تصحّ بأدنى ملابسة لفظية أو معنوية، فصحّت الإضافتان.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الآية ٦١] والناسي إنما كان يوشع وحده، بدليل قوله تعالى ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الآية ٦٣] أي قصة الحوت وخبره ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الآية ٦٣]؟

قلنا: أضيف النسيان إليهما مجازاً، والمراد أحدهما. قال الفرّاء: نظيره قوله تعالى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ [الرحمن] وإنما يخرج من الملح لا من العذب؛ وقيل نسي موسى عليه السلام تفقّد الحوت ونسي يوشع أن يخبره خبره، وذلك أنه كان حوتاً مملوحاً في مِكْتل[1] قد تزوّداه؛ فلما أصابه من ماء عين الحياة رشاش حَيِيَ وانسلّ؛ وكان قد ذهب لقضاء حاجة، فعزم يوشع أن يخبره بما رأى من أمر الحوت، فلما جاء موسى نسي أن يخبره، ونسي موسى تفقّد الحوت، والسؤال عنه.

فإن قيل: هذا التفسير يدلّ على أن النسيان من يوشع، أو منهما، كان بعد حياة الحوت وذهابه في البحر، وظاهر الآية يدل على أن النسيان كان سابقاً على ذهابه في البحر، متّصلا ببلوغ مجمع البحرين، لقوله تعالى ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١﴾.

قلنا: في الآية تقديم وتأخير تقديره:

---

(١) المِكْتَل: القفّة.

فلما بلغا مجمع بينهما اتخذ الحوت سبيله في البحر سرباً، فنسيا حوتهما.

فإن قيل: كيف نسي يوشع مثل هذه الأعجوبة العظيمة في مدة يسيرة بل في لحظة، واستمر به النسيان يومه ذلك وليلته إلى وقت الغداء من اليوم الثاني، ومثل ذلك لا يُنسى مع تطاول الزمان؛ كيف كان ذلك، وقد كان الله تعالى جعل فقدان الحوت علامة لهما على وجدان الخضر (ع)، على ما نقل أن موسى (ع) سأل الله تعالى علامة على موضع وجدانه، فأوحى إليه أن خذ معك حوتاً في مِكْتَلٍ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمّ؟

قلنا: سبب نسيانه أنه كان قد اعتاد مشاهدة المعجزات من موسى (ع) واستأنس بها؛ فكان إلْفُه لمثلها من خوارق العادات، سببا لقلة اهتمامه بتلك الأعجوبة، وعدم اكتراثه بها.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الآية ٧١] بغير فاء؛ و﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الآية ٧٤] بالفاء؟

قلنا: جعل خرقها جزاءً للشرط فلم يحتج إلى الفاء كقولك إذا ركب زيد الفرس عقره، وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء.

فإن قيل: لِمَ خولف بين القصّتين؟

قلنا: لأن خرق السفينة لم يتعقّب الركوب، وقتل الغلام تعقّب لقاءه.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى في قصّة الغلام ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤﴾ وفي قصة السفينة ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ۝٧١﴾؟

قلنا: قيل «إمراً» معناه «نُكراً»، فعلى هذا لا فرق في المعنى، لأن الإِمْر والنُّكْر بمعنًى واحدٍ. وقيل الإِمْر العجب أو الداهية؛ وخرْق السفينة كان أعظم من قتل نفس واحدة، لأن في الأول هلاك كثيرين. وقيل النُكر أعظم من الإمر فمعناه: جئت شيئاً أنكر من الأول، لأن ذلك كان يمكن تداركه بالسدّ، وهذا لا يمكن تداركه.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى في قصة السفينة ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ [الآية ٧٢] وفي قصة الغلام ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ [الآية ٧٥]؟

قلنا: لقصد زيادة المواجهة بالعتاب على رفض الوصيّة مرّة ثانية، والتنبيه على تكرّر ترك الصبر والثبات.

فإن قيل: ما الحكمة في إعادة ذكر

الأهل، في قوله تعالى ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ [الآية ٧٧] بعد أن سبق ذكر الأهل مرّة؟

قلنا: الحكمة فيه، فائدته في إعادة التأكيد.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الآية ٧٧] نسب الإرادة إلى الجماد وهي من صفات من يعقل؟

قلنا: هذا مجاز بطريق المشاهدة، لأنّ الجدار بعد مشارفته ومداناته للانقضاض والسقوط شابَهَ من يعقل، وفي تَهَيُّئِه للسقوط فظهر منه هيئة السقوط كما تظهر ممّن يعقل ويريد، فنسبت إليه الإرادة مجازاً بطريق المشابهة في الصورة، وقد أضافت العرب أفعال العقلاء إلى ما لا يعقل مجازاً؛ قال الشاعر:

يُرِيدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ
وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ

وقال حسّان:

إنَّ دَهْراً يَلُفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ
لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالإِحْسَانِ

ومن أمثالهم «تمرّد ماردٌ وعزّ الأبلقُ»؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف/١٥٤] وقوله جَلَّ شأنه ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد/٢١] وقوله جَلَّ شأنه ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴿١١﴾﴾ [فصلت] ونظائره كثيرة.

فإن قيل: لأي سبب لم يفارقه الخضر (ع) عند الاعتراض الأوّل والثاني، وفارقه عند الثالث؟

قلنا لوجهين: أحدهما أن موسى (ع) شرط على الخضر (ع) ترك مصاحبته على تقدير وجود الاعتراض الثالث، وقد وجد، فكان راضياً به. الثاني، أنّ اعتراض موسى (ع) في المرة الأولى والثانية كان تورّعاً وصلابة في الدين؛ واعتراضه في المرة الثالثة لم يكن كذلك.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الآية ٧٩] علّته خوف الغصب، فكان حقّه أن يتأخّر عن علّته، فلم قُدّم عليها؟

قلنا: هو متأخّر عنه، لأن علة تعييبها أو علّة إرادته تعييبها خوف الغصب وخوف الغصب سابق، لأنه الحامل للخضر (ع) على ما فعله.

فإن قيل: الشمس في السماء

الرابعة، وهي بقدر كرة الأرض مائة وستين مرة، وقيل مائة وخمسين، وقيل مائة وعشرين، فكيف تسعها عين في الأرض، حتى أخبر الله تعالى عن ذي القرنين، أنه وجدها تغرب في عين حمئة؟

قلنا: المراد بقوله تعالى وجدها: أي في زعمه وظنّه؛ كما يرى راكب البحر إذا لَجَّجَ فيه، وغابت عنه الأطراف والسواحل، أن الشمس تطلع من البحر، وتغرب فيه؛ فذو القرنين انتهى إلى آخر البنيان في جهة المغرب فوجد عيناً حمئة واسعة، عظيمة فظنّ أنّ الشمس تغرب فيها.

فإن قيل: ذو القرنين كان نبياً أو تقياً حكيماً على اختلاف القولين، فكيف خفي عليه هذا، حتى وقع في الظنّ المستحيل الذي لا يقبله العقل؟

قلنا: الأنبياء والأولياء والحكماء ليسوا معصومين عن ظنّ الغلط أو الخطأ، وإن كانوا معصومين عن الكبائر. ألا ترى إلى ظن موسى (ع) فيما أنكره على الخضر (ع) في القضايا الثلاث؛ وظنّه أنه يرى الله تعالى في الدنيا وهو من كبار الأنبياء، وكذلك يونس (ع) على ما أخبر الله تعالى عنه، بقوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء/ ٨٧] وكان الواقع بخلاف ظنّه. الثاني: أن الله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس، وتوسيع العين الحمئة وكرة الأرض، بحيث تسع عينُ الماء عينَ الشمس؛ فَلِمَ لا يجوز أن يكون قد وقع ذلك ولم نعلم به لقصور علمنا عن الإحاطة بذلك؟

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ يدل على أنه كان نبياً، لأن الله تعالى خاطبه.

قلنا: من قال إنه ليس نبياً يقول هذا الخطاب له كان بواسطة النبيّ الموجود في زمانه، كما في قوله تعالى ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وما أشبه.

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى في حقّ الكفار: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ أي فلا ننصب لهم ميزاناً، لأنّ الميزان إنّما ينصب لتوزن به الحسنات بمقابلة السيئات، والكافر لا حسنة له، ولا طاعة، لقوله تعالى:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ

﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان] وقوله في موضع آخر ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة] أي فمسكنه النار، فأثبت له ميزاناً.

قلنا: معنى قوله تعالى ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ أي لا يكون لهم عندنا قدر ولا خطر لخسّتهم وحقارتهم؛ ولوكان معناه ما ذكر، ثم يكون المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ من غلبت سيئاته على حسناته من المؤمنين، فإنه يستكين في النار، ولكن لا يخلد فيها، بل بقدر ما يمحّص عنه ذنوبه؛ فلا تنافي بينهما.

المعاني المجازية في سورة «الكهف»(*)

قوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾. وهذه استعارة. لأن حقيقة العِوَج، أن يكون فيما يصح عليه أن ينصابَ أو يميل ويضطرب ويستقيم. وهذه من صفات الأجسام، لا من صفات الكلام.

فنقول: إنّما وصف القرآن ـ والله أعلم ـ بأنه قيّم لا عِوَج فيه، ذهاباً إلى نفي الاختلاف عن معانيه، والتناقض في أوضاعه ومبانيه. وأنه غير ناكِبٍ عن المنهاج، ولا مستمرّ على الاعوجاج.

وقوله سبحانه: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾. ووصف الكلمة ههنا بالكبر استعارة. والمراد أنّ معناها فظيع، وفحواها عظيم. وتقدير الكلام: كَبُرَتِ الكلمةُ كلمةً.

وللنصب هُهنا وجهان: أحدهما أن يكون على تفسير المضمر. مثل قولهم: نِعْمَ رَجُلاً زيدٌ، وبِئْسَ صاحباً عَمْروٌ. والوجه الآخر أن يكون على التمييز في الفعل المنقول، نحو: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الآية ٢٩]، وتصبّب عَرَقاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾. وهذه استعارة. لأن المراد بالْجُرُز هُهنا الأرض التي لا نبات فيها، وذلك مأخوذ من قولهم:

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

ناقةٌ جَرُوز، إذا كانت كثيرة الأكل، لا يكاد لَحْيَاهَا يسكنان من قضم الأعلاف، ونشط[1] الأعشاب. ومن ذلك قولهم: سيف جُراز، إذا كان يَبري المفاصل، ويقُطّ الضرائب.

وإنما سُمّيت تلك الأرض جُرُزاً، إذ كانت كأنّها تأكل نَبْتَها، فلا تدع منه نابغة، ولا تتركُ طالعة. ونظير ذلك قولهم: أرض جدّاء: لا ماء فيها. تشبيهاً بالناقة التي لا لبن فيها، وهي الجدّاء[2].

وقوله سبحانه: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾. وهذه استعارة. لأن المراد بها منع آذانهم من استماع الأصوات، وهمس الحركات. قال بعضهم: وذلك كالضَّرْب على الكتاب لتشكّل حروفه، فتمتنع على القارئ قراءته.

وإنما دلّ تعالى على عدم الإحساس بالضَّرب على الآذان، دون الضرب على الأبصار، لأن ذلك أبلغ في الغرض المقصود، من حيث كانت الأبصار قد يُضربُ عليها من غير عَمًى، ولا يبطُل إدراك بقية الحواس جملة، وذلك عند تغميض الإنسان عينيه. وليس كذلك منعُ الاستماع من غير صمم، لأنه إذا ضرب عليها من غير صَمم، بالنوم الذي هو السهو على صفة، دل ذلك على عدم الإحساس من كل جارحة يصحّ بها الإدارك. ولأنّ الأذن، لمّا كانت طريقاً إلى الأنباء ثم ضرب عليها، لم يكن سبيل إلى الانتباه، فبطل استماعهم. وفي هذا القول بعض التخليط.

والذي أذهبُ اليه في ذلك، هو أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ والله أعلم، أي أخذنا أسماعهم. ويكون ذلك من قول القائل: قد ضَرَب فلانٌ على مالي. أي أخذه وَحَال بيني وبينه، فأما تشبيه ذلك بالضرب على الكتاب حتى تشكل حروفه على المتأمّل، ففيه بُعْدٌ وتعسُّفٌ.

وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد بذلك: وضربناهم على آذانهم، من الضرب الحقيقي، تشبيهاً بمن ضُرب

---

(١) نشطت الدابة العشب: إذا أكلته بسرعة وخفة. وقد نشطت الدابة: أي سمنت.

(٢) الناقة الجدّاء: هي الصغيرة الثدي، أو المقطوعة الأذن، أو التي ذهب لبنها. انظر الفيروز آبادي مادة «جدد».

علـى سـمـاخـه[1]، فـهـو مـوقـوذ[2] مأموم[3]، ومشدوه[4] مغمور.

وقوله سبحانه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية ١٤]. وهـذه استـعـارة: لأنّ الربط هو الشدّ. يقال: ربطت الأسير. إذا شددته بالحبل والقِدّ[5]. والمراد بذلك: شددنا على قلوبهم كما تُشَدُّ الأوعية بالأوْكِيَة[6]، فتنضمُّ على مكنونها، ويُؤْمَنُ التبدّد على ما استودع فيها. أي فَشَدَدْنا على قلوبهم لئلا تنحلَّ معاقد صبرها وتهفو عزائم جَلَدِها. ومن ذلك قولُ القائل لصاحبه: رَبَط الله على قلبك بالصبر.

وقوله سبحانه: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾. وفـي هـذه الآيـة استعارتان: إحداهما قوله تعالى: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ والرحمة هٰهنا بمعنى النعمة. ولم يكن هناك مَطْوِيٌّ فينشر، ولا مكنونٌ فيظهر. وإنّما المراد بذلك: يسبغ الله عليكم نعمته، على وجه الظهور والشُّيوع، دون الإخفاء والإسرار. فيكون ذلك كنشر الثوب المطويّ وإظهار الشيء الخفي، في شُيوع الأمر، وانتشار الذكر. والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾. وأصل المِرْفَق ما ارتفق به. وهو مأخوذ من المرفقة. وهي التي يرتفق عليها، أي يعتمد عليها بالمِرْفَق.

ويقال مِرْفق، ومَرْفِق بمعنًى واحدٍ. وقد قرئ بهما جميعاً بمعنًى واحدٍ. فكأنّ السّياق: يهيئ لكم من أمركم ما تعتمدون عليه وتستندون إليه، ويكون لظهوركم عماداً، ولأعضادكم سنادا.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ [الآية ١٧]. وفـي هـذه الآيـة

(١) السماخ والصماخ واحد. وهو خرق الأذن الباطن الماضي إلى تجويف الرأس.

(٢) الموقوذ: المضروب ضرباً شديداً حتى أشرف على الموت.

(٣) أمّهُ: شَجّهُ، فهو مأموم.

(٤) المشدوه: المشدوخ الرأس.

(٥) القدّ: السّير من الجلد.

(٦) الأوكية: جمع وِكاء، وهو رباط القربة أو ما تُشَدُّ به.

استعارتان: أُولاهما قوله تعالى في ذكر الشمس: ﴿تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ لأنّ التزاور أصله المَيْل، وهو مأخوذ من الزّوْر، وهو الصدر. فكأنه سبحانه قال: إن الشمس تميل عن هذا الموضع، كما يميل المتزاور عن الشيء بصدره ووجهه.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾. وفي ذلك قولان: أحدهما أن يكون المراد أنها تقرضهم في ذات الشمال، أي أنها تجُوزهم عادلةً بمطرح شعاعها عنهم. من قولهم: قرضتُ الشيء بالمقراض إذا قطعته به. والمقراض متجاوز لأجزائه أوّلاً حتى ينتهي إلى آخره. والقول الثاني: أن يكون المراد أنها تعطيهم القليل من شعاعها عند مرّها بهم، ثم تسترجعه عند انصرافها عنهم؛ تشبيهاً بقرض المال الذي يعطيه المعطي ليستردّه، ويقدمه ليرتجعه. ومعنى قرض المال أيضاً مأخوذ من القطع، لأن المقرض يعطي للمقترض شقة من ماله، وقطعة من حاله.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [الآية ٢١]. وهذه استعارة. والمراد ـ والله أعلم ـ وكذلك أطلعنا عليهم. إلا أن في لفظ الإعثار فائدة، وهي مصادفة الشيء عن غير طلب له، ولا إحساس به، وهو «أَفْعَلْنَا» من الإعثار.

وأصله أن الساعي في طريقه إذا صدّ قَدَمَه، أو نكب إصبعَه شيء، ففي الأغلب أنه يقف عليه متأمّلاً له، وناظراً إليه. فكأنه استفاد علم ذلك من غير أن تتقدم معرفتهُ به. ومن ذلك قول القائل لغيره: لأعثُرنَّ عليْكَ بخطيئةٍ فأعاقبك. أي لأقفنّ على ذلك منك.

وعلى هذا قوله سبحانه: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ [المائدة/١٠٧]. أي اطُّلِعَ على ذلك منهما، واستفيد العلم به من باطن أمرهما.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ [الآية ٢٢]. وهذه استعارة لأنّ الرّجم هٰهنا هو القذف بالظّنّ، والقولُ بغير علم. ومن عادة العرب أن تسمي القائل بالظّنّ راجماً وقاذفاً، وتسمي السّابَّ الشاتم، رامياً راجماً.

ويقولون: هذا الأمر غيب مُرَجّم. أي يرمي الناس بظنونهم، ويقدرونه بحسابهم.

ومُرَجَّم إنما جاء لتكثير العمل، كأنه يرمي من هٰهنا، ومن هٰهنا. وإنما سمّي الظّانّ راجماً، لأنه يوجّه الظّنّ إلى غير جهة مطلوبة، بل يظنّ هذا، ويظنّ هذا، كالراجم الذي لا يعلم مواقع أحجاره إذا رمى بها في الجهات. فتارة تقع يميناً، وتارة تقع شمالاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ وهذه استعارة. على أحد التأويلات في هذه الآية. وهو أن يكون المراد بذلك: أننا تركنا قلبه غُفْلاً من السّمات التي تتسم بها قلوب المؤمنين، فتدلّ على زكاء أعمالهم، وصلاح أحوالهم. كقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة/٢٢] وذلك تشبيه بالبعير إذا أُغفل فترك بلا سِمَةٍ يُعرف بها، على عادة العرب في إقامة السّمات مقام العلامات المميّزة بين أموالهم، في الموارد والمراعي، وتعريف الضوالّ.

وفي هذه الآية أقوال أُخر، والقول الذي قدمناه أدخلها في باب الاستعارة. منها أن معنى ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ أي نسبناه الى الغفلة كقول القائل:

أكفرتُ فلاناً، إذا نسبته إلى الكفر، وأبخلتُهُ إذا نسبته إلى البخل.

ومنها أن يكون المراد: سمّيناه غافلاً، بتعرّضه للغفلة، فكأن المعنى: حكمنا عليه بأنه غافل. كما يقول القائل: قد حكمتُ على فلان بأنه جاهل. أي لمّا ظهر الجهل منه، وَجَب هذا القول فيه.

ومنها أن يكون ذلك من باب المصادفة. فيكون المعنى: صادفنا قلبه غافلاً. كقول القائل أحْمَدْتُ فلاناً، أي وجدته محموداً. وذلك يؤول إلى معنى العلم. فكأنّه تعالى قال: علمناه غافلاً. وعلى هذا قول عمرو بن مَعْدِ يكَرِب(١)

(١) عمرو بن معديكرب الزبيدي، كان فارساً من فرسان اليمن، وصاحب غارات مشهورة. وفد على النبي عليه السلام سنة ٩ هـ فأسلم وقومه، ولما توفي النبي ارتدّ عن الإسلام، ثم رجع إليه فحسن إسلامه، وشهد واقعة القادسية وسائر الفتوح. ومن شعره قصيدته التي يقول فيها:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وتوفي سنة ٢١هـ على مقربة من مدينة الرّي.

لبني سليم: (لله درُّكم يا بني سليم! والله لقد قاتلناكم فما أجْبَنّاكُم، وهاجيناكم فما أفحمناكم، وسألناكم فما أبخلْنَاكم) أي لم نصادفكم على هذه الصفات، من الجبن عند النزال، والبخل عند السؤال، والعيّ عند المقال[1].

وعلى ذلك قول نافع[2] بن خليفة الغَنَوي:

سَـألْـنـا فـأحْـمَـدنـا ابـنَ كُـلِّ مُـرَزَّأٍ
جَـوادٍ وأبـخَـلْـنـا ابـنَ كُـلِّ بَـخِـيـلِ

أي وجدنا هذا محموداً، ووجدنا هذا بخيلاً مذموماً.

وفيما علقته عن قاضي القضاة أبي الحسين عبد الجبّار[3] بن أحمد ـ أدام الله توفيقه ـ عند قراءتي عليه كتابه الموسوم «بتقريب الأصول» في أخريات من الكلام في التعديل والتجوير، أنه لو لم يكن الأمر على ما قلناه في إغفال القلب، من أنّ المراد بذلك مصادفته غافلاً؛ وكان على ما قاله الخصوم، من أنه تعالى صدف به عن أمره، وصرفه عن ذكره، لوجب أن يقول سبحانه: «فاتَّبَع هَوَاه». لقول القائل: أعطيته فأخذ، وبسطته فانبسط، وأكرهته فأذلّ. أي كانت هذه الأفعال منه مسببة عن أفعالي به.

لأن هذا وجه الكلام في الأغلب الأعرف. فلما جاء بالواو صار كأنه قال: ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا، واتّبع هواه. لأنه إذا وُجد غافلاً فهو الذي غفل، والفعل حينئذٍ له، ومنسوب إليه.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ

(١) كان مقتضى الترتيب هنا أن يقول: من الجبن عند النزال، والعيّ عند المقال، والبخل عند السؤال، ليصح التقسيم.

(٢) نافع بن خليفة الغنوي شاعر روى القالي قطعة من شعره في «ذيل الأمالي» ص ١١٦، كما ذكر الجاحظ في «البيان والتبيين» أبياتاً من شعره جـ ١ ص ١٧٦, وقد جَهِدتُ ـ بعد جهد العلامة عبد العزيز الميمني ـ في معرفة شيء عنه فلم أوفق. ويقول عنه في «سمط اللآلي»: (ونافع لم أعرفه، ولا ذكره الآمدي) جـ ٣ من السمط ص ٥٥.

(٣) هو أبو الحسين الشافعي المعتزلي. وكان أحد شيوخ المؤلف. قرأ عليه في مجازات القرآن، وفي المجازات النبوية. وكان شيخ الاعتزال في عصره. ويلقب بقاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره. توفي بالرّي سنة ٤١٥. انظر الأعلام للزرِكْلِي، والغدير جـ٤ للأميني ص ١٦٣.

﴿ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾. وفي هذه الآية استعارتان: أولاهما قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ والسرداق هو الفسطاط المحيط به. فَوَصَفَ ـ سبحانه ـ النارَ بالإحاطة والاشتمال فلا ينجو منها ناجٍ، ولا يُطلق منها عانٍ. وذلك كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء] أي حبساً تحصرهم، وطَوْلاً تقصرهم، ومثل قوله سبحانه ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ قوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهمزة] والمؤصدة: المغلقة المطبقة. من قولهم أوصدت الباب وأصّدته[1]. إذا أغلقته وأطبقته. وقرئ: عُمُد وعَمَد. والمراد بقوله سبحانه: ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ مثل المراد في قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ تشبيهاً بتمديد الأخبية والسرادقات بالأطناب، وإقامتها على الأعماد.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ والمرفق: المُتَّكأ، وهو ما يعتمد عليه بالمِرْفَق، ومنه المرفقة وهي المِخَدّة. وذلك نظير قوله سبحانه: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [الرعد/١٨][2] فلما جاء سبحانه بذكر السرادق جاء بذكر المرافق، ليتشابه الكلام.

ورُوِي عن بعضهم أنه قال: معنى مُرْتَفَقاً، أي مجتمعاً، كأنه ذَهَب إلى معنى: وساءت مرافقُه. والمرافقة لا تكون إلا بالاجتماع جماعةً. وهذا القول يُخرج الكلامَ عن حدِّ الاستعارة، فيُدْخلهُ في باب الحقيقة. والوجه الأول أقوى. ويشهد له قوله سبحانه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ فجاء بذكر الارتفاق لـمّا قدّم ذكر الاتكاء. وهذا أوضح مشاهد.

وقوله سبحانه: ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الآية ٣٣]. وهذه استعارة. لأن الظلم هُهُنا ليس على أصله في اللغة، ولا على عرفه في الشريعة. لأنه في اللغة اسم لوضع

---

(١) ويقال أيضا آصد الباب على وزن أفعل مثل أشّد بالتضعيف.

(٢) في سورة آل عمران، قوله تعالى ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ فالآيتان متشابهتان إلا في «ثم» بدلاً من الواو.

الشيء في غير موضعه. وفي الشريعة اسم للضرر المفعول، لا على وجه الاستحقاق، ولا فيه استجلاب نفع، ولا دَفْع ضرر.

والمراد بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أي لم تَمْنع منه شيئاً. وإنما حسُن أن يعبَّر عن هذا المعنى باسم الظلم، من حيث كان ثمرُ تلك الجنة التي هي البستان كالمستحقّ لمالكها. فإذا أَخَذ حقه على كماله وتمامه حَسُن أَن يُقال: إنها لم تظلم منه شيئاً. أي لم تمنع منه مستحقاً، فتكون في حكم الظالم إذ أضرّت بمالكها في نقصان زروعها، وإخلاف ثمارها. ومما يقوّي ذلك قوله سبحانه: ﴿ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾. أي أعطت أكلها. فلما جاء بلفظ الإعطاء حَسُن أن يجيء بلفظ الظلم. ومعناه هٰهنا المنع. فكأنه تعالى قال: أعطت ما استحقّ عليها، ولم تمنع منه شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الآية ٥٦] وهذه استعارة. وأصل الدّحْض الزّلَق. ومكانٌ دَحِضٌ: أي مزلق. فكأنه سبحانه قال: لِيُزِلُوا الحقّ بعد ثباته، ويُزيلُوه عن مستقرّاته. فيكون كالكسير بعد قوته، والمائل بعد استقامته.

وقوله سبحانه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الآية ٥٧]. وهذه استعارة. لأنّ المراد بذكر اليدين هٰهنا ما كسبه الإنسان من العمل الذي يجرّ العقاب، ويوجب النَّكال. ومثله في القرآن كثير. كقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران/١٨٢]. وذلك على طريقة للعرب معروفة. وهو أن يقولوا للجاني المُعَاقَب: هذا ما جَنَتْ يداك. وهذا ما كسبت يداك. وإن لم تكن جنايته عملاً بيد، بل كانت قولاً بفم. لأن الغالب على أفعال الفاعلين أن يفعلوها بأيديهم، فحُمِل الأمرُ على الأعرف، وخرج على الأكثر؛ وعلى هذا المعنى تسمّى النعمة يداً، لأن المنعم في الأغلب يُعطي بيده ما يُنعم به، وإن لم يقع ذلك في كل حال، وإنما الحُكْم للأظهر، والقول على الأكثر.

وقوله سبحانه: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الآية ٧٧] وهذه استعارة. لأن الإرادة على حقيقتها لا تصح على الجماد. والمعنى: يكاد أن ينقضّ، أي يقارب أن ينقضّ. على

التشبيه بحال من يُريد أن يفعل في الباني، لأنه لما ظهرت فيه أمارات الانقضاض، من ميل بعد انتصاب، واضطراب بعد ثبات، حَسُنَ أن يطلق عليه إرادة الوقوع، على طريق الاتساع.

وترِدُ في كلامهم «كاد» بمعنى «أراد»، «وأراد» بمعنى «كاد». وجاء في القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف/٧٦] أي أردنا ليوسف.

وقوله سبحانه. ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه/١٥] معناه ـ على أحد الأقوال ـ أريد أخفيها. ومما ورد في أشعارهم شاهداً على ذلك، قول عمر بن أبي ربيعة:

كادت وكدتُ، وتلك خير إرادة
لو عاد من لهو الصَّبابة ما مضى[(١)]

فقال: وتلك خير إرادة، والإشارة إلى كادتْ، وكدتُ.

وأوضح من هذا قول الأفوه الأودي[(٢)]:

فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتَادٌ وَأَعْمِدَةٌ
وَسَاكِنٌ بَلَغُوا ٱلأَمرَ ٱلذي كَادُوا

أي الذي أرادوا.

---

(١) هذا البيت لم ينسب لقائله في «شرح شواهد الكشاف» المسمى «تنزيل الآيات، على الشواهد من الأبيات» للعلامة محب الدين أفندي، ولم ينسبه القرطبي لأحد وإنما نقل عن الأنباري قوله: وشاهد هذا قول الفصيح من الشعر. انظر «جامع أحكام القرآن» جـ١١ ص١٨٤.

(٢) هو صلاءة بن عمرو بن مالك. وهو شاعر يماني جاهلي اشتهر بالسيادة والقيادة. وهذا البيت من قصيدة مشهورة يقول فيها:

لا يصلح الناس فوضى لاسراةَ لهم ... ولا سراةَ إذا جهالهم سادُوا

وقبل بيت الشاهد هذا البيت:

والبيت لا يُبْتَنَى إلاّ له عُمُدٌ ... ولا عِمَادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ

وقد نسبه صاحب «شواهد الكشاف» للراقدة الأودي، وهو تحريف مطبعي، لأن مِثْلَ هذا لا يخفى على العلامة محبّ الدين.

(٣) لم ينسب هذا البيت لقائله في «جامع أحكام القرآن» جـ١١ ص ٢٦، وكذلك لم ينسبه ابن مطرف الكناني في كتابه «القرطين» طبع الخانجي ص ٢٦٩، واكتفى بما أنشده السجستاني عن أبي عبيدة. وكذلك لم ينسبه ابن قتيبة في «تأويل مشكل القرآن» ولا «لسان العرب». وأبو براء هو عامر بن مالك، ولقبه مُلاعِب الأسِنَّة. وترى أخباره في «الشعر والشعراء» لابن قتيبة صفحات ٢٣١، ٢٣٥، ٢٩٥، ٣٤٠، ٣٤١.

فأمّا قول الشاعر[٣]:

يُـريـد الـرُمْـحُ صَـدْرَ أَبـي بَـراءٍ
وَيَـرْغَـبُ عَـن دِمَـاءِ بَـنِـي عـقـيـلِ

فليس يصح حمله على مقاربة الفعل، كما قلنا في قوله سبحانه: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ لأنه لا يستقيمُ على الكلام أن يقول: يكاد الرمح صدر أبي براء. وإنما ذلك على سبيل الاستعارة، لأن صاحب الرمح إذا أراد ذلك كان الرّمح كأنه مُريد له. فأما قول الراعي يصف الإبل:

فِـي مَـهْـمَـهٍ قُـلِـقَـتْ بِـهِ هَـامَـاتُـهـا
قَـلَـقَ الـفُـؤُوس إذا أرَدْنَ نُـصُـولا[١]

فإنه بمعنى مقاربة الفعل، لأنّ الفؤوس إذا فلقت في نُصبها قاربت أن تسقط، فجعل ذلك كالإرادة منها. والنُّصُول هٰهنا مصدر نَصَلَ نُصُولاً، مثل وقع وقوعاً. وهذا البيت من أقوى الشواهد على الآية.

وقوله سبحانه: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الآية ٩٩] وهذه استعارة. لأنّ أصل المَوَجان من صفات الماء الكثير؛ وإنما عبَّر سبحانه بذلك عن شدة اختلافهم، ودخول بعضهم، في بعض لكثرة أضدادهم، تشبيهاً بموج البحر المتلاطم، والتفاف الدّبا[٢] المتعاظل.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الآية ١٠١]. وهذه استعارة. وليس المراد، أن عيونهم على الحقيقة كانت في غطاء يسترها، وحجاز يحجزها. وإنما المعنى: أنّهم كانوا ينظرون فلا يعتبرون، أو تُعْرَض لهم العبر فلا ينظرون. ومن الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِي﴾ لأن الأعين لا توصف بأنها في غطاء عن ذِكْر الله تعالى، لأن ذلك من صفات ذوي العيون. وإنما المراد، أنّ أعينهم كانت تذهب صفحاً عن مواقع العبر، فلا يفكّرون فيها، ولا يعتبرون بها، فيذكرون الله سبحانه عند إجالة أفكارهم، وتصريف خواطرهم. وهذا من غرائب القرآن وعجائبه، وغوامض هذا الكلام ومَناسبه.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي

---

(١) لم ينسب هذا البيت لقائله في القرطبي جـ١١ ص ٢٦.

(٢) الدَّبا: الجراد الصغير، أو النمل. والمتعاظل: المتراكب بعضه في بعض وفي المعجم الوسيط: الدَّبى بالألف المقصورة.

﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ وهذه استعارة. أصل الضّلال ذهاب القاصد عن سُنَنِ طريقه.

فكأنَّ سعيهم لمّا كان في غير الطريق المؤدّية إلى رضا الله سبحانه، حَسُن أن يُوصَفَ بالضّلال، والعدول عن سنن الرشاد.

وقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾. وفي هذه الآية استعارتان إحداهما قوله سبحانه: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ﴾ وتأويل لقائه هٰهنا على وجهين: أحدهما أن يكون فيه مضاف محذوف. فكأنه تعالى قال: ولقاء ثوابه وعقابه، أو جنّته وناره. والوجه الآخر أن يكون معنى ذلك رجوعهم إلى دارٍ لا أمر فيها لغير الله سبحانه. فيصيرون إليها، من غير أن يكون لهم عنها محيص، أو دونها محيد. وذلك مأخوذ من مقابلتك الشيء من غير أن تصرف عنه وجهك يميناً ولا شِمالاً.

يقول القائل: لقيتُ فلاناً. أي قابلته بجملتي. وتقول: داري تلقاء دارِ فلان. أي مقابلتها. فكانت كل واحدة منهما كالمقبلة على الأخرى. فلمّا كان لا أحد يوم القيامة يستطيع انصرافاً عن الوجهة التي أمَر الله سبحانه بجمع الناس إليها، وحشرهم نحوها، سُمّي ذلك لقاء الله سبحانه على السّعة والمجاز.

والاستعارة الأخرى قوله سبحانه: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ والمراد بذلك ـ والله أعلم ـ أنّا لا نجد لهم أعمالاً صالحة تثقل بها موازينهم يوم القيامة. والميزان إذا كان ثقيلاً سُمّي مستقيماً، وقائماً. وإذا كان خفيفا سُمّي عادلاً، ومائلاً.

وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أنهم لا اعتداد بهم، ولا نباهة لذكرهم في يوم القيامة. كما يقال في التحقير للشيء: هذا لا وزن له ولا قيمة. وكما تقول: فلان عندي بالميزان الراجح، إذا كان كريماً عليك، أو حبيباً إليك.

سورة مريم

١٩

أهداف سورة «مريم»(*)

سورة مريم سورة مكية نزلت بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة وقبل الإسراء. وكانت الهجرة إلى الحبشة في السنة السابعة من البعثة، وكان الإسراء في السنة الحادية عشرة للبعثة، قبل الهجرة إلى المدينة بسنة وشهرين.

أي أن سورة مريم نزلت بعد السنة السابعة من البعثة، وقبل السنة الحادية عشرة.

وقد سميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر قصة مريم فيها، وعدد آياتها: ٩٨ آية، وعدد كلماتها: ١١٩٢ كلمة.

أهداف السورة

الأهداف الأساسية لسورة مريم: تنزيه الله عن الولد والشريك، وإثبات وحدانية الله، والإلمام بقضية البعث القائمة على التوحيد.

هذه هي الأهداف الأساسية للسورة. كالشأن في السور المكّية غالباً، والقَصَص هو مادة هذه السورة. فهي تبدأ بقصّة زكريا ويحيى (ع)، فقصّة مريم ومولد عيسى (ع)، فَطَرَف من قصة إبراهيم (ع) مع أبيه.. ثم تعقبها بإشارات إلى النبيّين: إسحاق ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وآدم، ونوح؛ ويستغرق هذا القَصَص حوالى ثلثي السورة، ويستهدف إثبات الوحدانيّة والبعث، ونفي الولد والشريك وبيان منهج المهتدين ومنهج الضالين من أتباع النبيين.

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

ومن ثم بعض مشاهد القيامة، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث، واستنكارٌ للشرك ودعوى الولد، وعرضٌ لمصارع المشركين والمكذّبين في الدنيا وفي الآخرة، وكلّه يتناسق مع اتجاه القَصَص في السورة، ويتجمّع حول محورها الأصيل.

«وللسورة كلّها جوٌّ خاصٌ يظلّلُها ويَشيع فيها ويتمشّى في موضوعاتها». إنّ سياق هذه السّورة معرض للانفعالات والمشاعر القوية، الانفعالات في النفس البشرية، وفي «نفس» الكون من حولها. فهذا الكون الذي نتصوّره جماداً لا حِسّ له، يُعْرض في السياق ذا نفس وحسّ ومشاعر وانفعالات، تشارك في رسم الجوّ العامّ للسورة، حيث نرى السماوات والأرض والجبال تغضب وتنفعل، حتى لتكاد تنفطر وتنشقّ وتنهدّ، استنكاراً:

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾.

«أما الانفعالات في النفس البشرية، فتبدأ مع مُفْتَتَحِ السورة وتنتهي مع ختامها. والقَصَص الرئيس فيها حافل بهذه الانفعالات في مواقفه العنيفة العميقة، وبخاصة في قصة مريم وميلاد عيسى» (ع).

القَصص في سورة مريم

القصص في سورة مريم امتداد للقَصَص في سورة الكهف. فهناك ظهرت قدرة الله البالغة في حفظ أصحاب الكهف وإحيائهم بعد موتهم، وفي إعطاء الرحمة والعلم للخضر عليه السلام، وفي منح ذي القرنين أسباب الملك والسلطان والسيادة؛ وهنا تظهر رحمةُ الله وفضله على زكريّا، إذ يمنحه يحيى على كِبَرٍ وشيخوخة، وتظهر قدرةُ الله البالغة في خلق عيسى من أم دون أب، ثم نعمتهُ السابغة على الأنبياء والرسل ورعاية الله لهم حتّى يؤدوا رسالتهم. ويظهر ذلك في قصة إبراهيم مع أبيه، وقصة موسى مع قومه، وقصة إسماعيل الصادق الوعد، وقصة إدريس الصِّدِّيق النبيّ.

ذُكرت حلقة من هذه القصة في سورة آل عمران، ولكنها في سورة مريم تخالف ماسبق منها في أسلوبها وسياقها، وما فيها من زيادة ونقص.

إنّ السِّمَة الغالبة هنا، سمةُ الرحمة والرِّضا والاتصال، فهي تبدأ بذكر

رحمة الله لعبده زكريا، وهو يناجي ربه نجاء خفيا.

فتَصوَّر أحاسيس ذلك الشيخ الهرم ورغبته في الذُرِّيّة والولد ودعاءه لله خِفْيَة، بعيداً عن زوجته وعن الناس.

ثم تَرَسَّم لحظة الاستجابة في رعايةٍ وعطفٍ ورضًى. فالله ينادي عبده من الملأ الأعلى ﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾، ويُعَجِّل له البشرى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾.

ويغمره بالعطف فيختار له اسم الغلام الذي بشّره به ﴿ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [الآية ٧]. وهو اسم فَذّ غير مسبوقٍ: ﴿لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾.

وكأنما أفاق زكريّا، من غمرة الرغبة وحرارة الرجاء، على هذه الاستجابة القريبة للدعاء، فإذا هو يواجه الواقع: إنه رجلٌ شيخٌ، بَلَغَ من الكِبَر عِتِيّاً، ووَهَنَ عَظْمُهُ واشتعل شيبه، وامرأته عاقر لم تلد في فتوّته وصباه: فكيف سيكون له غلام؟

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ۝٨﴾.

ثم يأتيه الجواب عن سؤاله: بأنّ هذا أمر هيّن يسير أمام قدرة الله، فهو سبحانه الخالق الفعّال لِما يريد. وهو سبحانه الذي جعل العاقر لا تَلِدُ. وجعل الشيخ الفاني لا يَنْسُلُ. وهو قادر على إصلاح العاقر، وإزالة سبب العُقْم، وتجديد قوّة الإخصاب في الرجل، وهو على كلّ شيء قدير.

وتمّت ولادة يحيى، وكَبِرَ وترعرع، وأحكم الله عقله، وهيّأه لرعاية ميراث أبيه في حزم وعزم؛ ولم يكن هذا الميراث مالاً أو عقاراً، وإنما كان رسالة الهدى، ودعوة الإيمان؛ وناداه الله سبحانه:

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [الآية ١٢].

والكتاب هو التوراة كتاب بني إسرائيل من بعد موسى (ع)، وعليه كان يقوم أنبياؤهم، يعملون به ويحكمون. وقد نودي يحيى (ع) ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم. لا يَضْعُفُ ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة.

وقد زود الله يحيى بالحكمة في صباه، ووَهَبه الحنان والعطف لتأليف القلوب واجتذابها إلى الخير، وآتاه الطهارة والتقوى فكان موصولاً بالله،

عابداً له، مجاهداً في سبيله، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ولا يخشى في الله لومة لائم.

حكمة خَلْق عيسى (ع)

انتقلت السورة من قصّة ميلاد يحيى (ع) إلى قصّة ميلاد عيسى (ع) وقد تدرّج السياق من القصة الأولى، وَوَجْهُ العَجَب فيها ولادة العاقر من بعلها الشيخ، إلى الثانية، ووجه العجب فيها ولادة العذراء من غير بعل، وهي أعجب وأغرب.

وإذا نحن تجاوزنا حادث خلق الإنسان أصلاً، وإنشائه على هذه الصورة؛ فإن حادث ولادة عيسى بن مريم يكون أعجبَ ما شَهِدته البشرية في تاريخها كله، ويكون حادثاً فذّاً لا نظير له من قبله ولا من بعده.

والبشرية لم تشهد خَلْق نفسها. وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها. إنها لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب ولا أم. وقد مضت القرون بعد ذلك الحادث، فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية، في مولد عيسى من غير أب، على غير السُّنّة التي جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض، ليشهدها البشر، ثمّ تظلّ في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذّة، تتلفّت إليها الأجيال، إن عزّ عليها أن تتلفّت إلى العجيبة الأولى، التي لم يشهدها إنسان!

لقد جرت سُنّةُ الله في امتداد الحياة، بالتناسل من ذكر وأنثى في جميع الفصائل بلا استثناء.

حتى المخلوقات التي لا ذَكَرَ منها وأنثى، تتجمّع في الفرد الواحد منها خلايا التذكير والتأنيث. جرت هذه السُّنّةُ أحقاباً طويلة حتى استقرّ في تصوّر البشر أن هذه هي الطريقة الوحيدة، ونَسُوا الحادث الأوّل. حادث وجود الإنسان، لأنه خارج عن القياس. فأراد الله سبحانه أن يضرب لهم مثل عيسى بن مريم (ع) ليذكّرهم بحرّيّة القدرة وطلاقة الإرادة، وأنها لا تحتبس داخل النواميس التي تختارها؛ ولم يتكرر حادث عيسى (ع)، لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله، وأن ينفذ الناموس الذي اختاره. وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية مَعْلَماً بارزاً على حرّيّة المشيئة، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس:

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الآية ٢١].

ونظراً لغرابة الحادث وضخامته، فقد عزّ على فِرَقٍ من الناس أن تتصوّره على طبيعته، وأن تدرك الحكمة في إبرازه. فجعلت تضفي على عيسى بن مريم (ع)، صفات الألوهية، وتعكس الحكمة من خلقه على هذا النحو العجيب، وهي إثبات القدرة الإلهية المطلقة، تعكسها فتشوّه عقيدة التوحيد. والقرآن في هذه السورة، يقصّ كيف وقعت هذه العجيبة ويبرز دلالتها الحقيقية، وينفي تلك الخرافات والأساطير.

قصة ميلاد عيسى (ع)

وهب الله مريم التقوى واليقين، ورَزَقَها من فضله بغير حساب. وفي يومٍ مًا اعتكفت مريم كعادتها. وتوارت منْ أهلها، واحتجبت عن أنظارهم.

وبينما هي في خلوتها، مطمئنة إلى انفرادها، ظَهَر أمامها رجل مكتمل سويّ الخِلْقة، فانتفضت انتفاضة العذراء المذعورة يَفْجَأُها رجل في خلوتها، فتلجأ إلى الله تستعيذ به، وتستنجد، وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل، والخوف من الله، والتحرّج من رقابته في هذا المكان الخالي. ولكنّ الرجل السّوِيّ هَدَّأَ من رَوْعها، وأعاد اليها طمأنينتها، وأخبرها أنه مَلاكٌ أرسله الله إليها، لحكمة إلْهية، وفضل رباني:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾.

وتدرك مريم شجاعة الأنثى المهدّدة في عرضها! فتسأل في صراحة وحجّة:

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ٢٠﴾.

فهي لم تخالط رجلاً في نِكاحٍ ولا في سِفاح. فأخبرها الملاك، أنّ هذا الحمل سيكون بقدرة الله وحده، وهو أمر هيّن أمام هذه القدرة التي تقول للشيء كن فيكون. وقد أراد الله سبحانه أن يجعل هذا الحادث آية للناس، وعلامة على وجوده وقدرته وحرّيّة إرادته.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ٢١﴾.

ثم مضى الملاك واختفى. وتـ الحمل بقدرة الله، وجَلَست مريم حائر

تفكّر في أمر نفسها، وتخيّلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها بعل؛ وفي حدّة الألم ومرارة الخوف نظرت إلى الطفل في حسرة واكتئاب، وجعلت تتمنّى لو ضمّها القبر وفارقت العالم، قبل أن تصير أمّاً من غير أن تتزوّج، فقالت كما ورد في التنزيل:

﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾.

ولكنها ما لبثت أن سمعت صوت وليدها، فبدّد مخاوفها، وكفكف دموعها، وناداها من تحتها كما روى القرآن ذلك، حكاية عنه:

﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾.

أي جدولاً يجري ماؤه في تلك البقعة الجرداء، والأرجح أنه جرى للحظته من ينبوع، أو تدفّق من مسيل ماء في الجبل. وهذه النخلة التي تستندين إليها هزّيها فتتساقط عليك رُطَباً. فهذا طعام وذاك شراب، والطعام الحلو مناسب للنُّفساء. والرُّطَب والتَّمر من أجود طعام النُّفساء:

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ [الآية ٢٦] هنيئاً ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [الآية ٢٦].

واطمئني قلباً، لِما ترين من قدرة الله التي اخضَرَّ بها جذع النخلة اليابسة. وطيبي نفساً بما حباك الله من جريان الماء في تلك البقعة المقفرة. واطمأنت مريم إلى فضل الله، وأنّه لن يتركها وحدها، أنّ حُجّتها معها، هذا الطفل الذي ينطق في المهد.

ورَجَعَت مريم إلى قومها وعشيرتها تحمل ولدها على كتفها، وسرعان ما شاع أمرها، وعرف خبرها. وجاء أقاربها يؤنبونها بألسنة التقريع والتأنيب، ويلومونها على هذه الفعلة المنكرة، ويذكّرونها بشرف أسرتها وكرم أصلها. والتزمت مريم الصمت، وأشارت إليهم أن كلّموا هذا الوليد، إن أردتم الوقوف على حقيقة الأمر:

﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾؟

كيف نكلم وليداً، لم تكتمل أدوات نطقه. ولم تتحرّك شفته إلى ثدي أمه؟

فانطلق الوليد يجيبهم في بيان وحجّة وبرهان:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾.

وهكذا يعلن عيسى (ع) عبوديّته لله سبحانه. فليس هو ابنه كما تقول فِرقة، وليس هو إلٰهاً كما تقول فرقة، وليس هو ثالث ثلاثة كما تقول فرقة ثالثة؛ ويعلن أن الله جعله نبيّاً لا ولداً ولا شريكاً، وأن الله أوصاه بالصلاة والزكاة مدّة حياته.

أسلوب القرآن

نُحسّ في كلمات هذه السورة السهولة واليسر، والرضا واللطف، فهي كلمات معبّرة عن معانيها؛ فمعاني السورة تدور حول فضل الله على زكريّا ومريم، وغيرهما من الأصفياء.

ويتمثّل الرِّضا والسلاسة واليسر في معاني السورة، كما يتمثّل في ألفاظها وفواصلها، وهي: رَضِيّاً، سَرِيّاً، حَفِيّاً، نَجِيّاً...

فأمّا المواضع التي تقتضي الشدّة والعنف، فتجيء فيها الفاصلة مشدّدة على حرف الدال في الغالب: مَدّاً، ضِدّاً، إدّاً، هَدّاً، أو زاياً: عِزّاً، أزّاً، رِكْزاً.

ويتنوّع الإيقاع والفاصلة بتنوّع الجو والموضوع في هذه السورة، فهي تبدأ بقصّة زكريّا ويحيى، فتسير الفاصلة والقافية هكذا:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣﴾ وتليها قصّة مريم وعيسى فتسير الفاصلة على النظام نفسه:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾.

إلى أن ينتهي القَصَص، ويجيء التعقيب، لتقرير حقيقة عيسى بن مريم، وللفصل في قضية بُنُوّته، فيختلف نظام الفواصل. تطول الفاصلة وتنتهي بحرف الميم أو النون المستقرّ الساكن، وكأنّما الآيات تعبّر عن حُكْم بعد نهاية القصّة، مستمدٌّ منها؛ ولهجةَ الحكم تقتضي أسلوباً تعبيريّاً غير أسلوب الاستعراض، وتقتضي ايقاعاً قويّاً رصيناً، بدل إيقاع القصّة الرضيّ المسترسل، فيقول سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾.

حتى إذا انتهى التقرير والفصل وعاد السياق إلى القَصَص، عاد الإيقاع الرّضي المديد:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾.

حتّى إذا جاء ذكر المكذّبين، وما ينتظرهم من عذاب وانتقام، تغيّر الإيقاع والجرس:

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ﴿٧٥﴾﴾.

وفي موضع الاستنكار، يشتدُّ الجَرْس والنَّغَم بتشديد الدّال:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾.

وهكذا يسير الإيقاع في السورة وفق المعنى والجو، ويشارك في إبقاء الاسلوب الذي يتناسق مع المعنى في ثنايا السورة، وفق انتقالات السياق من فكرة إلى فكرة، ومن معنًى إلى معنًى.

المعالم الرئيسة في السورة

يمكننا أن نلمح ثلاث مجموعات رئيسة في سورة مريم:

المجموعة الأولى: تتضمّن قصّة زكريّا ويحيى، وقصّة مريم وعيسى، والتعقيب على هذه القصّة بالفصل في قضيّة عيسى التي كَثُر فيها الجَدَل، واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى.

المجموعة الثانية: تتضمّن حلْقة من قصّة إبراهيم مع أبيه وقومه، واعتزاله لملّة الشّرك، وما عَوَّضه الله من ذرية نسلت بعد ذلك أمّة. ثمّ أشارت إلى قصص النبيّين، ومن اهتدى بهم ومن خلفهم من الغواة، ومصير هؤلاء وهؤلاء؛ وتنتهي بإعلان الربوبية الواحدة التي تُعْبد بلا شريك:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾.

والمجموعة الثالثة والأخيرة: تبدأ بالجدل حول قضية البعث، وتستعرض

بعض مشاهد القيامة، وتعرض صورة من استنكار الكون كلّه لدعوى الشرك. وتنتهي بمشهد مؤثر عميق، من مصارع القرون:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [الآية ٧٤].

أي أمة من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل.

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

وقد جاء تفسير الطبري لهذه الآية الأخيرة من سورة مريم بما معناه:

يقول تعالى ذِكْرُهُ: وكثيراً أهلكنا يا محمّد، قبل قومك من مشركي قريش ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ يعني من جماعة من الناس، إذ سلكوا سبيل المعاصي والشرك:

﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾.

يقول فهل تحس أنت منهم أحداً يا محمّد، فتراه وتعاينه ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

يقول أو تسمع لهم صوتاً، بل بادوا وهلكوا وخلت منهم دورهم، وأوحشت منهم منازلهم، وصاروا إلى دارٍ لا ينفعهم فيها إلاّ صالحٌ مِنْ عملٍ قدّموه؛ فكذلك قومك هؤلاء صائرون إلى ماصار إليه أولئك، إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك.

وهكذا تنتهي سورة مريم، بعد تقرير قدرة الله الفائقة، وحكمته البالغة في خلق يحيى وخلق عيسى (ع)، وتقرير قدرته سبحانه على البعث والحشر والحساب والجزاء، ومكافأة المؤمنين ومعاقبة المعتدين.

ترابط الآيات في سورة «مريم»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة مريم بعد سورة فاطر. ونزلت سورة فاطر بعد تِسْعَ عَشْرَةَ سورة من سورة النجم، وسيأتي أنّ سورة النجم نزلت عقب الهجرة الأولى للحبشة، وقد كانت الهجرة إلى الحبشة في السنة السابعة من البعثة، فتكون سورة مريم من السور التي نزلت بين هذه الهجرة وحادثة الإسراء.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لذكر قصة مريم فيها، وتبلغ آياتها ثماني وتسعين آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة، ذِكْرُ نُتَفٍ من قصص بعض الرسل للعظة والقدوة، تتميماً لما ورد من ذلك القَصَص العجيب في سورة الكهف، وتقريراً لما ورد في ختامها من أن كلمات الله في ذلك لا نفاد لها، ولهذا ذكرت سورة مريم بعد سورة الكهف.

وقد ذُيِّلَتْ قِصَصُ أولئك الرسل ببيان انحراف أتباعهم عن سُنَّتِهم، وما يستحقون من الجزاء على انحرافهم.

نتف من قصص بعض الرسل الآيات [١ ـ ٥٨]

قال الله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ فذكر ست قِصَص من قصص الرسل:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

الأولى قصّة زكريّا وابنه يحيى، وقد سَبَقَ ورودها في سورة آل عِمران، وهي تخالف ما سبق منها في أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة ونقص، وقد ختمت بقوله تعالى في يحيى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴿١٥﴾﴾.

والثانية قصّة مريم وابنها عيسى، وقد سبقت أيضاً في سورة آل عمران، وهي تخالف ما سبق منها في أسلوبها وسياقها، وما فيها من زيادة ونقص؛ وقد ذكر سبحانه أن ماقصّه فيها من أنّ عيسى عَبْدُه لا ابنه، هو الحقّ؛ وأَمَرَهُم تعالى أن يعبدوه وحده ولا يتّخذوا له شريكاً من وَلَدٍ أو غيره، ثم أوعدهم على ذلك بما أوعدهم به، وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضيَ الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴿٤٠﴾﴾.

والثالثة قصة إبراهيم مع أبيه، وقد سبقت في سورة الأنعام، وهي تخالف ماسبق من جهة أسلوبها وسياقها وما فيها من زيادة ونقص، وقد ذكر في آخرها أنه حين اعتزل قومه وما يعبدون من دونه وهب له سبحانه، إسحاق ويعقوب، وكلاً جعله نبياً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴿٥٠﴾﴾.

والرابعة قصّة موسى، وقد ذكر فيها أنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيّاً، وأنه ناداه من جانب الطور الأيمن، وقَرّبَهُ نجيّاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴿٥٣﴾﴾.

والخامسة قصّة إسماعيل، وقد ذكر فيها أنه كان صادق الوعد، وكان رسولا نبيّاً ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴿٥٥﴾﴾.

والسادسة قصّة إدريس، وقد ذكر فيها أنه كان صديقاً نبيّاً، وأنه رفعه مكاناً عليّاً.

ثم أثنى عليهم عموماً، بعد أن أثنى على كل واحد بخصوصه، فقال جلّ وعلا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩﴿٥٨﴾﴾.

انحراف خَلَفِهم عن سُنَنهم
الآيات [٥٩ ـ ٩٨]

ثم قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ

﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ فذكر سبحانه، أنّه خَلَفَ من بعد هؤلاء الرسل خَلْفٌ انحرفوا عن سُنَنِهِمْ فأضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات، وأنّهم سوف يلقون جزاء غيهم، واستثنى من تاب منهم وآمن بالنبي (ص) ووعدهم بأنهم يدخلون الجنة إلخ؛ ثم ذكر جلّ جلاله أنهم لا يتنزّلون فيها إلاّ بأمره، لأنه مالك كلّ شيء ممّا بين أيديهم وما خلفهم وما بين ذلك، وما كان لينسى إحسان المحسن وإساءة المسيء فلا يجازيهما عليهما؛ ثم ذكر بمناسبة هذا إنكارهم للمعاد الذي يكون فيه الثواب والعقاب، لاستبعادهم إحياء الانسان بعد موته. وأجابهم بأنه خلق الإنسان من قبل موته ولم يك شيئاً، فهو قادر على إعادته بعد موته من بابٍ أَوْلى؛ ثم أقسم لَيَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين، وليحضرنّهم حول جهنّم باركين على ركبهم؛ ولينزعنّ من بينهم من كان منهم أشدّ تمرّداً، ليذيقه عذاباً أعظم من غيره، وهو أعلم بمن هو أولى بذلك من غيره، ولا بدّ من ورودهم لها جميعاً على تفاوت عذابهم فيها ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

ثم ذكر السبب في عدم إيمانهم بذلك، وهو اغترارهم بدنياهم، فذكر سبحانه أنهم إذا تتلى عليهم آياته في ذلك واضحات، ذكروا أنهم أحسن حالاً من المؤمنين، ولو كانوا على الباطل لكانوا أسوأ حالاً منهم؛ ورد عليهم بأنه كم أهلك من قبلهم من قومٍ كانوا أحسن حالاً منهم، وبأنه إنّما يُنْعِمُ عليهم بذلك ليمدَّ لهم في الضلالة ويقطع عنهم العذر، حتى إذا رأوا ما يوعدون في الدنيا أو الآخرة علموا أنهم شرّ مكاناً وأضعف جنداً ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾.

ثم خصّ شخصاً منهم بلغ به الغرور مبلغه حتى قال استهزاء: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ في المعاد كما أوتيت ذلك في الدنيا، وردَّ عليه بأنه لم يطّلع على الغيب، ولم يتّخذ عنده بذلك عهداً؛ ثم أوعده بأنه سيكتب ما قاله ويرث ماله وولده، حتى يأتيه يوم القيامة فرداً.

ثم ذكر أنهم يعتمدون في ذلك على أنّ آلهتهم ستشفع لهم يوم القيامة، وردّ عليهم بأنهم سيكفرون فيه بعبادتهم

ويكونون عليهم ضداً؛ ثم ذكر أن الشياطين استولت عليهم، فلا فائدة في نصحهم، ونهى النبي (ص) أن يُعَجِّل عليهم العذاب، لأنه يعدّه لهم عدّاً؛ ثم ذكر أنه إذا أتى وقته يحشر المُتّقين وفداً، ويسوق المجرمين إلى جهنّم، كأنهم نَعَمٌ عطاش تساق إلى الماء، ولا يكون هناك شفاعة إلاّ للمؤمنين الذين اتّخذوا عند الرحمن بذلك عهداً.

ثمّ ذكر أنّ فريقاً يزعُمون أنّ الملائكة بنات الله، فيعبدها ويزعمون أنها تشفع لهم يوم القيامة؛ وردّ عليهم بأنهم قد جاءوا بهذا شيئاً إدّاً، وبأنه ما ينبغي له سبحانه أن يتّخذ ولداً؛ ثم ذكر أن كل من في السماوات والأرض يأتيه يوم القيامة عبداً؛ وأن كل واحد منهم يأتيه فرداً، لا شفيع له من الملائكة، وغيرهم.

ثم ختمت السورة بإثبات الشفاعة للمؤمنين بعد أن نُفِيَتْ عن غيرهم، فذكر سبحانه أنه سيجعل لهم يوم القيامة وُدّاً يشفع به بعضهم لبعض، ولا يقطع ما بينهم من تواصل كما قطع بين الكفّار ومن اتّخذوه من شريك وولد؛ ثم ذكر سبحانه أنه إنما يَسّر القرآن بلسان الرسول (ص)، لأجل هذا التبشير والإنذار فقال جلّ وعلا: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «مريم»[*]

أقول: ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها: أنّ سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب: قصّة أصحاب الكهف، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وما فيها من الخارقات، وقصّة ذي القرنين. وهذه السورة فيها أعجوبتان: قصّة ولادة يحيى بن زكريّا (ع)[1]، وقصّة ولادة عيسى (ع)، فناسب تتاليهما.

وأيضاً قيل: إن أصحاب الكهف يبعثون قبل قيام الساعة، ويحجّون مع عيسى بن مريم حين ينزل[2]. ففي ذكر سورة مريم بعد سورة أصحاب الكهف مع ذلك، إن ثبت، ما لا يخفى من المناسبة. وقد قيل أيضاً: إنهم من قوم عيسى، وإنّ قصتهم كانت في الفترة، فناسب توالي قصتهم وقصة نبيّهم[3].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) ولادة يحيى كانت عجيبة، لأنّ أمه كانت قد بلغت سنّ اليأس، وأباه بلغ من الكبر عتيّاً، فليس لمثلهما أن ينجب أبداً.

(٢) لم نعثر على هذا الراي فيما بين أيدينا من مصادر.

(٣) قال ابن كثير: الظاهر أنهم كانوا قبل ملّة النصرانية، لأن اليهود أشاروا على قريش بسؤال النبي(ص) عنهم. (تفسير ابن كثير: ٥/ ١٣٧).

مكنونات سورة «مريم»(*)

١ ـ ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [الآية ١٧].

قال قتادة، وعطاء، والضّحّاك: جبريل؛ أخرجه ابن أبي حاتم[(١)].

٢ ـ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ [الآية ٢٤].

قالَ البَرَاْء: مَلَك.

وقال ابنُ عبّاس وسعيد بن جُبير، والضّحّاك: جبريل، وقال مُجاهِد والحسن: عيسى[(٢)].

أخرج ذلك ابنُ أبي حاتِم.

٣ ـ ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾.

المكان العلّي، هو السماء الرابعة، كما في «الصحيح»[(٣)]

٤ ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الآية ٦٦].

هو: أبيّ بن خلف[(٤)].

وقيل: الوليد بنُ المغيرة.

وقيل: أمّية بنُ خَلَف.

٥ ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾.

نزلت في العاصي بن وائل السّهمي؛ كما أخرجه البخاري عن خبّاب بن الأرتّ[(٥)].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) انظر «تفسير الطبري» ١٦/ ٤٩.

(٢) هذا القول اختاره ابن زيد، كما في «تفسير ابن كثير» ٣/ ١٧٧، والطبري أيضاً في «تفسيره» ١٦/ ٥٢.

(٣) «صحيح البخاري» في بدء الخلق برقم (٣٢٠٧).

(٤) حكاه الواحدي في «أسباب النزول» ٢٢٧، عن الكلبي؛ وانظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٣٦١.

(٥) برقم (٤٧٣٢) في التفسير.

لغة التنزيل في سورة «مريم»(*)

قال تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾.

قوله تعالى ﴿عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ أي: اليبس والجساوة في المفاصل والعظام، كالعود القاحل يقال: عتا العود وعَسَا من أجل الكبر والطُّعْن في السن العالية.

والفعل «عتا يعتو» مصدره عتوّ وعِتِيّ بمعنى استكبر وجاوز الحدّ وقرئ «عُتِيًا» بضم العين.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾.

أقول: وكأنّ بين اليبس والجساوة في المفاصل والعظام، وبين الاستكبار وتجاوز الحد قرابة؛ وبشيء من اللطف، يصار من هذه الى تلك.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾﴾.

قوله تعالى (ولم تكُ) حذف النون للتخفيف، وذلك إذا وليها حرف ذو حركة، فإن كان ساكناً امتنع الحذف؛ وقد ورد في الشعر ضرورة، ومنه قول الشاعر:

إذا لم تكُ المرآة أبدَتْ محاسناً
فقد أبدَتِ المرآةُ جبهةَ ضَيْغَمِ

ومثل الآية قوله تعالى أيضاً:

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [الآية ٢٣].

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لابراهيم السّامرّائي، مؤسسة الرسالة العربية، بيروت، غير مؤرخ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا﴾ فعل مزيد بالهمزة، والثلاثي «جاء» إلاّ أنّ استعمال المزيد قد تغيّر بعد الزيادة إلى معنى الإلجاء، تقول: جئتُ المكانَ، وأجاءنيهِ زيد، كما تقول: بلغته وأبلغنيه.

ونظيره «آتي»، حيث لم يستعمل إلاّ في الإعطاء. ولم تقل: أتيت المكان وآتانيه فلان.

أقول: وليس لنا في العربية المعاصرة الفعل المزيد «أجاء».

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴿٢٣﴾﴾.

وقُرِئ «نِسياً» بكسر النون وفتحها، فمن قرأ بالكسر فمعناه: حيضة ملقاة، أي، خرقة الحيض، ومن قرأ بالفتح فمعناه شيئاً منسياً.

والنّسي أيضاً: ما نُسِيَ وما سقط في منازل المرتحلين من رُذال أمتعتهم. وتقول العرب إذا ارتحلوا من المنزل: انظروا أنساءكم، جمع نِسْي؛ وفي حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ «وددت أني كنت نِسْياً منسياً» أي شيئاً حقيراً مُطَّرَحاً ولا يُلْتَفَتُ إليه.

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴿٢٤﴾﴾.

السَّرِيُّ: النهر، عن ثعلب، وهو الجدول الصغير يجري إلى النخل، والجمع أسرية وسُرْيان.

وكذلك قال ابن عبّاس، وهو قول أهل اللغة.

وروي عن الحسن، أنه كان يقول كان والله سَرِيّاً من الرجال، ويعني عيسى (ع).

٦ ـ وقال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴿٢٧﴾﴾.

قال الفرّاء: الفَرِيُّ الأمر العظيم، أي: جئتِ شيئاً عظيماً.

وقيل: جئتِ شيئاً فَرِيّاً، أي مصنوعاً مُخْتَلَقاً.

وفلان يفري الفَرِيّ، إذا كان يأتي بالعجب في عمله.

وقال النبي (ص) في عمر، رضي الله عنه، ورآه في منامه ينزع عن قليب[1] بغرب[2]: فلم أرَ عبقرياً يفري فَرِيّه.

(١) القليب: البئر.

(٢) الغرب: الدّلو العظيمة.

وأقول: وهذا من الكلم الجميل الذي أضعناه، وليس لنا منه شيء.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴿٤٦﴾﴾.

قال الفرّاء: أي: طويلاً.

والمليُّ: الهَوِيُّ من الدهر، يقال أقام ملياً من الدَّهر، ومضى مَليٌّ من النهار، أي ساعة طويلة.

ومرَّ مَلِيٌّ من الليل، أي من أوّله إلى ثلثه.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴿٤٧﴾﴾.

الحَفيُّ: البليغ في البرّ والإلطاف، يقال حَفِيَ به وتحفَّى به.

أقول: وليس لنا في هذا المعنى إلا الفعل «احتفى» يقال احتفى به، أي بَرَّ وتلطَّفَ وكَرُمَ.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَبُكِيًّا﴿٥٨﴾﴾ أي: باكين، وهوجمع باكٍ مثل قاعد وقعود، وساجد وسجود.

وفي بعض القراءات «بِكيًّا» بكسر الباء، وهي قراءة من آثر كسرة الكاف لمكان الياء بعدها، وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴿٦٨﴾﴾.

وقوله جلّ وعلا: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴿٧٢﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿جِثِيًّا﴾ جمع جاثٍ، وكان يمكن أن تقرأ «جُثيّاً» بضم الجيم على قراءة من قرأ (بُكِيًّا)، وهي القراءة المشهورة ولكن ﴿جِثِيًّا﴾ بالكسر هي القراءة الغالبة.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴿٧٠﴾﴾.

والمعنى ثمّ لنحن أعلم بتصلية هؤلاء، وهم أولى بالصِلِيّ من بين سائر الصالين.

والصُّلِيّ: مصدر صَلِيَ. وصَلِيَ بالنار وصَلِيَها صَلْياً وصُلِيّاً وصِلِيّاً وصَلىً وصلاءً واصطلَى بها وتصَلاّها.

وقُرِئ: «صُليّاً».

١١ ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴿٧٤﴾﴾.

الأثاث: متاع البيت، وما جَدّ من الفرش، وليس منه الخُرثيّ[1].

(١) الخُرثيّ: أردأ المتاع.

أقول: والأثاث مفرد بخلاف ما يرد جمعاً في لغة المعاصرين.

إن مادة «أثاث» تشير إلى ما يقابلها في اللغات السامية، وهي «ايث» كما في العبرانية، «ايت» في الآرامية، و«ايش» كما في العربية، ومنه أيضاً «ايس»، وكلها تشير إلى «شيء» المعروفة في العربية.

و «ايث» تعني الشيء والوجود والكينونة، ومن هنا كان من الحسن أن ننظر إلى «لات» التي قد تكون «لا أيت» أي لا شيء، ثم رُكّبت على طريقة النحت فصارت «لات» النافية.

وقد أشرنا في غير هذا المختصر إلى مادة «ليس» وإنها «لا أيس» في الأصل، ضد الوجود وهو العدم.

ومن هنا كان «أيس» هو مادة «إنسان» كما في قولهم «إيسان» ثم إذا عرفنا أن «إيش» هو الرجل في العبرانية أدركنا القيم التاريخية لهذه الأصول العتيقة.

و(الرِئي): المنظر والهيئة، وهو على وزن «فِعْل» بمعنى مفعول نظير «ذبح»، أي مذبوح أو كما أشرنا إلى هذا البناء الثلاثي في غير هذا المكان.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴿٨٣﴾﴾.

الأزّ والاستفزاز متقاربان، والمعنى التهييج وشدّة الإزعاج.

أقول:

ليس شيئاً من ذلك في اللغة المعاصرة، بل إن الفعل «أزّ» يفيد ضرباً من الصوت، كأزيز القدر والمرجل ونحوهما.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴿٨٥﴾﴾.

أي: يوم نحشرهم وافدين، والوفد في الآية الركبان المُكَرّمون.

وكما يكون «الوَفد» اسم جمع للوافد، فهو مصدر أيضاً.

والوفد في لغتنا المعاصرة جماعة يُوفدون إلى أمر من الأمور، ولكثرة استعماله في الحياة المعاصرة جمع على «وفود».

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴿٨٩﴾﴾.

الإدّ بالكسر والفتح: العَجَب، وقيل: العظيم المنكر، والإدّة: الشدّة، وأدّني الأمر وآدني: أثقلني وعظم عليّ.

١٥ ـ وقال تعالى: ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾.

الرِّكْزُ: الصَّوْت الخفي.

وكأنّ أصل المعنى في «الرِّكْز» هو الخفاء، ومنه رَكَزَ الرُّمحَ إذا غيّب طرفه في الأرض، والرِّكاز: المال المدفون.

المعاني اللغوية في سورة «مريم»(*)

قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ أي: «مِمّا نَقُصُّ عَلَيْكَ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ»[1] فانتصب العبد بالرحمة. وقد يقول الرجل «هذا ذِكْرُ ضَرْبِ زيدٍ عَمْراً»[2].

وقال سبحانه: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ يجعله من الإخفاء.

وقال: ﴿شَيْبًا﴾ [الآية ٤] لأنه مصدر في المعنى ناب عن فعله[3]. وليس هو مثل «امتلأت ماءً» لأن ذلك ليس بمصدر.

وقوله تعالى: ﴿سَوِيًّا ۝١٠﴾ على الحال[4]، كأنه أمرٌ في الكفّ عن الكلام سوياً.

وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [الآية ٤٤] فإذا وقفت قلت: «يا أبَهْ» وهي هاء زيدت؛ كنحو قولك «يا أمَهْ» ثم تقول «يا أمّ» اذا وصلت، ولكنّه لما كان «الأبُ» على حرفين كان كأنه قد أخلّ به، فصارت الهاء لازمة وصارت الياء كأنها بعدها، فلذلك قيل «يَا أبَتِ أقْبِلْ» وجعلت التاء للتأنيث. ويجوز الترخيم لأنه يجوز أن تدعو ما تضيف الى نفسك في المعنى

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرخ.

(١) نقله في المشكل ٢/٤٩، والجامع ١١/٧٥..

(٢) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٦٢٤، ونقله في الجامع ١١/ ٧٥.

(٣) نقله في الصحاح «شيب»، وإعراب القرآن ٢/ ٦٢٤، والجامع ١١/ ٧٧.

(٤) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٦٢٧.

مضموماً، نحو قول العرب «يا رَبُّ اغفرْ لي» وتقف في القرآن ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ للكتاب وقد يقف بعض العرب على هاء التأنيث[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾﴾ نحو قولك «ملحفةٌ جديدٌ»[2].

وقال تعالى: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [الآية ٥٠] نحو قولهم: «لسانُنا غيرُ لسانِكُم» أي: لغتُنا غيرُ لغتِكُم. وإن شئت جعلت اللسان مقالهم كما تقول «فُلانٌ لِسانُنا».

وقال تعالى ﴿إِلَّا سَلَٰمٗاۖ﴾ [الآية ٦٢] فهذا كالاستثناء الذي ليس من أوّل الكلام[3]. وهذا على البدل، إن شئت كأنّه «لا يَسْمَعُونَ فيهَا إلاّ سَلاماً».

وقال تعالى: ﴿وَرِءۡيٗا ﴿٧٤﴾﴾ فالرِّئْيُ من الرُّؤية، وفسّروه من المنظر، فذاك يدلّ على أنه من «رأيت».

وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾ [الآية ٦٤] أي، والله أعلم، ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا﴾ قبل أن نُخلَقَ ﴿وَمَا خَلۡفَنَا﴾ بعد الفناء ﴿وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ﴾ حين كنّا[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [الآية ٢٥] زيدت الباء، وهي تزاد في كثير من الكلام، نحو قوله سبحانه: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون/ ٢٠] أي: تُنْبِتُ الدُّهنَ.

وقال الشاعر[5] [من الطويل وهو الشاهد السادس والأربعون بعد المئتين]:

بِوادٍ يَمانٍ يُنْبِتُ السِّدْرَ صَدْرُهُ
وأَسْفَلُهُ بالمَرْخِ والشُّبَهانِ[6]

(١) هي لغة قوم طيئ. شرح المفصل ٥/ ٨٩، وقيل بل لغة تميمية. اللهجات العربية ٣٩٣ وما بعدها، والخصائص ١/ ٣٠٤، والمخصص ٩/ ٧، والخزانة ٢/ ١٤٨، واللسان: «جحف» و«بلل» و«ما».

(٢) نقله في الصحاح «بغي»

(٣) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٦٣٧.

(٤) نقله في زاد المسير ٥/ ٢٥٠، والجامع ١١/ ١٢٩، والبحر ٦/ ٢٠٣.

(٥) هو امرؤ القيس: الجمهرة ١/ ٤٤٥؛ وقيل رجل من عبد القيس اللسان«شبه»؛ وقيل يعلى الأحول، الجمهرة ١/ ٤٥.

(٦) في أدب الكاتب ٤١٦، والجمهرة كما سبق و٣/ ٤١٤، واللسان «شث»، وشبه مجاز القرآن ٢/ ٤٨ بـ «الشث» بدل «السدر»، وفي الجمهرة كما سبق، وفي اللسان مادة «شث» «فرعه» بدل «صدره».

يقول: «وأسفله يُنْبِتُ المرخَ والشبهانَ» ومثله: «زوجتكَ بفلانة» يريدون: «زَوَّجْتُكَها» ويجوز أن يكون على معنى «هُزِّي رُطَباً بجذعِ النخلة».

وفي قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [الآية ٩٠] فالمعنى يردنَ[1] لأنهنّ لا يكون منهنّ أن يتفطّرن، ولا يدنون من ذلك، ولكنهنّ هممن به إعظاماً لقول المشركين؛ ولا يكون على من هَمَّ بالشيء أن يدنو منه، ألا ترى أنّ رجلاً لو أراد أن ينال السماء لم يدن من ذلك، وقد كانت منه إرادة.

وفي قوله تعالى: ﴿كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ «العَصِيّ»: العاصي، كما تقول: «عَلِيم» و«عالم» و«عريف» و«عارف» قال الشاعر[2] [من الكامل وهو الشاهد السابع والأربعون بعد المئتين]:

أَوَ كُلَّما وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلَةٌ
بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ[3]

يقول: «عارفهم»

وقال تعالى: ﴿أَطَّلَعَ﴾ [الآية ٧٨] فهذه ألف الاستفهام، وذهبت ألف الوصل لمّا دخلت ألف الاستفهام.

وقال تعالى ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ لأنّ «الضِدّ» يكون واحداً وجماعةً، مثل «الرَّصَد» و «الأرصاد»، ويكون الرَّصَدُ أيضاً اسماً للجماعة[4].

---

(١) نقله في البحر ٦/ ٢١٨.

(٢) هو طريف بن تميم العنبري: الكتاب وتحصيل عين الذهب ٢/ ٢١٥، والفاخر ٢٥٨، والأصمعيات ١٢٧؛ والبيت أيضاً في المنصف ٣/ ٦٦.

(٣) في الأصمعيات: رسولهم بدل عريفهم.

(٤) نقله في التهذيب ١١/ ٤٥٥ «ضد».

لكل سؤال جواب في سورة «مريم»(*)

إن قيل: النداء هو الصوت والصياح، يقال ناداه نداء: أي صاح به، فلِمَ وُصِفَ النداء بكونه خَفِيّاً، كما جاء في الآية ٣؟

قلنا: النداء هنا عبارة عن الدعاء، وإنما أخفاه ليكون أقرب إلى الإخلاص، أو لئلا يلام على طلبه الولَدَ بعد الشيخوخة، أو لئلا يعاديه بنو عمه، ويقولوا: كره أن نقوم مقامه بعده، فسأل ربّه الولد لذلك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [الآية ٦]،

والنبي لا يورث لقوله (ص): «نحن معاشر الأنبياء لا نورث. ما تركناه صدقة»؟

قلنا: المراد بقوله تعالى ﴿يَرِثُنِي﴾: أي يرثني العلم والنبوّة، ويرث من آل يعقوب الملك، وقيل الأخلاق؛ فأجابه الله تعالى إلى وراثته العلم والنبوّة والأخلاق، دون الملك، والمراد بقوله (ص) «لا نورث» المال؛ ويؤيده قوله (ص) «ما تركناه صدقة». ويعقوب هنا والد يوسف عليهما السلام، وقيل لا بل هو أخو زكريا، وقيل لا بل هو أخو عمران الذي هو أبو مريم.

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بتعدية الفعل في الأول بنفسه والثاني بحرف الجر، وهو واحد؟

قلنا: يقال ورثه وورث منه، فجمع السياق بين اللغتين. وقيل «مِنْ» هنا

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها» لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرخ.

للتبعيض لا للتعدية، لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء.

فإن قيل: كيف طلب الولد بقوله، كما ورد في التنزيل ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝﴾. أي ولداً صالحاً، فلمّا بشره الله تعالى بقوله: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [الآية ٧] استبعد ذلك وتعجّب منه، وأنكره كما ذكر القرآن، بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [الآية ٨].

قلنا: لم يقل ذلك على طريق الإنكار والاستبعاد، بل ليجاب بما أجيب به عن طلبه الولد، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾، فيزداد الموقنون إيقاناً ويرتدع المبطلون، وإلاّ فمعتقد زكريا أولاً وآخِراً، كان على منهاج واحد في أنّ الله تعالى غَنِيٌّ عن الأسباب. الثاني: أنه قال ذلك تعجُّبَ فرحٍ وسرور، لا تعجُّبَ إنكارٍ واستبعاد. الثالث: قيل إنه قال ذلك استفهاماً عن الحالة التي يهبه الله تعالى فيها الولد: هل يهبه في حال الشيخوخة أم يَرُدُّه إلى حالة الشباب ثم يهبه، ولكن هذا الجواب لا يناسبه ما أجيب به زكريا (ع) بعد استفهامه.

فإن قيل: لم قيل: ﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [الآية ١٠] والآية العلامة، فعلامَ طلب العلامة على وجود الولد بعد ما بشّره الله تعالى به؛ أكان عنده شكٌّ بعد بشارة الله تعالى في وجوده حتى طلب العلامة؟

قلنا: إنّما طلب العلامة على وجود الحمل ليبادر إلى الشكر ويتعجّل السرور؛ فإن الحمل لا يظهر في أوّل العلوق بل بعد مدة، فأراد معرفته أوّل ما يوجد، فجعل الله آية وجود الحمل عجزه عن الكلام، وهو سويّ الجوارح ما به خَرَسٌ ولا بَكَمٌ.

فإن قيل: لِمَ قالت مريم، كما ورد في التنزيل: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝﴾. وإنما يُتعوّذ من الفاسق لا من التقيّ.

قلنا: معناه إن كنت ممّن يتقي الله ويخشاه فانْتَهِ عنّي بتعوّذي به منك؛ فمعنى أعوذ أحصل على ثمرة التعوّذ. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما، أنه كان في زمانها رجل اسمه تقيّ، ولم يكن تقيّاً بل كان فاجراً، فظنّته إيّاه فتعوّذت منه؛ والقول الأول هو الذي عليه المحقّقون؛ وقيل هو على المبالغة، معناه: إني أعوذ منك إن

كنت تقياً؛ فكيف يكون حالي في القرب منك إلى الله تعالى إذا لم تكن تقياً؟ قالوا: ونظير هذا ما جاء في الخبر«نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه» معناه: أنه إذا كان بحال لو لم يخف الله تعالى لا يوجد منه عصيان، فكيف يكون حاله إذا خاف الله تعالى. وفي قراءة أبي رجاء وابن مسعود (إلا أن تكون تقيا).

فإن قيل: اتفق العلماء على أن الوحي لم ينزل على امرأة ولم يرسل جبريل (ع) برسالة إلى امرأة قط، ولهذا قالوا في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص/٧] أنه كان وحي إلهام، وقيل وحي منام؛ فلِمَ قال تعالى ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [الآية ١٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [الآية ١٩]؟

قلنا: لا نسلّم أنّ الوحي لم ينزل على امرأة قط، فإنّ مقاتلاً قال في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص/٧] أنّه كان وحياً بواسطة جبريل (ع)، وإنّما المتفق عليه بين العلماء أنّ جبريل (ع) لم ينزل بوحي الرسالة على امرأة لا بمطلق الوحي. وهنا لم ينزل على مريم بوحي الرسالة بل بالبشارة بالولد، ولهذا جاء على صورة البشر ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾.

فإن قيل: ما وجه قراءة الجمهور: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [الآية ١٩] والواهب للولد الله تعالى لا جبريل (ع)؟

قلنا: قال ابن الأنباري: معناه إنّما أنا رسول ربّك، بقوله لك أرسلت رسولي إليك لأهب لك، فيكون حكاية عن الله تعالى لا عن قول جبريل (ع)، فيكون فعل الهبة مسنداً إلى الله تعالى لا إليه. الثاني: أنّ معناه لأكون سبباً في هبة الولد بواسطة النفخ في الدرع، فالإضافة إليه بواسطة السببيّة.

فإن قيل: لِمَ قالت كما ورد في القرآن: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾. ولم تقل بغيّة، مع أنه وصف مؤنث؟

قلنا: قال ابن الأنباري: لما كان هذا الوصف غالباً على النساء، وقلّما تقول العرب رجل بغي، لم يلحقوا به علامة التأنيث إجراء له مجرى حائض وعاقر. وقال الأزهري: لا يقال رجل بغيّ، بل هو مختصّ بالمؤنّث، ولام الكلم ياء، يقال بغت تبغي؛ وهو فعول عند المبرّد أصلها بغوي، قلبت الواو ياء وأدغمت، وكسرت الغين إتباعاً، فهو

كصبور وشكور في عدم دخول التاء؛ وقال ابن جنّي في كتابه التمام: هي فعيل، ولو كان فعولاً لقيل بغو، كما قيل هو نهو عن المنكر، ثم قيل هي فعيل بمعنى فاعل، فهي كقوله تعالى ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف] وقال الأخفش: هي مثل «ملحفة جديد»، فجعلها بمعنى مفعول. وقيل إنما لم يُقَلْ بغيّة مراعاةٍ لبقية رؤوس الآيات.

فإن قيل: ما كان حزن مريم في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴿٢٣﴾﴾ ألِفَقْدِ الطعام والشراب حتى تسلّت بالسَّريّ والرُّطَبِ، أم كان لخوف أن يتهمها قومها بفعل الفاحشة؟

قلنا: كان حزنها لمجموع الأمرين، وهو ماذكرتم، وجدب مكانها الذي ولدت فيه، فإنه لم يكن فيه طعام ولا شراب ولا ماء تتطهّر به؛ وكان إجراء النهر في المكان اليابس الذي لم يعهد فيه ماء، وإخراج الرطب من الشجرة اليابسة دافع لجهتي الحزن. أما دفع الجدب فظاهر، وأما دفع حزن التهمة، فمن حيث أنهما معجزتان تدلان قومها على عصمتها وبراءتها من السوء، وأن الله تعالى قد خصّها بأمور إلهية خارجة عن العادة، خارقة لها؛ فَتُبَيِّنُ لهم أنّ ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها، ولا بعيدٍ في قدرة الله تعالى، المُخرجِ في لحظة واحدة، الرّطب الجني من النخلة اليابسة، والمُجرِي للماء بغتة، في مكان لم يُعهد فيه.

فإن قيل: لِمَ أمرها جبريل (ع) إذا رأت إنساناً أن تكلمه بعد النذر بالسكوت، في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴿٢٦﴾﴾ وذلك خلف في النذر؟

قلنا: إنما أمرها بذلك لأنه تمام نذرها، فإنها لم تكن مأمورة بنذر مطلق السكوت حتى يتدرّج فيه الكفّ عن الذكر والتسبيح والدعاء ونحوها، بل بنذر السكوت عن تكليم الإنس، وإذا كان تمام نذرها كما ورد في قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴿٢٦﴾﴾ لا تكون مكلمة لإنسي بعد تمام النذر.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴿٢٩﴾﴾ وكل أحد كان في المهد صبياً؟

قلنا: كان هنا زائدة، وصبياً منصوب

على الحال لا على أنه خبر كان، تقديره: كيف نكلم من في المهد في حال صباه. وقيل كان بمعنى وقع ووجد؛ وصبيّاً منصوب على الوجه الذي مرّ.

فإن قيل، خطاب التكليف في جميع الشرائع إنّما يكون بعد البلوغ أو بعد التمييز والقدرة على فعل المأمور به، وعيسى عليه السلام كان رضيعاً في المهد، فكيف خوطب بالصّلاة والزّكاة، في قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

قلنا: تأخير الخطاب إلى غاية البلوغ وغيرها، إنما كان ليحصل العقل والتمييز، وعيسى (ع) كان واحد العقل والتمييز التام في تلك الحالة، فتوجه نحوه الخطاب أن يفعلهما إذا قدر على ذلك، ولهذا قيل إنه أعطي النبوة في صباه أيضاً.

فإن قيل الزّكاة إنّما تجب على الأغنياء، وعيسى عليه السلام لم يزل فقيراً لابسَ كساءٍ مدة مقامه في الأرض، وعلم الله تعالى ذلك من حاله، فلِمَ أوصاه بالزّكاة؟

قلنا: المراد بالزكاة هنا تزكية النفس وتطهيرها من المعاصي، لا زكاة المال.

فإن قيل: لِمَ جاء السلام في قصّة يحيى عليه السلام مُنكّرا، وفي قصة عيسى عليه السلام مُعَرَّفاً؟

قلنا: قد قيل إنّ النكرة والمعرفة في مثل هذا سواء لا فرق، بينهما في المعنى. الثاني: أنه سبق ذكره في قصة يحيى عليه السلام مرّة، فلما أعيد ذكره أعيد معرفة، كقوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل] كأنّ ذلك السلام الموجّه إلى يحيى عليه السلام، في المواطن الثلاثة، موجّه إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

فإن قيل: كيف تكون الألف واللام في السلام للعهد، والأول سلام من الله تعالى على يحيى (ع)، والثاني سلام من عيسى على نفسه؟

قلنا التعريف راجع إلى ماهيّة السلام ومواطنه، لا إلى كونه وارداً من عند الله تعالى.

فإن قيل: مامعنى قوله تعالى ﴿وَاذْكُرْ

﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الآية ٤١] وما أشبهه. ومثل هذا، إنّما يستعمل إذا كان المأمور مختاراً في الذكر وعدمه؛ كما تقول لصاحبك وهو يكتب كتاباً: اذكرني في الكتاب، أو اذكر فلاناً في الكتاب؛ والنبيّ (ص) ما كان على سبيل من الزيادة والنقصان في الكتابة، ليوصى بمثل ذلك؟

قلنا: هذا على طريق التأكيد في الأمر بالإبلاغ، كتأكيد الملك على رسوله بإعادة بعض فصول الرسالة وتخصيصها بالأمر بالإبلاغ.

فإن قيل: الاستغفار للكافر لا يجوز، فلِمَ وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له، في قوله تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [الآية ٤٧] مع أنه كافر؟

قلنا معناه: سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها مغفرته، يعني الإسلام؛ والاستغفار للكافر بهذا الطريق جائز، وهوأن يقال: اللهم وفّقه للإسلام، أو: اللهم تُبْ عليه واهْدِهِ وأرْشِدْهُ، وما أشبه ذلك. الثاني: أنه وعده ذلك، بناء على أنه يسلم فيستغفر له بعد الإسلام. الثالث: أنه وعده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافر؛ فإنّ تحريم ذلك قضيّة شرعيّة، إنّما تعرف بالسمع، لا عقلية، فإن العقل لا يمنع ذلك.

فإن قيل: الطُور، وهو الجبل ليس له يمين ولا شمال، فَلِمَ قال تعالى: ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [الآية ٥٢].

قلنا: خاطب الله تعالى العرب، بما هو معروف في استعمالهم، فإنهم يقولون عن يمين القبلة وشِمالها، يعنون مايلي يمين المستقبِلِ لها وشِماله، لأنّ القبلةَ لا يَدَ لها لتكون لها يمين وشمال. وهذا اتساع منهم في الكلام لعدم اللُبس، فالمراد بالأيمن هنا، ما عن يمين موسى (ع) من الطُور. لأنّ النداء جاءه من قِبَلِ يمينه، هذا إن كان الأيمن ضد الأيسر من اليمين. وإن كان من اليُمْن، وهو البركة، من قولهم: يَمَنَ فلانٌ قومَه فهو يامن: أي كان مباركا عليهم، فلا إشكال، لأنه يصير معناه: من جانب الطُور المبارك.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾ وهارون كان أكبر من موسى (ع) فما معنى هبته له؟

قلنا: معناه أن الله سبحانه أنعم على موسى عليه الصلاة والسلام، بإجابة دعوته فيه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾ [طه] فكان الجواب: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص/٣٥] فالمراد إذاً، بالهِبَة أنه سبحانه جعله عَضُداً له وناصراً ومُعيناً؛ كذا فسّره ابن عبّاس رضي الله عنهما.

فإن قيل: لِمَ وصف الله تعالى النبيّين المذكورين في قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ [الآية ٥٨] بقوله تعالى ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۝٥٨﴾ والمراد بآيات الرحمن القرآن، والقرآن لم يُتْلَ على أحدٍ من الانبياء المذكورين؟

قلنا آيات الرحمن غير مخصوصة بالقرآن، بل كل كتاب أنزله الله تعالى ففيه آياته؛ ولو سلمنا أنّ المراد بها القرآن، فنقول: إن المراد بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [الآية ٥٨] محمد (ص) وأمّته.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ يدل على أن ترك الصلاة وإضاعتها كفر، والإيمان شرط في توبة مضيعها؟

قلنا: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المراد بهؤلاء الخَلْف هنا اليهود؛ تركوا الصلاة المفروضة، وشربوا الخمر، واستحلّوا نكاح الأخت من الأب.

فان قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ۝٦١﴾ ولم يقل آتياً، كما قال جلّ شأنه ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍ﴾ [الأنعام/ ١٣٤].

قلنا المراد بوعده تعالى، هنا، موعده وهو الجنة، وهي مأتية يأتيها أولياؤه. الثاني: أن مفعولاً هنا بمعنى فاعل، كما في قوله تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾ [الإسراء] أي ساتراً.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾، وقوله تعالى ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران] يدلاّن من حيث المفهوم، على أنّ غير المتقين لا يدخلون الجنة؟

قلنا: المراد بالتقوى هنا التقوى من

الشرك، وكل المؤمنين في ذلك سواء.

فإن قيل: ما معنى انفطار السماوات، وانشقاق الأرض، وخُرور الجبال، من دعوتهم الولد لله تعالى؛ ومن أين تؤثر هذه الكلمة في الجمادات؟

قلنا: معناه أنّ الله تعالى يقول، كدت أفعل هذا بالسماوات والأرض والجبال، عند وجود هذه الكلمة غضباً على قائلها، لولا حلمي وإمهالي، وأن لا أعجّل العقوبة، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ ﴾ [فاطر/٤١] يعني أن تخر على المشركين وتنشق الأرض بهم، ويدلّ على هذا، قوله تعالى في آخر الآية ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]. الثاني: أن يكون استعظاماً لقبح هذه الكلمة، وتصويراً لأثرها في الدّين، من حيث هدم أركانه وقواعده؛ وأن مثال ذلك الأثر في المحسوسات، أن يصيب هذه الأجسام العظيمة التي هي قوام العالم، ما تنفطر منه، وتنشق، وتخرّ.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى، هنا في صفة الشرك: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾. وهذا يدل على قوّة كلمة الشرك وشدّتها، وقال تعالى في سورة إبراهيم، صلوات الله عليه في صفة كلمة الشرك ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [ابراهيم] والمراد بالكلمة الخبيثة كلمة الشرك، كذا قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما؛ وبالشجرة الخبيثة شجرة الحنظل، كذا قاله رسول الله (ص)؛ وهذا يدل على ضعف كلمة الشرك وتلاشيها واضمحلالها، فكيف التوفيق بينهما؟

قلنا: وُصِفَت كلمة الشرك في سورة إبراهيم (ع) بالضّعف، وهنا بالقبح، فهي في غاية الضّعف وفي غاية القبح والفظاعة، فلا تنافي بينهما.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ والإحصاء العَدُّ على مانقله الجوهري، أو الحصر على مانقله بعض أئمة التفسير، كما سبق ذكره في سورة إبراهيم، صلوات الله عليه، في قوله تعالى ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [ابراهيم/٣٤]؛ فإن كان الإحصاء العدّ فهو تكرار، وإن كان الحصر، فذكره مُغْنٍ عن ذكر العدّ؛

لأنّ الحصر لا يكون إلاّ بعد معرفة العدد؟

قلنا: الإحصاء قد جاء بمعنى العلم أيضاً، ومنه قوله تعالى ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن] أي علم عدد كلّ شيءٍ؛ قال الشاعر:

وكُنْ للّذي لَمْ تُحْصِهِ مُتَعلِّماً
وأمّا الذي أحْصَيْتَ مِنْهُ فَعَلِّمِ

وهو المراد هنا؛ فيصير المعنى لقد علمهم، أي علم أفعالهم وأقوالهم، وكل ما يتعلّق بذواتهم وصفاتهم وعددهم؛ فلا تكرار، ولا استغناء عن ذكر العدّ.

المعاني المجازية في سورة «مريم»(*)

قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [الآية ٤].

وهذه من الاستعارات العجيبة. والمراد بذلك، التعبير عن تكاثر الشّيب في الرأس حتى يقهر بياضه، ويفصل سواده.

وفي هذا الكلام دليل على سرعة تضاعف الشيب وتَزَيُّدِه وتلاحُقِ مَدَدِه، حتى يصير في الإسراع والانتشار كاشتعال النار، يُعْجِز مطفيه، ويَغْلِب مُتَلافيه.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [الآية ٢٣]. وهذه استعارة، والمعنى: فجاء بها المخاض، إلى جذع النخلة، لتجعله سِناداً لها، أو عِماداً لظهرها. وهي التي لجأت إلى النخلة؛ ولكن ضَرْبَ المخاض، لَمّا كان سبباً لذلك، حَسُن أن ينسب الفعل إليه في إلجائها، والمجيء بها.

وقوله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝﴾.

وهذه استعارة. والمراد بذكر اللسان هُهنا، والله أعلم، الثناء الجميل الباقي في أعقابهم، والخالف في آبائهم[1] والعرب تقول: جاءني لسان فلان،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق: محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) الباقي في آبائهم.

يريد مدحه أو ذمه. ولـمّا كان مصدر المدح والذم عن اللّسان، عبروا عنهما باسم اللسان.

وإنـمّـا قـال سـبـحـانـه: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ ﴿٥٠﴾﴾، بإضافة اللّسان إلى أفضل حالاته، وأشرف متصرّفاته؛ لأن أفضل أحوال اللّسان أن يخبر صدقاً، أو يقول حقّاً.

سورة طه

٢٠

أهداف سورة «طه»(*)

نزلت سورة طه بعد سورة مريم، ونزلت سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء، فيكون نزول سورة طه في ذلك التاريخ أيضاً. أي بعد السنة السابعة من البعثة وقبل السنة الحادية عشرة من البعثة.

وفي المصاحف المطبوعة بالقاهرة، سورة طه مكّيّة إلاّ الآيتين ١٣٠ و١٣١، فهما مدنيّتان؛ وآياتها ١٣٥ آية نزلت بعد مريم.

وقال الفيروزآبادي «السورة مكّيّة إجماعاً، وكلماتها ١٣٤١ كلمة، ولها اسمان «طه» لافتتاح السورة بها، و«سورة موسى» لاشتمالها على قصّته مفصّلة.

معنى طه

قيل معناها يا رجل، وقيل معناها يا إنسان، وقال آخرون هي اسم من أسماء الله تعالى وقد أقسم سبحانه به، وقال آخرون هي حروف مقطّعة مكوّنة من الطاء والهاء يدل كلّ حرف منها على معنًى. واختلفوا في ذلك المعنى اختلافهم في آلمّص. وقد ذكرنا ذلك في التعريف بسورة الأعراف، قال ابن جرير الطبري «والذي هو أولى بالصواب عندي من الأقوال فيه قول من قال: معناها: يا رجل، لأنها كلمة معروفة في عك، فيما بلغني، وأنّ معناها يا رجل».

«وقيل أصله طأها، على أنه أمر لرسول الله (ص) بأن يطأ الأرض

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

بقدميه، فإنه كان يقوم الليل، حتّى ورمت قدماه من طول القيام. وقد أُبدلت الألف من الهمزة، والهاء كناية عن الأرض».

والمعنى طأ الأرض بقدميك يا محمد، وهوّن على نفسك في القيام، وارأف بنفسك؛ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به تَعَباً، بل لتسعد به، وتذكّر به الناس.

أهداف السورة

من أهداف سورة طه:

تيسير الأمر على رسول الله (ص) وبيان فضل الله الواسع على رسله وأصفيائه وبيان وظيفة الرسول، وحصرها في الدعوة والتذكرة والتبشير والإنذار؛ ثم ترك أمر الخلق بعد ذلك الى الله الواحد الذي لا إله غيره، المهيمن على ظاهر الكون وباطنه، الخبير بظواهر القلوب وخوافيها، الذي تعنو له الجباه، ويرجع إليه الناس: طائعهم وعاصيهم.

ثم تعرض السورة قصة موسى (ع)، من حلقة الرسالة إلى حلقة اتّخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر مفصّلة مطوّلة، وبخاصة موقف المناجاة بين الله سبحانه وكليمه موسى، وموقف الجدل بين موسى وفرعون وموقف المباراة بين موسى والسحرة. وتتجلّى في غضون القصّة، رعاية الله لموسى، الذي صنعه على عينه واصطنعه لنفسه؛ وقال له ولأخيه:

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

ثم تعرض السورة قصة آدم (ع) سريعة قصيرة؛ تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته، وهدايته له، وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدىً أو ضلال بعد التذكير والإنذار.

وتحيط بقصة آدم مشاهد القيامة، وإنما هي تكملة لما كان أول الأمر في الملأ الأعلى من خلق آدم؛ حيث يعود الطائعون من ذريته إلى الجنة، ويذهب العصاة من ذريته إلى النار، تصديقاً لما قيل لأبيهم آدم، وهو يهبط إلى الأرض بعد خروجه من الجنة.

***

ونلحظ أن السياق يمضي في هذه السورة في شوطين اثنين:

الشوط الأول: يتضمّن مطلع السورة بالخطاب إلى الرسول (ص).

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾.

ثم تتبعه قصّة موسى نموذجاً كاملاً لرعاية الله سبحانه لمن يختارهم لإبلاغ دعوته، فلا يَشقَوْن بها وهم في رعايته.

والشوط الثاني: يتضمّن مشاهد القيامة، وقصّة آدم، وهما يسيران في اتجاه مطلع السورة، وقصّة موسى. ثم ختام السورة بما يشبه مطلعها، ويتناسق معه ومع جو السّورة.

وللسّورة ظلّ خاصّ، يغمر جوّها كلّه. ظلّ علويّ جليل تخشع له القلوب، وتسكن له النفوس، وتعنو له الجباه. إنّه الظلّ الذي يخلعه تَجَلّي الرحمٰن على عبده موسى بالوادي المقدّس، في تلك المناجاة الطويلة، والليل ساكن وموسى وحيد، والوجود كلّه يتجاوب بذلك النُّجاء الطويل. وهو الظلّ الذي يخلعه تَجَلّي القيُّوم في موقف الحشر العظيم:

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ۝١٠٨﴾.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [الآية ١١١].

وإيقاع السورة كلّها يستطرد في مثل هذا الجو من مطلعها إلى ختامها، رَخِيّاً شَجِيّاً نَدِيّاً، بذلك المدّ الذاهب مع الألف المقصورة، في أواخر الفواصل كلّها تقريباً.

قصة موسى (ع) في القرآن

بدأت سورة طه بمقدّمة مؤثرة عن القرآن، وعن صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى.

ثم قصّ الله على رسوله حديث موسى، نموذجاً لرعايته للمختارين لحمل دعوته. وقصّة موسى، هي أكثر القِصَص وروداً في القرآن. وهي تعرض في حلقات تناسب السّورة التي تعرض فيها وجوّها وظلّها. وقد وردت حلقاتٌ منها حتى الآن في سورة البقرة، وسورة المائدة، وسورة الأعراف، وسورة يونس، وسورة الإسراء، وسورة الكهف، وذلك غير الإشارات إليها في سُوَرٍ أخرى.

وما جاء منها في المائدة كان حلْقة واحدة: حلقة وقوف بني إسرائيل أمام

الأرض المقدّسة، لا يدخلون فيها لأنّ فيها قوماً جبّارين.

وفي سورة الكهف كانت كذلك حلقة واحدة: حلقة لقاء موسى للعبد الصالح، وصحبته فترة. وقد سبق الحديث عنها في سورة الكهف، بعنوان قصّة موسى والخضر.

فأمّا في «البقرة» و«الأعراف» و«يونس»، وفي هذه السورة، سورة طه، فقد وردت منها حلقات كثيرة، ولكن هذه الحلقات تختلف في سورة عنها في الأخرى. تختلف الحلقات المعروضة، كما يختلف الجانب الذي تعرض منه، تنسيقاً له مع اتجاه السورة التي يعرض فيها.

في «البقرة»، سبقتها قصّة آدم (ع) وخلقه وتكريمه في الملأ الأعلى. فجاءت قصّة موسى وبني إسرائيل تذكيراً لبني إسرائيل بنعمة الله عليهم وعهده إليهم وإنجائهم من فرعون وملئه، واستسقائهم وتفجير الينابيع لهم، وإطعامهم المن والسلوى. وذكرت عدوانهم في السبت، وقصّة البقرة، وفي «الأعراف» سبقها الإنذار وعواقب المكذّبين بالآيات قبل موسى عليه السلام، فجاءت قصّة موسى تعرض ابتداء من حلقة الرسالة، وتعرض فيها آيات العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع، وتعرض حلقة السحرة بالتفصيل، وخاتمة فرعون وملئه المكذّبين؛ وفي يونس، سبقها عرض مصارع المكذبين؛ ثم عرض منها حلقات ثلاث:

حلقة الرسالة؛ وحلقة السحرة؛ وحلقة غرق فرعون.

أما هنا، في سورة طه، فقد كان مطلع السورة يشفّ عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفيهم لحمل رسالته وتبليغ دعوته؛ فجاءت القصّة مظلَّلَةً بهذا الظلّ، تبدأ بمشهد المناجاة، وتتضمّن نماذج من رعاية الله لموسى في طفولته وشبابه ورجولته؛ وتثبيته وتأييده وحراسته وتعهده.

قصة موسى في سورة طه

ولد موسى في مصر، ونما وترعرع في بيت فرعون، ثم قتل رجلاً من طريق الخطأ، فخرج هارباً إلى أرض مَدْين وهناك تزوج بنت نبيّ الله شعيب (ع)، ومكث في أرض مَدْين عشر سنين، ثمّ عاد بأهله إلى مصر.

وفي الطريق أدركته عناية الله ومنَّ الله عليه بالرسالة والعناية. وناداه:

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

وهذا الوحي يتعلّق بثلاثة أمور مترابطة: الاعتقاد بالوحدانيّة؛ والتوجّه بالعبادة؛ والإيمان بالسّاعة؛ وهي أسس رسالة الله الواحدة. ومن نداء الله لموسى:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾﴾.

وخص الله موسى بمعجزات ظاهرة، وآيات باهرة. أمره أن يلقي عصاه فألقاها، فإذا هي حية تسعى؛ ثم نمَت وعظُمت حتّى غدت في جَلادَةِ الثّعبان، وضخامة الجانّ. لمحها موسى، فاشتد خوفه، فناداه الله:

﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ ثم أدخل موسى يده تحت إبطه، فخرجت بيضاء بياضاً يغلب نور الشمس، ليس فيها بُهاق[1] أو بَرص[2] أو مرض؛ وتمّت لموسى معجزتان هما اليد والعصا، فرأى آيات الله الكبرى. واطمأنّ للنهوض بالتّبِعَةِ العظمى.

***

أمر الله موسى، أن يذهب إلى فرعون رسولاً و داعياً إلى الهدى، ومبشّراً بالجنة، لمن أطاع الله، وبالنار لمن عصاه.

فطلب موسى من ربه أن يشرح له صدره، وأن ييسّر له أمره، وأن يَحُلَّ حُبْسةً في لسانه ليفقَه الناس قوله، وأن يمنّ الله عليه بِمُعينٍ من أهله، هو أخوه هارون.

واستجاب الله دعاء موسى وحباه بفضل زائدٍ، وذكّره بأفضاله عليه صغيراً وناشئاً، حيث نجّاه عندما قَتَلَ قتيلاً خطأً، وألقى عليه المحبّة، وربّاه برعايته، وصنعه بعين عنايته. قال سبحانه:

﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾.

(١) البُهاق: مرضٌ يذهب بلون الجلد، فتقع فيه بقع بيض.

(٢) البَرَص: بياض يقع في الجسد، لعلّة.

وكانت عناية الله معه في شبابه حين نجّاه من كيد أتباع فرعون، وكانت عناية الله معه في رحلته إلى أرض مَدْيَنَ، ثم في عودته إلى أرض مصر، على موعد وتدبير إلهي. قال تعالى:

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾.

وكلّف الله موسى أن يذهب مع أخيه هارون إلى فرعون، بعد أن طغى فرعون وتجبّر، ليقولا له قولا ليّناً، لا يهيّج الكبرياء الزائف ولا يثير العزّة بالإثم؛ لعلّ قلبه، أن يتّعظ أو يتذكّر.

أدلّة موسى (ع) على وجود الله تعالى

توجه موسى وهارون إلى فرعون ليبلغاه رسالة الله رب العالمين، فقال فرعون، كما ورد في التنزيل:

﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾.

فأجاب موسى، كما ورد في التنزيل أيضاً:

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾.

وهي إجابة تلخّص أكمل آثار الألوهيّة الخالقة المدبّرة لهذا الوجود: هِبَة الوجود لكل موجود، وهبة خلقه على الصورة التي خلق بها، وهبة هدايته للوظيفة التي خلق لها.

وثنّى فرعون بسؤال آخر:

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

ما شأن القرون التي مضت من النّاس؟ أين ذهبت؟ ومن كان ربّها؟ ومايكون شأنها، وقد هلكت لا تعرف إلهها هذا؟

وأجاب موسى: إنّ علمها عند الله الذي لا تخفى عليه خافية، وقد سجل عملها في كتاب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها.

وقد تفضّل الله على الناس بالنعم المتعدّدة؛ فمهّد لهم الأرض، وذلّل سبلها، وأنزل الماء من السماء، فأجرى به نهر النيل وغيره من الأنهار، ليخرج الماء أزواجاً متعدّدة من النباتات، يستفيد منها الإنسان والحيوان.

وقد خُلق الانسان من الأرض، ثم رُزق من نباتها ومائها، ثم يعود إليها، ثم يبعث منها يوم القيامة.

عرض موسى هذه الآيات الكونية أمام فرعون، وأراه المعجزات الظاهرة الملموسة، من اليد والعصا.

ولكنّ فرعون قابل هذه المعجزات الواضحة، والحجج البالغة، بالجحود والكُنود[1] وأخذ فرعون يكيل التهم لموسى، ويسفّه دعوته، ويصفه بالطمع في الملك، ويصف معجزاته بأنها سحر ظاهر مبين.

موسى والسحرة

توعّد فرعون موسى بأن يجمع له السحرة من كلّ مكان، ليبطلوا سحره ويظهروا عجزه. وقَبِل موسى التحدّي، وحدّد يوم العيد واجتماع الناس في زينتها الجديدة موعداً للمبارزة، حتّى يشيع الحق ويظهر ظهور الشمس.

وجُمِعَ السحرة في يوم العيد، ولم يتخلّف واحد منهم؛ فإذا بهم آلاف، مع كل واحد منهم حبل وعصا، وخيّروا موسى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴿٦٥﴾﴾.

فترك لهم موسى فرصة البدء، واستبقى لنفسه الكلمة الأخيرة.

فتقدّم السحرة وألقوا ما في أيديهم من حبال فتحركت الحبال وماجت بها الساحة، وسَحَرَت عيون المشاهدين، وملأتهم بالرهبة والإجلال لهذا العمل العظيم.

وخشي موسى أن يُخدع الناس عن الحق، وأدركه خوف الداعية على دعوته، فذكّره الله سبحانه، بأنه معه، وبأنه على الحق وعدوّه على الباطل، وبأنه رسول مؤيد بالمعجزة؛ وعدوّه ساحر، مضلّل مخادع:

﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴿٦٩﴾﴾.

وألقى موسى عصاه، فابتلعت أعمال السحرة في سرعة مذهلة، وأدرك السّحرة أنّ عمل موسى ليس سحراً، ولكنه معجزة وبرهان من الله على صدق رسالته؛ فإذا بهم يَخِرُّون لله ساجدين توبةً عما صنعوا، وخشوعاً لهيبة الحقّ، وإكباراً لذلك الأمر الخطير، وإيماناً بالله ربّ العالمين.

وعندئذ غَلَتْ مراجل الحقد

(١) الكنُود: كفر النعمة وجحدها.

والحفيظة في صدر فرعون، ولامَ السحرةَ على إيمانهم بموسى، قبل أن يأذن لهم.

وقال: إنه أستاذكم وكبيركم الذي علّمكم السحر، فاتّفقتم معه على فعلكم ومؤامرتكم:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١)﴾.

ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان. بعد أن تخلل صدورَهم نورُ الإيمان، فوصلهم بخالقهم فزهدوا في عَرَضِ الدنيا وسلطانها، وتطلّعت قلوبهم إلى مَرْضاة الله، وفضّلوا ثواب الآخرة على كل ما عداه:

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣)﴾.

غرق فرعون ونجاة موسى

استمرّ موسى في أداء رسالته وقيامه بواجب دعوته، وقد اشتد إيذاء فرعون وأتباعه للمؤمنين، فاستغاثوا بموسى، فخرج موسى بهم ليلاً إلى الأرض المقدّسة، وقد سهّل الله إليها طريقهم، واعترض البحر سبيلهم، فاستغاثوا بموسى قائلين: البحر أمامنا وفرعون وراءنا. فأوحى الله إلى موسى أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر، فضربه بعصاه، فتولّت قدرة الله أن تيسّر لهم في البحر اثني عشر طريقاً يابساً ممهّداً للسير، فسار كل فريق في طريق، وحفظتهم عناية الله من فرعون؛ وحينما حاول فرعون اللحاق بهم، أطبقت عليه وعلى جنوده مياه البحر، وأدركهم الغرق والهلاك. ونجّى الله المؤمنين، وأذلّ الكافرين. وجعل من ذلك عظة وعبرة لمن اعتبر، فمن آمن بالله وجاهد في سبيله كان في كنف الله ورعايته، ومن كفر بآيات الله وخرج عن طريق هدايته أعد الله له العذاب والنّكال. ونظر بنو إسرائيل في دهشة إلى مصرع الجبابرة العتاة، ثم نجّى الله فرعون ببدنه، ليكون آية لمن خلفه، ودليلاً على أنّ الله يملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته.

موسى والسامري

ترك موسى قومه وذهب لميعاد ربّه عَجِلاً مشتاقاً لمناجاته، وانتهز السامريُّ الفرصة، فصنع لبني إسرائيل عِجْلاً من

الذهب، بطريقة فنية، تجعل الريح تمرّ فيه، فتحدث صوتاً وخُواراً.

وقال لهم: إنّ موسى لن يعود إليكم. لقد ذهب لمقابلة ربّه فضلّ الطريق إليه، وهذا هو إلٰهكم وإله موسى.

وفُتِنَ بنو إسرائيل بعبادة العجل، فقد أَلِفُوا الذل وطاعة فرعون.

وعاد موسى غضبانَ أسِفاً يلوم هارون على تباطئه عن إخماد هذه الفتنة، فاعتذر له بأنه صبر حتّى يعود، فيلتئم الشمل وتعود الوحدة إلى الجماعة.

وتوعّد موسى السامريّ بالعذاب والنّكال، وأمر بطرده من محلّة بني إسرائيل. فخرج طريداً هو وأهله إلى البراري، ثم أتى موسى بالعجل فحرقه بالنار، ونسف رماده في اليمّ، ليبيّن لقومه أنّ مثل هذا لا يصح أن يُتّخذ إلٰهاً:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾.

مشاهد القيامة وختام السورة

بدأت سورة طه بمقدّمة في بيان جلال الله وقدرته وعلمه الواسع في الآيات ١ ـ ٨.

ثمّ تحدّثت عن رسالة موسى وجهاده في مصر، وجهوده مع بني إسرائيل في الآيات ٩ ـ ٩٨.

وبعد قصة موسى تجيء الآيات ٩٩ ـ ١١٤ تعقيباً على هذه القصّة ببيان فضل القرآن، وعاقبة من يُعْرِض عنه؛ وترسم الآيات هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة، تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا، وتتكشّف الأرض من جبالها وتَعْرى، وتخشع الأصوات للرحمٰن، وتعنو الوجوه للحَيّ القيّوم؛ لعلّ هذا المشهد وما في القرآن من وعيد يثير مشاعر التقوى في النفوس، ويذكّرها بالله ويصلها به. وينتهي هذا المقطع، بإراحة بال الرسول (ص) من القلق من ناحية القرآن الذي ينزل عليه، فلا يعجل في ترديده خوف أن ينساه، ولا يشقى بذلك فالله ميسّره وحافظه، وإنّما يطلب من ربّه أن يزيده علماً.

وفي مناسبة حرص الرسول (ص) على أن يردّد ما يوحى إليه قبل انتهاء الوحي خشية النسيان، تعرض الآيات ١١٥ ـ ١٢٣ نسيان آدم لعهد الله وتنتهي بإعلان العداوة بينه وبين

إبليس، وعاقبة من يتذكّرون عهد الله ومن يعرضون عنه من ولد آدم. وترسم الآيات هذه العاقبة في مشهد من مشاهد القيامة، كأنما هو نهاية الرحلة التي بدأت في الملأ الأعلى، ثم تنتهي إلى هناك مرّة أخرى... وفي ختام السورة تسلية للرسول (ص) عن إعراض المعرضين وتكذيب المكذّبين فلا يشقى بهم، فلهم أجلٌ معلوم. ولا يَحْفِل بما أوتوه من متاعٍ في الحياة الدنيا فهو فتنة لهم، وينصرف إلى عبادة الله وذِكْرِهِ فترضى نفسه وتطمئنّ، ولقد هلكت القرون من قبلهم، وشاء الله سبحانه أن يُعْذِرَ إليهم بالرسول الأخير، ليعلن إليهم: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

***

وبذلك تختم السورة التي حددت وظيفة القرآن في بدايتها:

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾﴾.

وأكّدت هذه الوظيفة في نهايتها، فهي التذكرة الأخيرة لمن تنفعه التذكرة؛ وليس بعد البلاغ إلاّ انتظار العاقبة، والعاقبة بيد الله.

وقد كانت قصة موسى ونهاية فرعون، خلال السورة، تحقيقاً لهذا المعنى وتأكيدا لفوز المؤمنين ومصرع المكذّبين؛ وبذلك يتناسق المطلع والختام، وتكون السورة أشبه بموضوع، له مقدّمة، ثمّ قصّة تؤيّد المقدّمة، ثم خاتمة تؤكّد الموضوع. وظهر أنّ بين أجزاء السورة وحدة فكرية خلاصتها:

شمول فضل الله ورحمته وعطفه، لأحبابه المؤمنين، وإيقاع نقمته وعذابه بالكافرين والمكذّبين.

ترابط الآيات في سورة «طه»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نزلت سورة طه بعد سورة مريم، ونزلت سورة مريم فيما بين الهجرة إلى الحبشة وحادثة الإسراء فيكون نزول سورة طه في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سمّيت هذه السورة بهذا الاسم لابتدائها به، وتبلغ آياتها خمساً وثلاثين ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة، حثُّ النبي (ص) على الصبر على ما يلقاه من إعراض قومه عن دعوته؛ ولهذا افتتحت بأنه لم ينزل عليه القرآن ليشقى إذا لم يؤمنوا به، لأنه ليس عليه إلا أن يُذَكِّر به من يخشى، فإذا لم يؤمنوا به فلا شيء عليه من عدم إيمانهم؛ ثم قصّ عليه بعد هذا قصّة موسى من أوّلها إلى آخرها، ليتأسّى بما كان من ثباته أمام فرعون، ومن صبره على عناد بني إسرائيل؛ ثمّ قصّ عليه بعدها قصّة آدم، ليحذّره ممّا وقع فيه بسبب التعجّل، وعدم الصبر على الابتلاء والاختبار؛ ثم ختمت السورة بحثّ النبيّ (ص) على الصبر كما افتُتِحت به.

وقد ذكرت هذه السورة بعد سورة مريم، لأنّها تشبهها في غلبة الأسلوب القصصي عليها. فهي تعدّ من هذه الناحية كأنها تكميل لها ولسورة الكهف، وتقرير لما ورد في آخر سورة

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجمايز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

الكهف، من أن كلمات الله في ذلك لا نفاد لها.

الحث على الصبر
[الآيات ١ ـ ٨]

قال الله تعالى: ﴿طه۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ۝٢﴾ فذكر سبحانه أنه لم ينزل عليه القرآن ليشقى إذا كفروا به أسفاً على كفرهم، لأنه لم ينزله عليه إلاّ ليذكُر به من يخشى عقابه، فهو الذي يُرجى إيمانه به؛ ثم نوّه بشأن هذا القرآن الذي يُعرِضون عنه، فذكر أنه تنزيل ممّن خلق السماوات والأرض، إلى غير هذا من صفات العظمة التي ذكرها، وختمها تعالى بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ۝٨﴾.

قصة موسى
الآيات [٩ ـ ١١٤]

ثم قال تعالى ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ۝٩﴾ فذكر قصّة موسى حين رجع من مَدْينَ إلى مصر، وأنه رأى ناراً فذهب إليها، وهناك ناداه ربّه أنه اختاره لرسالته، وأنه أعطاه آيتين: آية عصاه يلقيها فتكون حيّة تسعى، وآية يده يضمّها إلى جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء. ثم أمره أن يذهب إلى فرعون، لأنه طغى وادّعى الألوهية فقبل الرسالة، ودعا الله أن يشرح له صدره حتى لا يضيق بما يلاقيه في تلك الدعوة، وأن يُشرِكَ معه أخاه هارُون، فأجابه سبحانه إلى طلبه؛ ثم أمرهما أن يذهبا إلى فرعون، وأن يقولا له قولاً ليّناً، لعلّه يتذكّر أو يخشى. فلمّا أتياه، قالا له إنّا رسولا ربّك إليك، وطلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل، ويكُفّ عن عذابهم، وأخبراه بأنّهما قد جاءاه بآية من ربّه، تدلّ على صدقهما. ثم ذكر سبحانه أن فرعون سأل موسى عن ربّه، فأجابه بأنّه جلّ جلاله هو الذي أعطى كلّ شيء خَلْقَهُ ثمّ هَدَى، وأنه سأله عن حال القرون الأولى كيف يحيط بها علمه مع تمادي كثرتها، فأجابه بأن كل ما سلف مُثْبَت عنده في كتاب فلا يضل عنه ولا ينساه. ثم ذكر تعالى أن موسى أرى فرعون الآيتين السابقتين فكذّب وأبى، وزعم أنهما سِحْرٌ يريد موسى أن يُخْرِج به فرعون وقومه من أرضهم، وأخبره بأنهم سيأتونه بسحرٍ مثله؛ وطلب منه أن يجعل بينهم وبينه موعداً يجتمعون فيه، فضرب لهم موسى يوم

الزينة موعداً، وهو يوم عيدٍ لهم؛ فجمع فرعون سَحَرَتَهُ في هذا اليوم، وكانوا قد أتوا بحبالٍ وعِصِيٍّ لطّخوها بالزِّئبق، فألقوها في الشمس، فاضطربت واهتزّت، وخيِّل إلى الناس أنها حيّات تسعى، فألقى موسى عصاه، فإذا هي أعظم من حيّاتهم، ثم أخذت تزداد عِظَماً حتى ملأت الوادي، وذهبت إلى حيّاتهم فأكلتها؛ فعرف السَّحَرَةُ أنّ هذا ليس بسحر، وآمنوا بربِّ موسى وهارون؛ وقد هدّدهم فرعون بما تهدّدهم به، فلم يرجعوا عن إيمانهم.

ثم ذكر سبحانه أنه أوحى الى موسى أن يسير ببني إسرائيل ليلاً، وأنّ فرعون تَبِعَهم بجنوده حينما علم بهربهم، وأنه جلَّ وعلا، شقّ البحر لبني إسرائيل فاجتازوه، وأنّ فرعون أدركهم وهم يجتازونه، فتبعهم بجنوده ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)﴾.

ثم انتقل الكلام إلى ما كان بعد ذلك من بني إسرائيل، فذكر أنه أنجاهم من فرعون عدوّهم، إلى غير هذا ممّا ذكره من نعمه عليهم؛ ثم أمرهم أن يأكلوا من طيّبات ما رزقهم، ونهاهم أن يطغوا فيه لئلاّ يحلّ غضبه عليهم، ثم ذكر ما كان من فتنتهم بعبادة العجل بعد ذهاب موسى لميعاد ربه، وأنّ موسى حينما رَجَعَ إليهم لامهم على ما كان منهم، فذكروا له أن السامِرِيّ هو الذي أغواهم بعبادة العجل، إذ صنع لهم من حِلِيِّهم عِجْلاً جسداً له خُوار، وزعم لهم أنه إلٰههم وإلٰه موسى، فافتتنوا بذلك وصدّقوه في زعمه؛ ثم ذكر أن هارون نهاهم عن ذلك، فذكروا له أنهم سيقيمون عليه إلى أن يرجع موسى إليهم. وأن موسى لام هارون على أنه لم يقاتلهم هو ومن لم يعبد العجل، فأجابه بأنه خشي أن يفرّق بينهم بالقتال، فاكتفى بنصحهم ووعظهم؛ ثم ذكر أن موسى سأل السامري بعد ذلك عمّا دعاه إلى فتنة قومه، فأخبره بأنه كان قد أخذ بعضاً من سنّته ودينه، ثم بدا له فنبذها ودعا إلى تلك العبادة، فأمر موسى بطرده من خُلْطَةِ بني إسرائيل، فخرج طريداً هو وأهله إلى البراري. ثم أتى بالعجل فحرقه بالنار ونسف رماده في اليمّ، ليبيّن لهم أن مثل هذا لا يصح أن يُتَّخَذَ إلهاً ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾.

ثم ذكر أنه يقصّ عليه ذلك ليكون عظة له ولقومه؛ وأنه أنزل القرآن بمثل ذلك ليذكّرَهُمْ به، وانتقل السياق من ذلك إلى تهديد من يُعْرِض عن سبيله تعالى بما هدّده به من العقاب الذي يَثْقُل حملُه عليهم، ومِنْ حَشْرهم زُرْقاً يوم ينفخ في الصُّورِ، فيقومون من قبورهم، ويتساءلون بينهم عن مدة لَبْثِهم قبل قيامهم، فيذكر بعضهم أنهم لم يلبثوا إلاّ عشرة أيام ويذكر بعضهم أنهم لم يلبثوا إلاّ يوماً؛ لأنّ شدة الأهوال، تنسيهم مدة لَبْثهم؛ ثم ذكر أن الجبال تُنْسف بعد النفخ في الصُّور، وأنّ الأرض تكون ملساء مستوية لا نبات فيها، وأنهم يُدْعَوْنَ إلى الحشر فيسير الداعي بهم لا يُعَرِّجُ هنا أو هناك، فإذا وقفوا للحساب خشعت الأصوات للرحمن، فلا يشفع عنده إلاّ من أذن له ورضي قوله. ثم ذكر سبحانه أن وجوههم تَعْنُو له جلّ جلاله وتخضع لحكمه، فيحرم من الثواب من حمل ظُلْماً في الدنيا، وينال من عمل صالحاً ثوابه، ولا يخاف ظلماً ولا هضماً، ثم ذكر أنه أنزل القرآن، وكرّر فيه هذا الوعيد، لعلهم يتّقون، أو يُحْدِثَ لهم ذِكراً: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴿١١٤﴾﴾.

قصة آدم
الآيات [١١٥ ـ ١٢٧]

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴿١١٥﴾﴾ فذكر سبحانه أنه عَهِد إلى آدم في الجنّة ألا يأكلَ من الشجرة فضاق صدره بذلك التكليف، وضَعُفَ عن تحمّله، فعوقب على ذلك بالخروج من الجنّة، وقد أتى السياق بذلك من أول الأمر، ليدل على موضع العبرة من ذكر قصة آدم؛ ثم ذكر تفصيل ذلك من أمر الملائكة بالسجود له جلّ جلاله، وأنهم أطاعوه فسجدوا إلاّ إبليس أبى، إلى أن ذكر ما كان من أمر آدم وحَوّاء بالهبوط من الجنّة، وعهده إليهما وإلى ذرّيتهما، أنه إذا أتاهم منه هُدًى فمن اتّبعه فلا يضلّ ولا يشقى، ومن أعرض عنه فإنّه يقضي دنياه في ضَنْكٍ وشدّة؛ لأنّ الكفر لا اطمئنان معه، ثم يكون حاله في الآخرة أسوأ من الدنيا، ويُحْشَرُ فيها أعمى؛ فإذا سأل ربَّه لِمَ حشره أعمى وقد كان بصيراً، أجابه بأنه كذلك أتته آياته فَنَسِيَهَا وكذلك

اليوم يُنسى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

الخاتمة

الآيات (١٢٨ ـ ١٣٥)

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾، فحذّرَ كفار قريش أن يصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم الذين يمشون في مساكنهم، وذكر أنه لولا قضاء الله بأنه لا يهلكهم كما أهلك من كان قبلهم، لكان عذابه لزاماً لهم، ثم أمر النبي (ص) بأن يصبر على تعنّتهم، وأن يستعين على هذا بالمثابرة على الصلوات في أوقاتها؛ ونهاه أن يمدّ عينيه إلى ما متّع به بعضهم من زينة الدنيا، لأنّ ما عنده من الثواب خيرٌ وأبقى؛ ثم ذكر أنّ مِنْ تَعنّتهم، أنهم اقترحوا على النبيّ (ص) آية تدل على نبوّته، وأجابهم بأنهم قد أتاهم أخبار الأمم السابقة في الصحف الأولى، إذ طلبوا من الآيات مثل طلبهم ولم يؤمنوا بها، فأهلكهم الله وعجّل لهم عذابهم؛ ولو أنه جلّ وعلا أهلكهم قبل أن يرسل إليهم رسلهم، ويجيبهم إلى ما اقترحوا من الآيات، ﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾.

أسرار ترتيب سورة «طه»(*)

أقول: روينا عن ابن عبّاس وجابر بن زيد، في ترتيب النزول: أن «طه» نزلت بعد سورة مريم، بعد ذكر سورة أصحاب الكهف. وذلك وحده كافٍ في مناسبة الوضع، مع التآخي بالافتتاح بالحروف المقطّعة.

وظهر لي وجهٌ آخَرُ، وهو: أنه لمّا ذكرت في سورة مريم قِصَص الأنبياء، زكريا، ويحيى، وعيسى، مبسوطة، وقصّة ابراهيم، وهي بين البسط والإيجاز، وقصّة موسى، وهي موجزة بجملة[1]، فقد أشير إلى بقية النبيّين إجمالاً[2]. وذكر في هذه السورة شرح قصّة موسى، التي أجملت هناك، فاستوعبت غاية الاستيعاب وبُسّطت أبلغ بسط[3] ثم أشير إلى تفصيل قصّة آدم، الذي وقع مجرد اسمه هناك،[4] ثم ورد في سورة «الأنبياء» بقيّة قصص من لم يذكر في مريم، كنوح، ولوط، وداود، وسليمان وأيوب وذي الكفل،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) وردت قصّة موسى في ثلاث آيات قصار من «مريم» [٥١ و ٥٢ و ٥٣].

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ [مريم/٥٨].

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ إلى ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ۝٩٧﴾

(٤) وقع مجرد ذكر اسم آدم في «مريم» في قوله تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ [مريم/٥٨]. وذكرت قصّته مفصّلة في «طه» من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [الآية ١١٦] إلى ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [الآية ١٢٣].

وذي النون، وأشير إلى قصّة من ذكرت قصّته إشارة وجيزة، كموسى، وهارون، وإسماعيل، وزكريا، ومريم، لتكون السورتان كالمتقابلتين.

ويسطت في سورة «الأنبياء» قصّة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه، ولم تذكر حاله مع أبيه إلاّ إشارة[1]. كما أنّه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة، ومع أبيه مبسوطاً[2]. فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب، وبديع هذا الترتيب.

---

(١) قصة ابراهيم (ع) في الأنبياء وردت في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الأنبياء/ ٥١]. الى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء]. وكلّها في إبراهيم وقومه. أما عن إبراهيم وأبيه، فأشير إليها في قوله ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ [الأنبياء/ ٥٢].

(٢) وردت قصّة إبراهيم وأبيه في «مريم» من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم/ ٤٢]. الى ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم]. وجاءت الاشارة اليه مع قومه في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم/ ٤٨].

مكنونات سورة «طه»(*)

١ ـ ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [الآية ٤٠]

قال قتادة: عَشراً. أخرجه ابن أبي حاتم.

٢ ـ ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [الآية ٥٩] .

قال ابنُ عبّاس: هو يوم عاشوراء. أخرجه ابنُ أبي حاتِم.

٣ ـ ﴿ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [الآية ٨٥] .

اسمه: موسى بنُ ظفر. أخرجه ابنُ أبي حاتم عن ابنِ عبّاس. وأخرج عنه: أنه كان من أهل كَرِمان. ومن وجه آخر عنه: من أهل باجرقا(١).

وعن قتادة: كان من قرية اسمها سامرة.

٤ ـ ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [الآية ٩٦] .

هو جبريل، كما أخرجه ابن أبي حاتم، عن عليّ، وابن عبّاس، وغيرهما.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفحِمات الأقران في مُبْهمات القرآن» للسُّيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرخ.

(١) ولعلها «باجَرْما» وهي قرية من أعمال البليخ قرب الرقة من أرض الجزيرة في شمال الشام، كما في «معجم البلدان» ١/ ٣١٣. قال ابن كثير عن ابن عباس: وكان من قوم يعبدون البقر.

لغة التنزيل في سورة «طه»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤)﴾.

ووصف السماوات بـ (العُلى) دلالة على عِظَم قدرة من يخلق مثلها، في علوّها وبُعد مرتقاها.

أقول: ﴿وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤)﴾، أي: العالية وهو من باب الوصف بالمصدر، ومعناه اسم الفاعل، كقولهم: شاهد عَدْلٌ، والمعنى عادل أو ذو عدل.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨)﴾.

(الحسنى): تأنيث الأحسن.

أقول: وقد تحوّلت «الحسنى» إلى مصدر، كالتقوى والبقيا والبلوى ونحو ذلك؛ ومنه قوله تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس/٢٦].

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النحل/٦٢].

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصّلت/٥٠].

وآيات أخرى، وكنا عرضنا إلى شيء من هذا في آية سابقة.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)﴾.

وقوله تعالى: ﴿طُوًى (١٢)﴾ بالضم والكسر منصرف وغير منصرف بتأويل المكان والبقعة، وقيل: مرّتين نحو ثُنًى، أي: نداءين، أو قُدِّسَ الوادي كرّةً بعد كرّةٍ.

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [الآية ١٥].

أي: أكادُ أخفيها فلا أقول هي آتية لفرط إرادتي إخفائها، ولولا ما في الإخبار بإتيانها، مع تعمية وقتها من اللطف، لما أخبرت به.

وقيل: معناه أكاد أخفيها من نفسي.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ أي: لِتُرَبّى وَتُغذّى بمرأى منّي، أي يجري أمرك على ما أريد بك من الرفاهة في غذائك. والكلام على موسى (ع).

٦ ـ وقال تعالى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾.

قُرئ (سِوَى) بالكسر أيضاً، وهو منوّن وغير منوّن ومعناه: منصفاً بيننا وبينك؛ عن مجاهد.

وهو من الاستواء، لأنّ المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية، لا تفاوت فيها.

وقيل معناه مكان عدل بيننا وبينك؛ عن قتادة.

وهذا من الكلم الذي لولا القرآن لكان من الضائع من مادة العربية القديمة.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [الآية ٦١].

وقوله تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾، أي: يستأصلكم بعذاب، عن قتادة والسُدّيّ.

وقيل: «يُهلككم» عن ابن عبّاس، وغيره.

أقول: وأصل السُّحت: استقصاء الحلق، يقال سَحَتَ شعرَه إذا استأصلَه. وسَحَتَه الله وأسحته إذا استأصله وأهلكه.

أقول أيضاً: ومنه قول الفرزدق:

وعَضُّ زمانٍ يا ابْنَ مروانَ لم يَدَعْ
مِنَ المالِ إلاّ مُسْحتاً أو مُجَلَّفُ

قال الزمخشري:

والبيت لا تزال الرُّكَب تصطكُّ في تسوية إعرابه.

أقول: وليس من هذا كلمة «السُّحت» التي وردت في القرآن في سورة المائدة في قوله تعالى:

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة/ ٤٢].

٨ ـ وقال تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾، أي: أنّهم تشاوروا في السّرّ، وتجاذبوا أهداب القول. وهذا معنًى جميل لكلمة «التنازع».

٩ ـ وقال تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾.

أقول: في الآية الكريمة ضربٌ من الإيجاز البليغ في قوله تعالى: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ من باب الاختصار، وهذا من جوامع الكلم التي تستقلّ مع قلّتها بالمعاني الكثيرة.

أي غشيهم ما لا يعلم كنهه إلاّ الله.

وإذا كانت البلاغة بالإيجاز، فإن ذلك واضح، كل الوضوح، في هذه الآية، التي جاء الإيجاز فيها مؤذناً بالكثير من المعاني، التي ينصرف إليها الذهن تصوّراً وتحقّقاً.

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الآية ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: عجلاً جَسِماً.

أقول: وهذا من باب الوصف بالاسم الجامد، على التأويل والمعنى: عجلاً ذا جَسَدٍ أو جِسم، أو مُجسَّداً مُجسَّماً كما نقول بلغة هذا العصر.

١١ ـ وقال تعالى: ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾.

أقول: هذا شاهد في أنّ (لن) النافية الناصبة لا تقتضي التأبيد، ذلك أن عدم البراح موقوت بالمدة التي هي قبل رجوع موسى.

وقد أردت التنبيه على هذه المسألة التي أشار إليها النُّحاة، وأنكروا على الزمخشري في «مُفَصّله» أنها تفيد التأبيد، أقول: أردت التنبيه على هذه المسألة، لأؤكّد ما درج عليه المعاصرون من استعمال هذه الأداة إرادة التأبيد، كقولهم: لم أقل هذا ولن أقوله.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ [الآية ٩٦].

قرأ الحسن: (قُبضة) بضم القاف، وهي اسم المقبوض كالغُرفة والمُضغة.

وأما (القَبْضة) بفتح القاف فهي المرّة من القبض، وإطلاقها على المقبوض من باب تسمية المفعول بالمصدر.

وقُرِئ أيضاً: فقبصتُ قبصةً بالصّاد المهملة.

وقيل: من قرأ بالضاد فهو بجميع الكفّ، ومن قرأ بالصّاد فبأطراف الأصابع. أقول: ليس هذا التفريق وجيهاً، وذلك لأنه لم يؤيد في كلام العرب، وأرى أن الفعل بالضاد كالفعل بالصاد، وتلك مسألة تتصل بـ «اللهجات».

ويؤيّد هذا ما ورد في الآية الكريمة:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء/ ٩٨].

وقرئت حضَبُ بالضاد المعجمة، كما قرئت: حطب بالطاء.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ظَلْتَ﴾، والأصل «ظَلَلْتَ»، فحذفت اللام الأولى، ونقلت حركتها إلى الظاء.

أقول: أرى أن اللام قد حذفت، وليس من نقل للحركة، والحذف للتخفيف ليس غير.

ولم نجد نظير هذا الحذف، في نظائر الفعل من المضاعف.

وقوله تعالى: ﴿لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ بمعنى لنُذَرِّيَنَّه.

وفي عربيتنا المعاصرة، يقال: نَسَفَ البناء، أي أزاله وأفناه.

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ بالنون المكسورة، وحقُّها أن تكون «تَتَّبِعَني» بالياء.

أقول: وحذف الياء، يعني قصر المدّ قليلاً؛ والاجتزاء عنه بالكسرة القصيرة، ليس مسألة من مسائل رسم المصحف، بل إنّ هذا الرسم الذي يباح فيه حذف ما لا يحذف، يؤدّي غرضاً صوتياً يتّصل بحسن الأداء؛ وذاك أن المدّ القصير، أي: الكسرة أنسب إلى المدّ القصير بعدها، أي: الفتحة في قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ﴾، وهذا عند الوصل، الذي هو أولى في هذا الموضع الذي يباح فيه الوقف الجائز.

المعاني اللغوية في سورة «طه»(*)

قال تعالى: ﴿طه ۝١﴾ منهم من يزعم أنها حرفان مثل ﴿حمٓ ۝١﴾ ومنهم من يقول ﴿طه ۝١﴾ يعني: يا رجل في بعض لغات العرب.

وقوله تعالى ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ بدل من قوله ﴿لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ أي «ما أنزلنا القرآنَ عليك إلاّ تَذْكِرَةً»[١].

وقال تعالى: ﴿تَنزِيلًا﴾ [الآية ٤] أي: أنْزَلَ الله ذلكَ تنزيلاً.

وقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الآية ٥] أي: هُوَ الرحمنُ[٢].

وقال سبحانه ﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [الآية ١٨] وواحدتها: «مأرُبَة».

وقال: ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢﴾ [الآية ٢٢] أي: أخرج آية أخرى بجعله بدلاً من قوله ﴿بَيْضَآءَ﴾[٣] [الآية ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ [الآية ٤٢] من «وَنَى» و «يَنِي» «وَنْياً» و «وُنِيّاً».

وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [الآية ٦٣] «إن» خفيفة في معنى ثقيلة، وهي لغة لقوم يرفعون ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى «ما»[٤]، ونقرأها ثقيلة،

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) نقله في زاد المسير ٥/ ٢٧٠.

(٢) نقله في الجامع ١١/ ٢٢٦.

(٣) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٦٤٧ والجامع ١١/ ١٩١.

(٤) هي في السبعة ٤١٩ قراءة عاصم في رواية، وفي حجّة ابن خالويه ٢١٧ الى ابن كثير وحفص عن عاصم وفي الكشف ٢/ ٩٩، والتيسير ١٥١ الى ابن كثير وحفص، وفي الجامع ١١/ ٢٢٦ زاد الزهري والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن، وزاد في البحر ٦/ ٢٥٥ ابن سعيدان وأبا حيوة، وأبا الحرية وحميد وابن سعدان.

وهي لغة لبني الحارث بن كعب[1].

وقوله تعالى ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴿٦٣﴾﴾ [الآية ٦٣] تأنيث «الأمثل»[2] مثل: «القُصْوَى» و«الأقْصَى».

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴿٦٩﴾﴾ [الآية ٦٩] وتقول العرب: «جِئْتُكَ من أيْنَ لا تَعْلَمُ» و «مِنْ حَيْثُ لا تَعْلَمُ».

وقال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ﴾ [الآية ١١١] من: «عَنَتْ» «تَعْنُو» «عُنُوّاً».

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ [الآية ١٢٩] كأنه يريد: ولولا ﴿أَجَلٌ مسمى﴾ [الآية ١٢٩] لَكانَ لِزاماً.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴿١٣٢﴾﴾ أي: والعاقبة لأهْلِ التقوى.

وقال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴿٥﴾﴾ أي قَدِرَ. ولم يزل قادراً، ولكن أخبر بقدرته.

وقال تعالى: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [الآية ٤٤] نحو قول الرجل لصاحبه: «اِفْرَغْ لَعَلَّنا نَتَغَدّى» والمعنى: «لِنَتَغَدّى» و«حتّى نَتَغَدّى» وتقول للرجل: «اِعْمَلْ عَمَلَك لَعَلَّكَ تأخُذُ أجْرَكَ» أي: لِتَأخُذَه[3].

وقال تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴿٥٣﴾﴾ يريد: «أزواجاً شتّى من نَبَاتٍ» أوْ يكونُ النباتُ هو شتى. كلُّ ذلك مستقيم[4].

وقال تعالى: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [الآية ٧٢] يقول: «لَنْ نُؤْثِرَكَ على الَّذي فَطَرَنا».

وقال تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ [الآية ٧٧] أي ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ [الآية ٧٧]

---

(١) في الطبري ١٦/ ١٨٠ الى عامة قراء الأمصار، وفي السبعة ٤١٩ الى نافع وابن عامر وحمزة والكسائي، الى عاصم في رواية، وفي حجة ابن خالوية ٢١٧ الى غير ابن كثير وحفص، وكذلك في التيسير ١٥١، وفي الجامع ١١/ ٢١٦ الى المدنيين والكوفيين، وفي البحر ٦/ ٢٥٥ الى أبي جعفر والحسن وشيبة والأعمش وطلحة وحميد وأيوب وخلف في اختياره وأبي عبيد وأبي حاتم وابن عيسى الأصبهاني وابن جرير وابن جبير الانطاكي والأخوين والصاحبين من السبعة.

(٢) نقله في التهذيب ١٥/ ٩٨ «مثل».

(٣) نقله في الأشموني ١/ ٢٨٠.

(٤) نقله في الجامع ١/ ٢٠٩.

﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ فيه ﴿دَرَكًا﴾ وحذف «فيه» كما تقول: «زيدٌ أكرمتُ»؛ تريد: «أكرمْتُهُ» وكما قال ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة/٤٨ و١٢٣] أي لا تَجْزي فيه.

لكل سؤال جواب في سورة «طه»(*)

إن قيل: قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا﴾.

لِمَ حكى الله تعالى قول موسى (ع) لأهله عند رؤية النار في هذه السورة، وفي سورة النمل وفي سورة القصص، بعبارات مختلفة، وهذه القضية لم تقع إلاّ مرّة واحدة؟

قلنا: قد سبق في سورة الأعراف، في قصّة موسى (ع) مثل هذا السؤال؛ والجواب المذكور، ثُمّ هو الجواب هنا.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ [الآية ١٦] ظاهر اللفظ نَهْيٌ من لا يؤمن بالساعة عن صدّ موسى عن الإيمان بها. والمقصود هو نهي موسى عن التكذيب بها. فهل بوسعكم شرح ذلك؟.

قلنا: معناه كن شديد الشكيمة في الدين، صليب المَعْجَم[1] لئلاّ يطمع في صدّك عن الايمان بها من لا يؤمن بها، وهذا كقولهم: لا أرَيَنَّك هُهنا؛ معناه لا تدنُ مني ولا تقرب من حضرتي لئلاّ أراك؛ ففي الصورتين النهي متوجه إلى المسبّب، والمراد به النهي عن السبب، وهو القرب منه والجلوس بحضرته، فإنه سبب رؤيته، وكذلك لين موسى (ع) في الدين وسلاسة قياده سببٌ لصدّهم إيّاه.

فإن قيل: ما الحكمة من السؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

(١) صليب المَعْجَم والمَعْجَمة: عزيز النفس إذا امتُحنَ وُجِدَ عزيزاً صلباً.

يَنْمُوسَىٰ ﴿١٧﴾، وهو أعلم بما في يده جملة وتفصيلاً؟

قلنا: الحكمة فيه، تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة الإجلال وقت التكلّم معه؛ كما يرى أحدنا طفلاً قد داخلته هيبة وإجلال وخوف، وفي يده فاكهة أو غيرها، فيلاطفه ويؤنسه، بقوله ما هذا الذي في يدك؟ مع أنه عالم به. الثاني: أنه تعالى أراد بذلك أن يقرّ موسى عليه السلام، ويعترف بكونها عصاً، ويزداد علمه بكونها عصاً رسوخاً في قلبه، فلا يحوم حوله شكّ إذا قَلَبها ثعباناً أنها كانت عصاً، ثمّ انقلبت ثعباناً، بقدرة الله تعالى. وأن يقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه فيتنبه على القدرة الباهرة. ونظيره أن يريك الحدّادُ قطعةً من حديد ويقول لك ما هذه؟ فتقول زُبْرَةٌ من حديد، ثم يريك بعد أيام درعاً واسعة مسرودة ويقول: هذه تلك القطعة صيّرتها إلى ما تراه من عجيب الصنعة، وأنيق السرد.

فإن قيل: قد ذكر الله تعالى عصا موسى (ع) بلفظ الحيّة والثعبان والجانّ؛ وبين الثعبان والجانّ تنافٍ، لأنّ الجانّ الحيّة الصغيرة كذا قاله ابن عرفة، والثعبان الحيّة العظيمة، كذا نقله الأزهري عن الزجّاج وقطرب.

قلنا: أراد سبحانه أنها في صورة الثعبان العظيم، وخفّة الحيّة الصغيرة وحركتها؛ ويؤيّد ذلك قوله جلّ وعلا: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل/١٠]. الثاني أنها كانت في أوّل انقلابها تنقلب حيّة صغيرة صفراء دقيقة، ثمّ تتورّم ويتزايد جرمها حتّى تصير ثعباناً؛ فأريد بالجانّ أوّل حالها، وبالثعبان مآلها.

فإن قيل: ما الحكمة في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ وهذا لا بيان فيه، لأنه مجمل؟

قلنا: الحكمة هي الإشارة إلى أنه ليس كل الأمور ممّا يوحى إلى النساء، كالنبوّة ونحوها، بل بعضها. الثاني: أنه للتأكيد، كقوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم] كأنّه قال: إذ أوحينا إلى أمك إيحاءً. الثالث: أنه أبهمه أوّلاً للتفخيم والتعظيم، ثمّ بيّنه وأوضحه، بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ [الآية ٣٩].

فإن قيل: لِمَ قُدّم هارون على موسى عليهما السلام، في قوله تعالى ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ

وَمُوسَىٰ﴿٧٠﴾﴾ وهارون كان وزيراً لموسى (ع) وتَبَعاً له؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴿٣٥﴾﴾ [الفرقان]؟

قلنا: إنّما قدّمه ليقع موسى مؤخّراً في اللفظ فيناسب الفواصل، أعني رؤوس الآيات.

فإن قيل: ما المراد في قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴿٧٤﴾﴾؟

قلنا: المراد: لا يموت فيها موتاً يستريح به، ولا يحيا حياة تنفعه ويستلذّ بها. الثاني: أنّ المراد لا يموت فيها موتاً متّصلاً، ولا يحيا حياة متصلة؛ بل كلّما مات من شدّة العذاب، أعيد حيّاً ليذوق العذاب، هكذا سبعين مرة في مقدار كلّ يوم من أيام الدنيا.

فإن قيل: الخوف والخشية واحد في اللغة، فلِمَ قال تعالى: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴿٧٧﴾﴾.

قلنا: معناه لا تخاف دَرَكاً: أي لحاقاً من فرعون، ولا تخشى غرقاً في البحر.

كما تقول: لا تخاف زيداً ولا تخشى عَمْراً، ولو قلت ولا عَمْراً صحّ وكان أوجز؛ ولكن إذا أعدت الفعل، كان آكد؛ وأما في الآية فلما لم يكن مفعول الخشية مذكوراً، وذكر الفعل ثانياً ليكون دليلاً عليه، وخولف بين اللفظين رعاية للبلاغة. وقيل معناه لا تخاف دركاً على نفسك، ولا تخشى دركاً على قومك؛ والأوّل عندي أرجح.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ [الآية ٧٩] يُغْني عن قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴿٧٩﴾﴾ ومفيد فوق فائدته فلِمَ ذكر معه؟

قلنا: معناه: وما هداهم بعد ما أضلّهم، فإنّ المضلّ قد يهدي بعد إضلاله. الثاني: أنّ معناه: وأضلّ قومه وما هدى نفسه. الثالث: أن معناه: وأضلّ فرعون قومه عن الدّين، وما هداهم طريقاً في البحر. الرابع: أنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴿٧٩﴾﴾ تهكّم به في قوله لقومه، كما ورد في التنزيل: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴿٢٩﴾﴾ [غافر].

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [الآية ٨٠] أضاف المواعدة إليهم؛ والمواعدة، إنّما كانت

لموسى (ع)، واعَدَهُ الله تعالى جانبَ الطّور الأيمن لإتيانه التوراة؟

قلنا: المواعدة، وإن كانت لموسى (ع)، ولكنّها، لمّا كانت لإنزال كتاب بسبب بني إسرائيل، وفيه بيان شريعتهم وأحكامهم وصلاح معاشهم ومعادهم، أضيفت إليهم المواعدة بهذه الملابسة والاتصال.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣)﴾ سؤال عن سبب العجلة، فإن موسى (ع) لمّا واعده الله تعالى بإنزال التوراة عليه بجانب الطور الأيمن، وأراد الخروج إلى ميعاد ربّه اختار من قومه سبعين رجلاً يصحبونه إلى ذلك المكان، ثمّ سبقهم شوقاً إلى ربّه وأمرهم بلحاقه، فعوتب على ذلك، وكان الجواب المطابق أن يقول: طلبت زيادة رضاك أو الشوق إلى لقائك وتنجيز وعدك، فلِمَ قدّم مالا يطابق السؤال، وهو قوله تعالى: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ [الآية ٨٤]؟

قلنا: ما واجهه ربّه به تضمّن شيئين: إنكار العجلة في نفسها، والسؤال عن سببها؛ فبدأ موسى (ع) بالاعتذار عمّا أنكره تعالى عليه، بأنه لم يوجد منه إلاّ تقدّم يسير لا يعتدّ به في العادة، كما يتقدّم المقدّم جماعته وأتباعه؛ ثم عقّب العذر بجواب السؤال عن السبب، بقوله كما ورد في التنزيل: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤)﴾.

فإن قيل: أليس أنّ أئمّة اللغة قالوا: العوج بالكَسْر في المعاني، وبالفَتْح في الأعيان، ولهذا قال ثعلب: ونقول في الأمر والدين عِوَجُ، وفي العصا ونحوها عَوَجٌ، كالجبال والأرض، فكيف صحّ فيها المكسور، في قوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا (١٠٧)﴾؟

قلنا: قال ابن السّكّيت: كل ما كان ممّا ينتصب كالحائط والعود، قيل فيه عَوَج بالفتح، والعِوج بالكسر ما كان في أرضٍ أو دين أو معاش، فعلى هذا لا إشكال. الثاني: أنه أريد به نفي الاعوجاج الذي يدرك بالقياس الهندسي ولا يدرك بحاسّة البصر، وذلك اعوجاج لاحِقٌ بالمعاني، فلذلك قال فيه عِوَج بالكسر؛ ومما يوضح هذا أنك لو سوّيت قطعة أرض غاية التسوية، بمقتضى نظر العين، بموافقة جماعة من البصراء، واتفقتم على أنه لم يبق فيها عوج قط، ثم أمرت المهندس أن يعتبرها بالمقاييس

الهندسية، وَجَدَ فيها عوجاً في غير موضع، ولكنه عِوَج لا يدرك بحاسة البصر، فنفى الله تعالى ذلك العِوج لما لطف ودقّ عن الإدراك، فكان لدقّته وخفائه ملحقاً بالمعاني.

فإن قيل: إنّ الله تعالى أخبر أن آدم (ع) نَسِيَ عهد الله ووصيّته، وأكل من الشجرة، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [الآية ١١٥] وإذا كان فَعَلَ ذلك ناسياً، فكيف وُصِفَ بالعصيان والغواية، بقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ فعاقبه عليه بأعظم أنواع العقوبة، وهو الإخراج من الجنّة؟

قلنا: النسيان هنا بمعنى الترك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة/ ١٤] أي تركناكم في العذاب، وقوله تعالى ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة/ ٦٧] فمعناه أنه ترك عهد الله ووصيته، فكيف يكون من النسيان الذي هو ضد الذُّكر؛ وقد جرى بينه وبين إبليس من المجادلة والمناظرة في أكل الشجرة، فصول كثيرة؛ ما ذكره تعالى في قوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ فكيف يبقى مع هذا نسيان؟

فإن قيل: لِمَ قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ ولم يقل فتشقيا، والخطاب لآدم وحواء (ع)؟

قلنا: لوجوه: أحدها أن الرجل قيّمُ أهله وأميرهم، فشقاؤه يتضمّن شقاءهم، كما أن معاداته تتضمن معاداتهم؛ فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها، لمّا كان متضمّناً له. الثاني: أنه إنما أُسند إليه دونها للمحافظة على الفاصلة. الثالث: أنه أريد بالشقاء: الشقاء في طلب القوت وإصلاح المعاش، وذلك وظيفة الرجل دون المرأة، قال سعيد بن جبير: أهبط إلى آدم (ع) ثور أحمر، فكان يحرث عليه، ويمسح العرق عن جبينه، فذلك شقاؤه.

فإن قيل: هل يجوز أن يقال: كان آدم عاصياً غاوياً، أخذاً من قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾؟

قلنا: يجوز أن يقال: عصى آدم، كما قال الله تعالى، ولا يجوز أن يقال كان آدم عاصياً، لأنه لا يلزم من جواز إطلاق الفعل جواز اطلاق اسم الفاعل؛ ألا ترى أنه يجوز أن يقال تبارك الله ولا يجوز أن يقال الله تبارك،

ويجوز أن يقال تاب الله على آدم، ولا يجوز أن يقال الله تائب؛ ونظائره كثيرة.

فإن قيل: أسماء الله تعالى وصفاته توقيفيّة لا مدخل للقياس فيها؛ ولهذا يقال الله عالم، ولا يقال علاّمة، وإن كان هذا اللفظ أبلغ في الدلالة على معنى العلم؛ فأما أسماء البشر وصفاتهم، فقياسية؛ فَلِمَ لا يجرى فيها على القياس المطّرد؟

قلنا: هذا القياس ليس بمطّرد في صفات البشر أيضاً، ألا ترى أنهم قالوا ذره ودعه بمعنى اتركه، وفلان يذر ويدع، ولم يقولوا منهما وَذَر ولاواذر، ولا ودَعَ ولاوَادِع، فاستعملوا منهما الأمر والمضارع فقط. ولقائل أن يقول: هذا شاذّ في كلام العرب ونادر، فلا يترك لأجله القياس المطّرد، بل يجري على مقتضى القياس.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ [الآية ١٢٤] أي عن موعظتي، أو عن القرآن، فلم يؤمن به ولم يتبعه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [الآية ١٢٤] أي حياة في ضيق وشدّة، ونحن نرى المعرضين عن الإيمان والقرآن، في أخصب معيشة وأرغدها؟

قلنا: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المراد بالمعيشة الضّنك الحياة في المعصية، وإن كان في رخاء ونعمة. وروي عن النبي (ص) أنّها عذاب القبر. الثاني: أنّ المراد بها عيشته في جهنّم في الآخرة. الثالث: أن المراد بها عيشه مع الحرص الشديد على الدنيا وأسبابها؛ وهذه الآية في مقابلة قوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل/٩٧]. فكلّ ماذكرناه في تفسير الحياة الطيّبة، فضدّه وارد في المعيشة الضّنك.

فإن قيل: أيّ كلمة سبقت من الله سبحانه، فكانت مانعة من تعذيب هذه الأمة في الدنيا عذاب الاستئصال، حتى قال جلّ شأنه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ [الآية ١٢٩] ؟

لا اختصاص لهذه الأمّة بهذه الكلمة، وقيل هي قوله تعالى للنبي (ص): ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال/٣٣] وقيل هي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] يعني لِعالَمي أمّته بتأخير العذاب عنهم؛ وقيل في الآية تقديم وتأخير تقديره: ولولا

كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ وأجلٌ مُسَمًّى، وهو الأجل الذي قدّر الله تعالى بقاء العالم وأهله إلى انقضائه، لكان العذاب لزاماً: أي لازماً لهم كما لزم الأمم التي قبلهم.

فإن قيل: أصحاب الصراط السويّ والمهتدون واحد، فما الحكمة من التكرار في قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾؟

قلنا: المراد بأصحاب الصراط السويّ، السالكون الصراطَ المستقيم، السائرون عليه؛ والمراد بالمهتدين الواصلون إلى المنزل. وقيل أصحاب الصراط السويّ، هم الذين مازالوا على الصراط المستقيم؛ والمهتدون هم الذين لم يكونوا على الطريق المستقيم، ثمّ صاروا عليه. وقيل المراد بأصحاب الصراط السّويّ، أهل دين الحقّ في الدنيا؛ والمراد بمن اهتدى، المهتدون إلى طريق الجنة في العقبى؛ فكأنه سبحانه قال: فستعلمون من المحقّ في الدنيا، والفائز في الآخرة.

المعاني المجازية في سورة «طه»[*]

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [الآية ١٥] وهذه استعارة على أحد التأويلين. وهو مما سمعته من شيخنا أبي الفتح النحوي[١]، عفا الله عنه. قال: الذي عليه حُذّاق أصحابنا: أنّ «كاد» هٰهنا على بابها من معنى المقاربة. إلا أن قوله تعالى: ﴿أُخْفِيهَا﴾ يَؤُول إلى معنى الإظهار. لأن المراد به: أكاد أسلُبها خفاءها. والخفاء الغشاء والغطاء مأخوذ من خِفاء[٢] القربة، وهو الغشاء الذي يكون عليها.

فإذا سُلِبَ عن الساعة غطاؤها المانع من تجلّيها، ظهرت للناس، فرأوها؛ فكأنه تعالى قال: أكاد أظهرها. قال لي: وأنشدني أبو علي[٣] منذ أيام بيتاً هو من أنطق الشواهد على الغرض الذي رمينا. وكان سماعي ذلك من أبي الفتح رحمه الله، وأبو علي حينئذ باقٍ لم يمت، وهو قول الشاعر[٤]:

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جنّي، إمام النحو المشهور، وأستاذ المؤلّف، وقد سبق تعريفنا به في هوامش مجازات سورة التوبة.

(٢) الخِفاء: الغطاء وجمعه أخفية.

(٣) أبو علي، هو أبو علي الفارسي، واسمه الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، كان إماماً في العربيّة. وكان يُسأل في كل بلد يحلّ فيه عن مسائل من اللغة والنحو والصرف، فيجيب إجابات سديدة. وصنّف في أسئلة كلّ بلد كتاباً. وقد تعاصَر المؤلف وابن جنّي وأبو علي الفارسي. وكان المؤلّف شاباً ناشئاً، حين تقدّمت السن بأبي علي الفارسي، الذي توفي سنة ٣٧٧هـ، على حين أن الشريف الرضي ولد سنة ٣٥٩هـ.

(٤) هذا البيت لم يُذكر له قائل. وهو من أبيات الشواهد في «لسان العرب» ولم ينسب لقائله.

لقد علِمَ ٱلأيقاظُ أخفِيَةَ الكرى
تَزَجُّجَها من حَالكٍ واكتِحَالَها

ومعناه لقد علم الأيقاظ عيوناً. فجعل العين للنوم في أنها مشتملة عليه، كالخِفَاء للقربة في أنه مشتمل عليها.

وقول الشاعر: «أخفية الكرى» من الاستعارات العجيبة، والبدائع الغريبة. وقوله: «تزجُّجَها من حالكٍ واكتحالَها»، يعود على العيون، كأنه قال تَزَجُّجَ العيون واكتحالها من سوادِ الليل. وهذا لا يكون إلاّ مع السهر وامتناع النوم، لأن العيون حينئذ بانفتاحها تكون كالمباشرة لسواد الظلماء، فيكون كالكُحل لها.

والتزجّجُ: اسوداد العينين من الكحل. يقال زجّجت[1] المرأةُ عينَها وحاجبَها. إذا سودتهما بالإثمد.

وعلى التأويل الآخر يبعد الكلام عن طريق الاستعارة، وهو أن يكون أكاد ههنا بمعنى أريد، كما قلنا فيما مضى[2]. ومن الشواهد على ذلك قول الشاعر:

أمنخرمٌ شعبانُ لم تُقْضَ حاجة
من الحاجِ كنّا في الأصمّ[3] نكيدها

أي كنا نريدها في رجب، ويكون ﴿أُخۡفِيهَا﴾ على موضوعه، من غير أن يعكس عن وجهه. ويكون المعنى: إن الساعة آتية أريدُ أسْتُر وقت مجيئها، لما في ذلك من المصلحة. لأنه إذا كان المراد بإقامتها المجازاة على الأفعال، والمؤاخذة بالأعمال، كانت الحكمة في إخفاء وقتها ليكون الخلق في كلّ حين وزمان على حذرٍ من مجيئها، ووَجَلٍ من بغتتها، فيستعدّوا قبل حلولها، ويمهّدوا قبل نزولها.

ويقوّي ذلك قوله سبحانه: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ۝١٥﴾.

---

(١) ومنه قول الشاعر الراعي النميري:

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يوماً — وزجّجنَ الحواجبَ والعيونا

وهذا البيت من شواهد النحو في باب المفعول معه. انظر «أوضح المسالك، إلى ألفية ابن مالك» الشاهد ٢٥٩.

(٢) في الآية رقم ٧٧ من سورة الكهف.

(٣) الأصمّ: شهر رجب، وسمي بذلك لأنه كان لا يُسمع فيه صوت السلاح، لكونه شهراً حراماً. انظر لسان العرب. وقال الخليل: إنّما سمّي بذلك، لأنه كان لا يُسمع فيه صوت مستغيث، ولا حركة قتال ولا قعقعة سلاح، لأنه من الأشهر الحرم.

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وهذه استعارة. لأن المراد بالسيرة هٰهنا الطريقة والعادة. وأصل السيرة مضيُّ الإنسان في تدبير بعض الأمور، على طريقة حسنة أو قبيحة. يقال: سار فلان الأمير فينا سيرة جميلة. وسار بنا سيرة قبيحة. ولكن موسى (ع) لمّا كان يصرف عصاه ـ قبل أن تنقلب حيّة ـ في أشياء من مصالحه، كما حكى سبحانه عنه، بقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ ثم قُلبت حيّة، جاز أن يقال ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي إلى الحال التي كنت تصرفها معها في المصالح المذكورة، لأن تصرّفها في تلك الوجوه كالسيرة لها، والطريقة المعروفة منها؛ والمراد سنعيدها إلى سيرتها الأولى، فانتصبت السيرة بإسقاط الجار.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [الآية ٢٢]. وهذه استعارة، المراد بها، والله أعلم، وأدخِل يدك في قميصك ممّا يلي إحدى جهتي يديك. وسميت تلك الجهتان جناحين، لأنهما في موضع الجناحين من الطائر. ويوضح ما ذكرنا قوله سبحانه في مكان آخر: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل/١٢]، والجيب في جهة إحدى اليدين.

قوله سبحانه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى﴾ وهذه استعارة. والمراد بها إزالة لَفَفٍ(١) كان في لسانه، فعُبّر عنه بالعقدة. وعُبّر عن مسألة إزالته بحلّ العقدة؛ للملاءمة بين النظام، والمناسبة بين الكلام.

وقد يجوز أيضاً أن يكون المراد بذلك، إزالةَ التقيّة عن لسانه، وكفايتَه سطوةَ فرعون وغواته، حتى يؤديَ عن الله سبحانه آمناً، ويقول متمكّناً، فلا يكون معقود اللسان بالتقيّة، معكوم الفم بالخوف والمراقبة. وذلك كقول القائل: لسان فلان معقود، إذا كان خائفاً من الكلام؛ ولسان فلان منطلق، إذا كان مقداماً على المقال.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾. وفي هذه الآية استعارتان. إحداهما قوله

(٨) اللَّفَف: التواء عصب في اللسان، يعطّله عن الكلام.

سبحانه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ وليس المراد أن هناك شيئاً يُلقى عليه في الحقيقة، ولكنّ المعنى أنني جعلتك بحيث لا يراك أحد إلاّ أحبّك، ومالَ قلبُه نحوك، حتّى أحبّك فرعون وامرأته، فتبنّياك وربّياك، واسترضعا لك، وكَفِلاك. وهذا كقول القائل: على وجه فلان قبول. وليس هناك على الحقيقة شيء يُومَأ إليه. إلا أن كل ناظر ينظر إليه يقبله قلبه وتُسَرُّ بِهِ نفسه.

والاستعارة الأخرى، قوله سبحانه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ والمراد بذلك، والله أعلم، أن تتربى بحيث أرعاك وأراك. وليس أنّ هٰهنا شيئاً يغيب عن رؤية الله سبحانه، ولكنّ هذا الكلام يفيد الاختصاص بشدة الرعاية، وفرط الحفظ والكِلاءة؛ ولمّا كان الحافظ للشيء في الأغلب يديم مراعاته بعينه، جاء تعالى باسم العين بدلاً من ذِكْر الحفظ والحراسة، على طريق المجاز والاستعارة.

ويقول العربي لغيره: أنت مني بمرأى ومسمع. يريد بذلك أنه متوفّر عليه برعايته، ومنصرف إليه بمراعاته.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ وهذه استعارة. والمراد بها: واصطنعتك لتبلّغ رسالتي، وتنصرف على إرادتي ومحبّتي؛ وقال بعضهم: معنى لنفسي هٰهنا، أي لمحبّتي؛ وإنّما جاز أن يوقع النفس موقع المحبة، لأنّ المحبّة أخصّ شيء بالنفس، فَحَسُن أن تسمّى بالنفس. وقد يجوز أن يكون ذلك على معنى قول القائل: اتّخذت هذا الغلام لنفسي، أي جعلته خاصاً لخدمتي، لا يشاركني في استخدامه أحد غيري. وسواء قال اتّخذته، أو اتّخذته لنفسي، في فائدة الاختصاص، ليس أن هناك شيئاً يتعلّق بالنفس على الحقيقة.

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وهذه استعارة على أحد التأويلين. والمراد بها، والله أعلم، أنه أكمل لكلّ شيء صورته، وأتقن خلقته، وهذا يعمّ كلّ مصوَّر من حيوان وجماد وغير ذلك. فلا معنى لحمل من حمله على الحيوان فقط.

وعندي في ذلك وجه آخر، وإن كان الكلام يخرج به من باب الاستعارة؛ وهو أن يكون في الكلام تقدير وتأخير. فكأنه سبحانه قال: ربّنا الذي أعطى خلقه كلّ شيء، ثمّ هداهم إلى

مطاعمهم ومشاربهم، ومناكحهم، ومساكنهم، وغير ذلك من مصالحهم. ويكون ذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم/٣٤] ويكون المراد أنه سبحانه أعطى خلقه في أوّل خلقهم كل ما تزاح به عللهم، ويتكامل معه خلقهم، من سلامة الأعضاء، واعتدال الأجزاء، وترتيب المشاعر والحواسّ، ومواقع الأسماع والأبصار، ثمّ هداهم من بعد لمصالحهم، ودلّهم على مناكحهم، وأجراهم في مضمار التكليف إلى غاياتهم.

وقوله سبحانه: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الآية ٥٣]. وهذه استعارة. والمراد بها تشبيه الأرض بالمهاد المفترش، ليمكن الاستقرار عليها، والتقلّب فيها. وقد مضى نظير هذه الاستعارة فيما تقدم. ومعنى المَهْد والمهاد واحد. وهو مثل الفَرْش والفِراش. إلاّ أنّ المَهْد ربّما استعمل في رسم الآلة التي يُجعل فيها الصبيّ الصغير ليحفظه، وهو يؤول إلى معنى الفراش. والمهد أيضاً: مصدر مَهَدَ، يَمْهَدُ، مَهْداً. إذا مكّنَ موضعاً لقدمه، ومضجعاً لجنبه.

وقوله سبحانه: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١)﴾ وهذه استعارة. والمراد بها ما يظهر في الوجوه يوم القيامة من آثار الضَّرَع، وأعلام الجَزَع. وذلك مأخوذ من تسميتهم الأسير «العاني» ومنه ماجاء في بعض الكلام: النساء عَوَانٍ عند أزواجهنّ، أي أسيرات في أيدي الأزواج. وعلى ذلك قولُ القائل: هذه المرأة في حبال فلان، لأنه بما عَقَدَهُ من نكاحها كالآسر لها، والمالِك لرقّها. فكأنّ الوجوه خضعت من خشية الله تعالى، خضوع الأسير الذليل في يد الآسر العزيز.

سورة الأنبياء

٢١

أهداف سورة «الأنبياء»(*)

سورة الأنبياء سورة مكّيَة بالاتّفاق وآياتها ١١٢ آية، وقد نزلت قُبيل الهجرة إلى المدينة، أي حوالي السنة الثانية عشرة من البعثة؛ وسمّيت بسورة الأنبياء، لأنه اجتمع فيها، على قِصَرِها، كثير من قِصَصِ الأنبياء، فسمّيت السّورة باسمهم.

الغرض منها وترتيبها

هي سورة مكّية، نزلت في آخر العهد المكّيّ، أي في ذروة تجبُّر أهلِ مكّة، وَعَنَتِهم، وانصرافهم عن الإسلام.

فنزلت تُنْذر هؤلاء الكفّار باقتراب العذاب ففي بدايتها:

﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾.

ثمّ ساقت السورة الأدلّة، على الألوهية والتوحيد والرسالة والبعث. وهي الموضوعات التي عُنِيَت بها السوَرُ المكية، من أجل تقرير العقيدة والدفاع عنها.

***

ونلحظ، هنا، أنّ السورة قد عالجت الموضوعات، بعرض النواميس الكونية الكبرى، وَرَبْطِ العقيدة بها.

فالعقيدة، في سورة الأنبياء، جزء من بناء هذا الكون ونواميسه الكبرى.

وهذه العقيدة، تقوم على الحقّ الذي قامت عليه السماوات والارض، وليست لَعِباً ولا باطلاً؛ كما أنّ هذا

(*) انتُقي هذا المبحث من كتاب «أهداف كلّ سورة ومقاصدها»، لعبد الله محمود شحاته، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩ ـ ١٩٨٤.

الكون لم يُخلَق عبثاً، ولن يُترَك سُدًى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ (١٦).

ويلفت السياق الناس إلى مظاهر الكون الكبرى، في السماء والأرض، والرواسي والفِجاج، والليل والنهار، والشمس والقمر، موجّهاً الأنظار إلى وحدة النواميس التي تَحكُمُها وتُصَرِّفها، وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبِّر المالك، الذي لا شريك له في الملك؛ كما أنه سبحانه، لا شريك له في الخلق:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الآية ٢٢].

ثم تتحدث السورة عن وحدة النواميس، التي تحكم الحياة في هذه الأرض، وعن وحدة مصدر الحياة:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الآية ٣٠].

وعن وحدة النهاية التي ينتهي إليها الأحياء:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الآية ٣٥].

والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية، فهي واحدة كذلك، وإن تَعَدَّدَ الرُسلُ على مدار الزمان:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (٢٥).

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى، فكذلك ملابسات هذه العقيدة في الأرض. فالسنّة التي لا تتخلّف: أن يغلِب الحقّ في النهاية، وأن يَزهَقَ الباطلُ، لأنّ الحقّ قاعدة كونية، وغلبته سُنّةٌ إلهية:

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الآية ١٨].

وأنْ يَحُلَّ الهَلاكُ بالظالمين المكذّبين، ويُنجي الله الرسل والمؤمنين:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ (٩).

وأن يَرِثَ الأرضَ عبادُ الله الصالحون:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ (١٠٥).

ومِن ثَمّ يستعرض السياق أُمّةَ الرُسُل الواحدةَ، في سلسلة طويلة، استعراضاً سريعاً، يطول بعض الشيء، عند

عَرْضِ حَلْقةٍ من قصّة إبراهيم (ع) وعند الإشارة إلى داود وسليمان (ع).

وَيَقْصُر عند الإشارة إلى قِصص نوحٍ، وموسى، وهارون، ولوطٍ، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكَفْل، وذي النون، وزكريا، ويحيى وعيسى (ع).

وفي هذا الاستعراض تتجّلى المعاني التي سبقت في سياق السورة، تَتَجلّى في صورةِ وقائع في حياة الرسل والدعوات، بعد ما تجلّت في صورة قواعدَ عامة ونواميس.

كذلك يتضمّن سياق السورة بعض مشاهد القيامة، وتتمثّل فيها تلك المعاني نَفْسُها في صورةِ واقعِ يومِ القيامة.

وهكذا تتجمّع الأساليب المُنَوّعة في السورة على هدفٍ واحِد، هو استجاشة القلب البَشَريّ لإدراك الحق الأصيل في العقيدة، التي جاء بها خاتَمُ الرُّسُل (ص) فلا يتلقّاها الناس غافلين، مُعْرِضين لاهِين، كما تَصِفُهم السورة في مَطْلَعِها.

إنّ هذه الرسالة حقّ، كما أن هذا الكون حقٌّ وَجِدّ. فلا مجال لِلَّهْوِ في استقبال الرسالة، ولا مجالَ لطلب الآيات الخارقة، وإنّ آيات الله في الكون، وسُنَنَ الكون كلّها تُوحي بأنه سبحانه الخالقُ القادر الواحد، والرسالة من لَدُنْ ذلك الخالق القادر الواحد.

نظم السورة

النَّظْمُ في سورة الأنبياء، يختلف عن النظم في سورتي مريم وطه. هناك كان النظم سهلاً، والختام رَخِيّاً، يُخْتَم في الغالب بالألف اللينة.

أمّا في سورة الأنبياء، فالنَّظْم نَظْمُ التقرير، الذي يتناسق مع موضوعها، ومع جوّ السياق في عَرْض هذا الموضوع، ولذلك خُتمت آياتها بالميم أو بالنون.

***

وإذا نظرنا الى الجانب الذي عُرِضَ من قصّة إبراهيم (ع) في سورة مريم، وجدنا أن الحلْقَةَ التي عُرِضت هناك، حلقةُ الحوار الرَّخِي بين إبراهيم وأبيه. وقد خُتمت آيات الحوار هناك، بالألف اللّينة مثل نبيّاً، صفيّاً، عليّاً.

أمّا هنا، فجاءت حلْقةُ تحطيم الأصنام، وإلقاء إبراهيم في النار. ولكي يتحقّق التناسق في الموضوع،

والجوّ والنظم، والإيقاع، فقد ختمت قصّة إبراهيم هنا، بالنون أو الميم، التي تُفيد التقرير والتأكيد، أو ما يشبه أحكام القضاء بعد تفكُرٍ وتأمّل وترتيب.

أشواط أربعة

يمكن أن نَقْسم سورة الأنبياء إلى أربعة أقسام، يَمْضي السياق خلالَها مِن قسم إلى آخَر، ويُمهّد كلّ شوط للّذي يليه.

الشوط الأول

يبدأ الشوط الأول بمطلع قويّ الضربات، يَهُزُّ القلوب هَزّاً؛ وهو يَلْفِتُها إلى الخَطَر القريب المُحْدِق، وهي عنه غافلة لاهية:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾.

ثمّ يَهُزّها هزةً أُخرى، بمشهد من مصارع الغابرين، الذين كانوا عن آيات ربّهم غافلين:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١﴾.

ثمّ يَرْبِط بين الحقّ والجِدّ في الدّعوة، نظام الكون، عقيدة التوحيد ونواميس الوجود، ووحدانيّة الخالق المدبِّر وَوَحدة الرسالة والعقيدة، ووحدةِ مَصْدَرِ الحياة ونهايتها ومصيرها، على النحو الذي أسلفناه، ويمتدّ هذا الشوط من أول السورة إلى الآية ٣٥.

الشوط الثاني

أما الشوط الثاني، فَيَرْجِع السياق بالحديث إلى الكُفّار، الذين يواجهون الرسول (ص) بالسخرية والاستهزاء، والأمر جِدّ وحق، وكل ماحولهم يوحي باليقظة والاهتمام، وهم يستعجلون العذاب، والعذاب منهم قريب. وهنا يَعْرِضُ مشهداً من مشاهد القيامة، وَيلْفِتهم إلى ما أصاب المستهزئين بالرُسل قَبْلهم؛ ويقرّر أنْ ليس لهم من الله مِن عاصم، ويوجّه قلوبهم إلى تأمّل يَدِ القدرة، وهي تَنْقُصُ الأرض من أطرافها، وتزوي رقعتها وتطويها، فلعلّ هذا أن يوقظهم من غفلتهم، التي جاءتهم من طول النعمة وامتداد الرخاء.

وينتهي السياق في هذا الشوط بتوجيه الرسول (ص) إلى بيان وظيفته:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ [الآية ٤٥].

وإلى الخطر الذي يتهددهم في غفلتهم:

﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

حتى تُنصَبَ الموازينُ القِسطُ، وهم في غفلتهم سادرون. ويمتدّ هذا الشوط من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٧.

الشوط الثالث

ويتضمّن الشوط الثالث استعراضَ أُمّةِ النبيّين، وجهادَ الرُّسُلِ، وبَلاءَهم في سبيل الحق. ويبدأ الشوط بموسى وهارون (ع) وقد أنعم الله عليهما بالفرقان، وهو التوراة، لأنّها تَفرِقُ بين الحق والباطل؛ ثم ذكر إبراهيم (ع) وقد أعطاه الله الرشد والهداية، فأنكر على قومه عبادة الأصنام، ثمّ حطّمها، فأُلقِيَ في النار، فجعلها الله برداً وسلاماً عليه؛ ثم ذَكَرَ نجاة لوط (ع) من قومه المعتدين، ونجاةَ نوح (ع) وأتباعِه من الطوفان؛ ثم ذكر حِكَمَ سليمان (ع) ودعاء يونس (ع) وسؤال زكريّا (ع) وصلاح مريم (ع). ويعقب الشوطَ بأنَّ هناك وحدةً بين هذه الرسالات، في العقيدة والإيمان والهدف والقيم والسلوك:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

وتتجلّى في رسالة الأنبياء عنايةُ الله بهم، ورعايتُه لأهْل رسالته وتَوَلّيهم بالعناية والرعاية، وأخذ المكذّبين والظالمين، أخْذَ عزيز مقتدر، ويمتدّ هذا الشوط من الآية ٤٨ إلى الآية ٩٥.

الشوط الرابع

أما الشوط الرابع والأخير، فيعرض النهايةَ والمصير، في مشهدٍ من مشاهد القيامة المُثيرة، حينما يُفْتَحُ سدُّ يأجوجَ ومأجوجَ، ويعرض ذلّ الكفار في عذاب جهنّم، ونعيم المؤمنين في الجنّة، ثمّ طيّ السماوات في ساعة القيامة. ثم توجّهَ السياق إلى الرسول (ص) بالخطاب، فذكر أن الله سبحانه أرسله بالرحمة والإحسان، لتبليغ رسالته إلى الناس. ثم ختمت السورة بِمِثْلِ ما بَدَأت: إيقاعاً قوياً، وإنذاراً صريحاً. ويمتدّ هذا الشوط من الآية ٩٦ إلى ١١٢.

وفي آخر آية من السورة رنين يتحدّى الكفّار، ويتوعّدهم بحكم الله العادل:

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

ترابط الآيات في سورة «الأنبياء»(*)

تاريخ نزولها ووجه تسميتها

نَزَلت سورة الأنبياء بعد سورة إبراهيم، وقد نزلت سورة إبراهيم بعد الإسراء وقُبَيْلَ الهجرة، فيكونُ نزول سورة الأنبياء في ذلك التاريخ أيضاً.

وقد سُمّيت هذه السورة بهذا الاسم، لأنه اجتمع فيها على قِصَرِها، كثير من قِصَص الأنبياء، فَسُمّيت سورة الأنبياء باسمهم، وتَبْلُغ آياتُها اثنتيْ عَشْرَةَ ومائة آية.

الغرض منها وترتيبها

الغرض من هذه السورة، إثباتُ قُرْبِ ما أُمِروا بِتَرَبُّصِهِ من العذاب في آخر السورة السابقة، وبيان ما جاء فيه من ذلك الصراط السَّوِيّ. ولهذا ذكرت هذه السورة بعد السورة السابقة، وتصدَّرها إنذارُهم باقتراب حسابهم، فجاء أوّلها في هذا الإنذار، وجاء آخِرها في ذِكْر قِصص أولئك الأنبياء، وبيان اجتماعهم على دين التوحيد، وهو ذلك الصراط السويّ.

إنذارهم باقتراب حسابهم
الآيات (١ ـ ٤٧)

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ①﴾. فأنذرهم بأنّ حسابهم قد اقترب بتسليط المسلمين عليهم؛ وذكر أنهم، مع هذا، في غفلة مُعْرِضون، وأنهم ما يأتيهم من عظة جديدة من عظات

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «النظم الفَنّي في القرآن»، للشيخ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب بالجماميز ـ المطبعة النموذجية بالحكمية الجديدة، القاهرة، غير مؤرّخ.

القرآن، إلاّ استمعوا إليها وهم يلعبون. وتَنَاجَوْا بالطّعن فيمن يُنْذِرهم ويَعظُهم ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ وهَدَدهم بأنه سبحانه يعلم القول في السماء والأرض، فلا يَخْفَى عليه ما يتناجَوْنَ به؛ ثم ذكر أنهم عدلوا عن رمي القرآن بأنه سحر، وقالوا إنه أضغاث أحلامٍ، بَلِ افتراه، بل هو شاعر، وأنهم طلبوا أن يأتيهم الرسول (ص) بآية مِثْلِ آيات الأنبياء الأولين، وأجاب عن هذا بأنه ما آمنت قبلهم من قرية أهلكها بتلك الآيات، فلا يؤمنون مثلهم إذا أجيبوا إلى طلبهم؛ ثم أجاب عن اعتراضهم الأوّل، بأنّه جلّ جلاله، لم يُرْسِلْ قبل الرسول (ص) إلاّ رجالاً من البشر، وبأنه لم يجعلهم ذوي جسد لا يأكلون الطّعام ولا يموتون ، بل كانوا كغيرهم من بني الإنسان؛ ثم ذكر أنّه صَدَقَهُم ما أُنْذِروا به، فأنجاهم ومَنْ شاء مِمَّن آمن بهم، وأهْلَكَ المسرفين؛ وأنّه أنزل إليهم كتاباً فيه ذكرٌ وموعظة لهم، فهو خير ممّا يقترحونه من تلك الآيات؛ ثم ذكر سبحانه أنه كم أهلك من تلك القرى التي أسرفت في تكذيب رُسُلها، وأنهم كانوا إذا أحسوا العذاب، يركضون منها، فيقال لهم لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه، لِتُسألوا عن أعمالكم، فيقولون ياويلنا ويعترفون بظلمهم، ويأخُذُهم الله بعذابه، وهم يَشْهَدون على أنفسهم.

ثم ذكر تعالى أنّه عاقبهم بذلك عَدْلاً لا ظُلْماً، لأنّه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما عبثاً، بل خَلَقَ مَنْ فيهما ليطيعوه ويَدِينوا بتوحيده، فإذا اتّبعوا الباطل قَذَفَ بالحق عليه فَيَدمغُهُ ويُبْطله؛ ثم ذكر أن كلّ من في السماوات والأرض مملوك له، وأنّ مَنْ عنده مِنَ الملائكة لا يستكبرون عن عبادته، فإذا خرج هؤلاء الكفّار عن طاعته، أحلّ عليهم نقمته.

ثم ذكر أنّ مِنْ باطلهم، أنهم اتّخذوا آلهةً من الأرض؛ وأبطله، بأنّه لو كان في السماء والأرض آلهةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا، إلى غير هذا مما ذكره في إبطال تعدّد الآلهة؛ ثم ذكر، أنّ من باطلهم، أنهم قالوا إنّ الملائكة بنات الله؛ وأبطله، بأنّهم عباد خاضعون له كغيرهم، ولو كانوا بنات له لكانوا آلهة مثله، إلى غير هذا ممّا ذكره في إبطال أنهم بنات له؛ ثم ذكر لهم، من الأدلّة على وحدانيّته، أنّ السماوات والأرض

كانتا رَتْقاً ففتقهما ، إلى غير هذا مما ذكره من الأدلة على هذه الوحدانيّة.

ثُمَّ رَجَعَ السياق إلى ماذكروه، من أنه بشرٌ مِثْلُهم، فذكر سبحانه أنه لم يجعل لبشرٍ من قبله الخُلْدَ حتّى يجعله بشراً لا يأكل الطعام ولا يموت؛ فهو يموت كما يموتون، وكلّ نفس لا بدّ أن تذوق الموت. ثم ذكر ممّا يفعلونه في غفلتهم عن يوم حسابهم، أنهم كانوا حينما يرون النبيّ (ص) يقولون مستهزئين كما ورد في التنزيل: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الآية ٣٦]، ماضين في غفلتهم عمّا يُنَزَّلُ عليهم من الذِّكر، مغترّينَ بإمهال الله لهم، مستعجلين ما اقترب من يوم حسابهم؛ ثمّ ذكر أنّ هذا الاستعجال شأن الإنسان، لأنه خلق من عجل، وأنه سيريهم آيات عذابه في وقت لا تتقدّم عليه؛ ثم ذكر هذا الاستعجال المذموم، وهو قولهم على سبيل الاستهزاء كما ورد في التنزيل: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾. ولو يعلمون أنّهم في ذلك اليوم، تحيط بهم النار من كلّ ناحية، لكفّوا عن استعجالهم؛ ثم ذكر أنه إنّما ينذرهم بالوحي الذي لا يكذب، وأنّهم إذا مسّتهم نفحة من العذاب الذي يُنْذَرون به يُنَادُون بالويل، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين؛ ثم ذكر أنّ ما ينزل بهم من ذلك يكون عدلاً، لأنّه لا يكون إلاّ بعد حساب توزَنُ فيه الأعمال ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قصص الأنبياء
الآيات (٤٨ ـ ٩١)

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ فذكَرَ من أولئك الأنبياء موسى وهارونَ (ع) وأنّه آتاهما الفُرقان، وهو التّوراة لأنّها تفرق بين الحق والباطل؛ وأنّه سبحانه أنزل القرآن، يزيد عليها في ذلك، فلا يصحّ أن ينكروه.

ثم ذكر أنه آتى إبراهيم (ع) الرُشْدَ إلى الحق، قبل موسى وهارون (ع) فأنكر على قومه عبادة الأصنام، وبيّن لهم أنّ ربهم ربُّ السماوات والأرض، لأنّه هو الذي خَلَقَها؛ ثم بيّن، بالعمل، أن هذه الأصنام ليست بآلهة، فذهب في خِفْيَةٍ إليها فَكَسَّرها وترك صنماً كبيراً لهم فلم يَكْسِرْهُ. فلمّا ذهبوا

إليها سأل بعضهم بعضاً عمن فعل هذا بها، واتهموا إبراهيم فأحضروه وسألوه، كما ورد في التنزيل: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ [الآية ٦٢] فقال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، فكادوا يصدّقونه، لأنه كان قد وضع فأساً بين يديه؛ ولكنّهم عادوا فذكروا له أنّها لا تنطق، فكيف يسألونها عمّن كسّرها؟ وهنالك قامت له الحجّة عليهم بإقرارهم، فوبّخهُم على أنهم يعبدون ما لا ينفعهم شيئاً، ولا يضرّهم؛ فعلموا أنه الذي كَسّرها، وأوقدوا له ناراً ليُحْرِقوه فيها، فلمّا ألقوه فيها، جعلها الله برْداً وسلاماً عليه، ونجّاه ولوطاً ابن أخيه إلى أرض فلسطين، ووهب الله جلّ جلاله له إسحاق ويعقوب نافِلةً، وجعلهم صالحين؛ فكانوا أئمة يهدون بأمره تعالى، ويخلصون العبادة له.

ثم ذكر أنه آتى لوطا (ع) عِلْماً، ونَجّاه من القرية التي كانت تعمل الخبائث، وأدخله في رحمته لصلاحه واستقامته.

ثمّ ذكر سبحانه أنه استجاب لنوح (ع) حينما نجّاه وأهله من الغرق، ونَصَرَه على كفّارِ قومه فأغرقهم أجمعين.

ثم ذكر أنه آتى دَاوُدَ وسليمان (ع) العِلْمَ والفهم، وأنّ غنماً دخلت كرماً فأتلفته، فشكا صاحب الكرم صاحب الغنم إلى داود، فقضى بالغنم لصاحب الكرم، لأنه لم يكن هناك تَفَاوُتٌ بين ثمنهما؛ وقضى سليمان بتسليم الغنم لصاحب الكرم، لينتفع بها إلى أن يصلح صاحبها كرمه؛ وكان هذا الحكم هو الأرفق بهما؛ ثم ذكر أنه سخّرَ لداود الجبال والطير، وعلّمه صنعة الدروع، وسخّر لسليمان الريح والشياطين.

ثمّ ذكر أنه استجاب لأيوبَ (ع) حين ناداه أنّه قد مسّه الضرّ، فكشف عنه ضرّه، وآتاه أهله ومثلهم معهم.

ثمّ ذكر إسماعيل وإدريسَ وذا الكِفْل (ع) وأنهم كانوا من الصّابرين، وذكر ذا النونِ (ع) وأنّه ناداه وهو في بطن الحُوتِ، فاستجاب له، وَنجّاهُ من الغمّ الذي كان فيه.

ثم ذكر زكريّا (ع) حينما شكا إليه، أنه لا وَلَدَ له، فوهب له يحيى (ع)، وأصلح له زوجه، لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعونه رَغباً وَرَهباً.

ثمّ ذكر مريم التي أحصنت فرجها، فنفخ فيها من روحه، وجعلها وابنها آيةً للعالمين.

الخاتمة
الآيات (٩٢ ـ ١١٢)

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾. فذكر لهم سبحانه، أنّ ملّتهم التي يدعوهم إليها، ملّةٌ واحدة تَتَابعَ أولئك الأنبياءُ عليها، وأنّ ربّهم واحد يجب أن يعبدوه، وأنهم انحرفوا عن تلك الملّة، فتفرّقوا فِرَقاً كثيرة، وأنه لا بُدّ من يوم يرجعون فيه إليه سبحانه، فلا ينجو منهم إلاّ من آمَنَ به وعَمِلَ صالحاً. وأمّا من أهلكهم من أهل القرى، فلا يمكن أن يَرْجِعُوا إلى دنياهم، ليستدركوا ما فاتهم؛ وإذا فُتِحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ، يكونون أوّل الناس حضوراً في محفل القيامة. وهنالك ينادون بالويل، ويشهدون على أنفسهم، أنهم كانوا في غفلة عن هذا اليوم، فيقال لهم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ ولو كانوا آلهة ماوردوها، لأنّ الآلهة لا يصحّ تعذيبها. ثم ذكر سبحانه أن الذين سبقت لهم منه الحسنى، لا يَرِدُون جهنّم، وأنّهم يدخلون الجنّة فيخلدون فيها، إلى غير هذا ممّا ذكره في أحوال هذا اليوم.

ثمّ ذكر تعالى أنه كتب في الزَّبُور مِنْ بَعْدِ التوراة، أنّ الأرض يرثها عباده الصالحون، لينذر المشركين بتسليط المؤمنين عليهم في الدنيا، بعد أن أنذرهم بسوء حالهم في الآخرة، فيكون ما اقترب من حسابهم في الآخرة والدنيا معاً؛ ثمّ ذكر أن في هذا الإنذار كفايةً لقوم عابدين، وأنه سبحانه لم يرسل النبي (ص) إلاّ رحمةً للعالمين، فلا بد من أن يظهر أمره ليكون فيه رحمتهم وصلاحهم؛ ثمّ ختم السورة بإجمال ماذَكَرَهُ فيها، فأَمَرَ النبي (ص) أن يذكر لهم أنّ إلٰههم إلٰهٌ واحد لا شريك له، فيجب أن يؤمنوا به، وأَمَرَهُ أن يؤذنهم بيوم عذابهم، إنْ أعرضوا عنه، وأن يخبرهم بأنّه لا يدري أَقريبٌ أم بعيد ما يوعَدون، لأنّه سبحانه هو الذي يعلم كلّ شيء مِن جَهْرِ القول وما يكتمون؛ ثمّ ذكر أنّ تأخير ما يوعدهم به، إنّما هو فتنة لهم ومتاع إلى حين ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾.

أسرار ترتيب سورة «الأنبياء»(*)

ظهر لي من اتصالها بآخر «طه»، أنه سبحانه، لمّا قال في هذه: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ [طه/١٣٥]. وقال قبله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴿١٢٩﴾﴾ [طه]. وقال في مطلع هذه، أي في سورة الأنبياء: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴿١﴾﴾ إشارة إلى قرب الأجل، ودنوّ الأمل المنتظر.

وفيه أيضاً مناسبة لقوله تعالى هناك: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه/١٣١]. فإنّ قرب الساعة يقتضي الإعراض عن هذه الحياة الدنيا، لدنوّها من الزّوال والفناء؛ ولهذا ورد في الحديث: أنّها لما نزلت قيل لبعض الصحابة: هلاّ سألت النبي (ص) عنها؟ فقال «نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا»(١).

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «أسرار ترتيب القرآن» للسيوطي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(١) لم نعثر على هذا الحديث في ما بين أيدينا من مصادر.

مكنونات سورة «الأنبياء»(*)

١ - ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ﴾ [الآية ٢٩].

قال قَتَادَة، والضَّحَّاك: هو إبليس. أخرجه ابنُ أبي حاتم(١).

٢ - ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ [الآية ٤٧].

أخرج ابنُ جرير عن حُذيفة اليماني(٢) قال: صاحبُ الميزان يومَ القيامة: جبريلُ.

٣ - ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ﴾ [الآية ٦٨].

قيل: المقصودُ به: نُمرود

وقيل: رَجلٌ مِنْ أكراد فارس، يسمى هَيْزَن. أخرجه ابنُ أبي حاتم عن شعيب الجَبَائي.

٤ - ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الآية ٧١].

قال السُّدِّيّ: هي الشام أَخْرَجَه ابنُ أبي حاتم(٣)

وقيلَ: مكّةُ حكاه ابنُ عَسْكَر(٤)

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «مُفْحِمات الأقران في مُبْهَمات القرآن» للسيوطي، تحقيق إياد خالد الطبّاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) انظر «تفسير الطبري» ١٧/ ١٣.

(٢) لم نجد هذا الأثر في «تفسير الطبري» في هذا الموضع.

(٣) ورد في أحاديث مرفوعة صحيحة، مُخَرّجَةٍ في السنن وغيرها، دعاء النبي (ص) للشام بالبركة، وأفرد في فضائلها الحافظ أبو الحسن الربعي المتوفى سنة ٤٤٤هـ، وسمّاه «فضائل الشام ودمشق» وطبعهُ مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٧٠هـ = ١٩٥٠م، بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد مع ملاحق له؛ وللشيخ ناصر الدين الألباني: «تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربعي»، طُبِعَهُ في دمشق المكتبُ الإسلامي سنة ١٣٧٩هـ.

(٤) روى الحافظ ضياء الدين المقدسي في «فضائل بيت المقدس» برقم (٢٨) عن أبي العالية: في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ قال: من بركتها: أنّ كُلَّ ماءٍ عذبٍ يخرج من أصل صخرة بيت المقدس.

٥ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾.

قال (ص): هم عيسى، وعُزير، والملائكة.

أخرجه، هكذا مختصراً، ابنُ أبي حاتِم من حديثِ أبي هريرة.

وأخرج عن ابن عبّاس، قال: نَزَلَتْ في عيسى، ومريم، وعُزير[1].

٦ ـ ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الآية ١٠٥].

قال ابنُ عباس أرْض الجنة. أخرجه ابنُ أبي حاتم.

(١) وأخرجه البزار، كما في «كشف الأستار» (٢٢٣٤) بلفظ: «يعني عيسى بن مريم (ع) ومَنْ كان مَعَه». وفيه شُرحبيل بن سَعْد مولى الأنصار؛ وَثَّقَهُ ابن حبّان، وضَعَّفَهُ الجمهور، وبقيّة رجاله ثقاة. قاله الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٧/ ٦٨.

لغة التنزيل في سورة «الأنبياء»(*)

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الآية ٣].

أقول: أَكْثَرَ النحويون في الكلام على هذه الآية فقالوا: «الواو» فاعل، و«الذين» بدلٌ.

وقالوا: «الذين» فاعل، «والواو» ليس ضميراً.

وقالوا: هي لغة.

أقول: القول إنّها لغة مقبول، ولكنّي أقول أيضاً: إنّ هذه المسألة ليست «لغة» ومعنى ذلك أنها شيء خاصّ، بل ربّما اتّجه القول اتّجاهاً حسناً، لو قلنا إنّ مجيء الفاعل اسماً ظاهراً، مع تحمّل الفعل «إشارةً» أو «علامة» لهذا الفاعل في أنه مثنّى أو جمع، أسلوب من أساليب العرب، أخذ في الزوال والنقص في عصر القرآن، فجاء منه شيء قليل، والآية شاهد على ذلك.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ [الآية ٥].

والمعنى: أنّ الكافرين قالوا: إنّ القرآن تخاليط أحلام، رآها النبيّ (ص) في المنام.

وأريد أن أقف وقفةً قصيرة على قوله تعالى: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ فأقول: «الضِّغْثُ»: قبضةُ حشيشٍ مختلطةُ الرَّطْب باليابس، وهذا يعني أنّ «أضغاث الأحلام» رُؤيا لا يصح تأويلُها، لاختلاطها.

والقول البديع في هذا التركيب، إضافة المادي إلى المحسوس. وهو

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «من بديع لغة التنزيل»، لإبراهيم السامرّائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، غير مؤرّخ.

«الأضغاث» إلى المعنويّ، وهو «الأحلام» بمعنى الرؤيا للشبه بينهما وهو الاختلاط.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾.

أريد بـ «قرية» أهل القرية، ومن أجل ذلك وصفت بأنها «ظالمة»، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾.

أقول: ودلالة «القرية» على «أهلها» كثير في القرآن، ومنه:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿وَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف/ ٨٢].

وأمّا دلالة القرية على المكان فكثير أيضاً، وقد ورد في آيات كثيرة.

٤ ـ وقال تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ [الآية ١٣].

والمراد: وارجعوا إلى ما نعمتم فيه من العيش الرّافه، أي إلى نعمكم التي أترفتكم.

٥ ـ وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ [الآية ١٨].

أي: أننا ندحض الباطل بالحق، واستعار القذف والدمغ تصويراً لإبطاله، وإهداره، ومَحْقِهِ.

وأصل الدَّمْغ الشَّجُّ، يقال دَمَغَه حتى بلغت الشَّجَّةُ الدِّماغ.

أقول: واستعارة «الدمغ» في هذا الخصوص استعارة جميلة، لإحكام تصوير حقيقة محق الباطل بالحقّ.

٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾. أي لا يَعْيَوْن، عن قتادة والسُّدّيّ.

وقيل: لا يَمَلّون، وقيل: لا ينقطعون، مأخوذ من البعير الحَسير، المنقطع بالإعياء.

٧ ـ وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الآية ٢٢].

أقول: الضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا﴾ ضمير الاثنين يعود إلى ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ في الآية ١٩: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فقد عُدّت «السماوات» أحد جزأي المثنّى نظير «الأرض» فجاء الضمير

كناية عنهما، ولم يُلتفت إلى أن «السماوات» جمع.

ومثل هذه المسألة ما ورد في الآية ٣٠: من السورة نفسها، وهي:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

٨ ـ وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الآية ٣١].

أي: كراهةَ «أن تميدَ بهم».

أقول: وحذف المصدر المبيِّن للسبب، وهو المفعول له، ورد في لغة القرآن التماساً للإيجاز، وهو مطلب من مطالب البلاغة، وأنه يلمح في المعنى، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل/ ١٥ ولقمان/ ١٠].

أي: كراهةَ أن تميدَ بكم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الإسراء/ ٤٦].

والتقدير كراهةَ أن يفقهوه.

٩ ـ وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾.

إضافة فعل العقلاء إليها، سوّغ مجيء الواو والنون، كما قال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (٤)﴾ [يوسف].

١٠ ـ وقال تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الآية ٥٧].

أي لأُدَبِّرَنَّ في بابهم تدبيراً خفيّاً يسوؤكم ذلك.

والفعل «كاد يكيد» فعل متعدٍّ، كما في الآية؛ وقد يُطوى المفعول به، كما في قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف/ ٧٦].

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦)﴾ [الطارق].

والكيد التدبير بباطل أو حقّ.

والكيد الخبث والمكر.

١ ـ وقال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ [الآية ٧٧].

«السَّوْء»: بفتح السّين هو المصدر، أمّا الاسم فهو السُّوء بالضّمّ.

١٢ ـ وقال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الآية ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿نَفَشَتْ﴾، أي: تفرّقت ليلاً. ونَفَشَت الغنم والإبل: رَعَت ليلاً بلا راعٍ؛ وهذا معنى نادر للفعل «نَفَشَ»، لأنّ النفش تشعيث الشيء بأصابعك حتّى ينتشر.

والنَّفَش، بالتحريك، الصوف والخِضب.

١٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الآية ٨٧].

أي: أنّه «مُغاضِبٌ» لقومه، فقد أغضبهم بمفارقته، لخوفهم حلول العقاب عليهم.

أقول: والمزيد «غاضَبَ» ممّا لم يتيسّر لي أن اقف عليه في غير لغة التنزيل.

١٤ ـ وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

الحَدَب: النَشزُ من الأرض، أي: المرتفع.

وقوله تعالى: ﴿يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾، أي: يظهرون ويسرعون.

أقول: وفي لغة المعاصرين يقال: جاءوا من كل حَدَبٍ وصَوْب، أي: جاءوا من كلّ جهة، وكثيراً ما يخطئون فيسكنون الدال من «حَدب».

وكأنّ أصل العبارة، أنّها قابلت بين «الحَدَب» وهو النشز المرتفع قليلاً، وبين «الصَّوب» الذي يدل على الانصباب والانحدار، وهو ضدّ التصعيد، وهو الإصابة والتصوُّب أيضاً.

١٥ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾.

قلنا: قرأ ابن عبّاس: حضَب جهنم بمعنى الحَصَب. وهو ما يُحْصَب به، أي يرمى كالحصى، وهو المحصوب من باب فَعَل بمعنى مفعول مثل السَلَب، والحَلَب ونحوهما.

وقُرئ: «الحضْب» بإسكان الضّاد، وهو من باب الوصف بالمصدر.

وقُرئ: حطب بالطاء.

ومن المفيد أن نقول: إن «حضب» بالضاد المعجمة، هو الحطب في لغة اليمن.

المعاني اللغوية في سورة «الأنبياء»(*)

قال تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾ [الآية ٣] كأنّه قال ﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ ثم فسّره بعد فقال: هم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾.

وقال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بتذكير الأصنام، وهي من الموات، لأنّها كانت عندهم ممّن يعقل أو ينطق.

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ [الآية ٨٢] بتذكير الشياطين، الذين ليسُوا من الإنس، إلاّ أنهم مِثْلُهم في الطّاعة والمعصية. ألا ترى أنك تقول «الشياطين يَغْصُوْنَ» ولا تقول: «يَغْصِيْنَ» وإنّما جمع ﴿يَغُوصُونَ﴾ و﴿مَن﴾ في لفظ واحد لأن ﴿مَن﴾ في المعنى لجماعة. قال الشاعر[1] [من الكامل وهو الشاهد الثامن والأربعون بعد المئتين]:

لَسْنَا كَمَنْ جَعَلَتْ إيادٌ دارَهَا
تكريت تَنْظُرُ حبَّها أن يُحْصَدا[2]

وقال[3] [من المتقارب، وهو الشاهد التاسع والأربعون بعد المئتين]:

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «معاني القرآن» للأخفش، تحقيق عبد الأمير محمد أمين الورد، مكتبة النهضة العربية وعالم الكتب، بيروت، غير مؤرّخ.

(١) هو الأعشى ميمون. ديوانه «الصبح المنير ١٥٤» واللسان «منن». وقيل هو المتلمّس «الصحاح» «منن».

(٢) في الصحاح واللسان، ومعاني القرآن ١/٤٢٨ و ٣٠٣ و ٣/٢٥٦ بـ «حلّت» بدل «جعلت»؛ وفي الخصائص ٢/ ٤٠٢ و ٣/٢٥٦ بـ «ترقب» بدل «تنظر»؛ وفي المخصّص ١٣/١٨٩ بـ «تمنعُ» بدل «تنظر»، وفي الديوان «إيادُ» و«تمنعُ».

(٣) نقله في البحر ٦/٣١٣، والجامع ١١/٢٨٩.

أطُــوفُ بِــهَــا لاَ أرَىَ غَــيْــرَهَــا
كَـمَـا طَـافَ بِـالـبِـيْـعَـةِ الـرَّاهِـبِ

فجعل «الراهبِ» بدلاً من «مَا» ، كأنه قال «كالذي طافَ» وتقول العرب: «إنَّ الحَقَّ مَنْ صَدَّقَ اللهَ» أي: «الحقُّ حقُّ مَنْ صَدَّقَ اللهَ».

وقال تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴿٣٧﴾﴾ يقول: «من تعجيلٍ من الأمرِ، لأنّه سبحانه قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل/٤٠] فهذا العَجَلُ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل/الآية الأولى] وقوله سبحانه ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴿٣٧﴾﴾ فإنّني ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ [الآية ٣٧].

وقال تعالى: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ [الآية ٣٠] باعتبار أن السماوات والأرض صنفان، كنحو قول العرب[1] «هُما لقاحانِ سُودَانِ» وفي كتاب الله عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر/٤١]

وقال الشاعر [من الطويل وهو الشاهد الخمسون بعد المئتين]:

رَأَوْا جَبَلاً فَوْقَ الجِبَالِ إذا الْتَقَتْ
رُؤُوسُ كَبِيرَيْهِنَّ يَنْتَطِحَانِ[2]

فقال «رؤوسُ» ثم قال «ينتطحانِ» وذا نحو قول العرب «الجُزُرات» و«الطُرُقاتِ» فيجوز في ذا، أن تقول: «طُرُقانِ» للاثنين «وجُزُرانِ» للاثنين. وقال الشاعر[3] [من الكامل وهو الشاهد الحادي والخمسون بعد المئتين]:

وإذا الـرِّجَـالُ رَأَوْا يَـزِيـدَ رَأَيْـتَـهُـم
خُـضُـعَ الـرِّقَـابِ نَـواكِـسِـي الأَبْـصَـارِ

والعرب تقول: «مَوَالِيَاتٌ» و«صَواحِبَاتُ يوسفَ» فهؤلاء قد كسروا فجمعوا «صَواحبَ»، وهذا المذهب يكون فيه المذكّر «صَواحِبُون» ونظيره «نَواكِسي». وقال بعضهم «نواكِسِ» في موضع جرّ، كما تقول «جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ».

وقال تعالى: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ

---

(١) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٦٧١، والجامع ١١/ ٢٨٢.

(٢) ورد عجزه في الخصائص ٢/ ٤٢١، والخزانة ٢/ ٢٠١؛ وورد بتمامه في ٢٠٢ بلفظ «رأت» بدل «رأوا».

(٣) هو الفرزدق همام بن غالب. ديوانه ١/ ٣٧٦، والخزانة ١/ ٩٩، والكتاب، وتحصيل عين الذهب ٢/ ٢٠٧.

أن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الآيــة ٨٧] أي: لــن نقدر عليه العقوبة، لأنه قد أذنب بتركه قومه، وإنّما غاضَبَ بَعْضَ الملوك، ولـم يُغاضِبْ ربَّه، كان بالله عزّ وجلّ، أعلم من ذلك[1].

(١) نقله في إعراب القرآن ٢/ ٦٧٧، والجامع ١١/ ٣٣٠.

لكل سؤال جواب في سورة «الأنبياء»(*)

إن قيل: لم قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الآية الأولى]، وَصَفَهُ بالقرب، وقد مضى من وقت هذا الإخبار زمنٌ طويل، ولم يَأزِفْ يوم الحساب بعد؟

قلنا: معناه الأوّل: أنه قريب عند الله تعالى، وإن كان بعيداً عند الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ [المعارج] وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [الحج]. الثاني: معناه أنه قريب بالنسبة إلى ما مضى من الزمان. كما قال (ص) «إن مثل ما بقي من الدنيا في جَنْب ما مضى، كمثل خيط في ثوب». الثالث: أنّ المراد به قرب حساب كلّ واحدٍ في قبره إذا مات، ويؤيّده قوله (ص) «من مات فقد قامت قيامته». الرابع: أنّ كلّ آتٍ قريب، وإن طالت أوقات استقباله وترقّبه، وإنّما البعيد الذي وُجِد وانقرض؛ ولهذا يقول الناس إذا سافروا من بلد إلى بلد، بعدما جعلوا البلد الأول وراء ظهورهم: البلد الثاني أقرب، وإن كان أبعد مسافة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الآية ٢] والذكر الآتي من الله تعالى هو القرآن، وهو قديم لا مُحْدَث؟

قلنا: المراد أوّلاً مُحْدَثٌ إنزاله. ثانياً: أنّ المرادَ به ذِكْرٌ يكونُ غَيْرَ القرآن، من مواعظ الرسول (ص)

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب «أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها»، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، غير مؤرّخ.

وغيره؛ ونسب إلى الله تعالى لأن موعظة كلّ واعظ بإلهامه وهدايته. ثالثاً: أنّ المراد بالذكر الذاكر، وهو الرسول (ص)، ويؤيّده قوله تعالى في سياق الآية ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الآية ٣]. وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ [الآية ٢] أي إلاّ استمعوا ذكره وموعظته.

فإن قيل: النجوى المُسارّة، فما معنى قوله تعالى ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى﴾ [الآية ٣]؟

قلنا: معناه بالغوا في إخفاء المُسارّة، بحيث لم يفطن أحد لتناجيهم ومُسارّتهم، تفصيلاً ولا إجمالاً؛ فإنّ الإنسان قد يرى اثنين يتسارّان، فيعلم من حيث الإجمال أنهما يتسارّان، وإن لم يعلم تفصيل ما يتسارّان به، وقد يتسارّان في مكانٍ لا يراهما أحد.

فإن قيل: لِمَ قال تعال لِمُشركي مكّة: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الآية ٧] يعني فاسألوا أهل الكتاب عمّن مضى من الرسل، أكانوا بشراً أم ملائكة؟ مع أنّ المشركين قالوا، كما ورد في التنزيل: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ/ ٣١].

قلنا: هم وإن لم يؤمنوا بكتاب أهل الكتاب، ولكن النقل المتواتر من أهل الكتاب في القضيّة العقلية، يفيد العلم لمن يؤمن بكتابهم، ولمن لا يؤمن به.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾، والاستحسار مبالغة في الحسور وهو الإعياء؛ فكان الأبلغ في وصفهم، أن ينفي عنهم أدنى الحسور أو مُطْلَقَه، لا أقصاه؟

قلنا: إنما ذكر الاستحسار، إشارة إلى أنّ ما هم فيه، من التسبيح الدائم، والعبادة المتّصلة، يوجب غاية الحسور وأقصاه.

فإن قيل: قوله تعالى: في وصف الملائكة ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾. إلى قوله تعالى: ﴿مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ يدلّ على أنهم لا يعصون الله ما أمرهم، فإذا كانوا لا يعصون الله تعالى، فلِمَ يخافون حتّى قال سبحانه: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾؟

قلنا: أولاً: لمّا رأوا ماجرى على إبليس وعلى هاروت وماروت من القضاء والقدر، خافوا من مثل ذلك. ثانياً: أنّ زيادة معرفتهم بالله، وقربهم في محلّ كرامته، يوجب مَزِيدَ خوفهم، ولهذا قال أهل التحقيق: من كان بالله أعرف، كان من الله أخوف؛ ومن كان

إلى الله أقرب، كان من الله أرهب. وقال بعضهم ياعجبا من مطيع آمن، ومن عاص خائف.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الآية ٣٠] وهم لم يروا ذلك؟

قلنا: معناه: أولم يعلموا ذلك بأخبارِ مَنْ قَبْلَهُم، أو بوروده في القرآن الذي هو معجزة في نفسه، ونظيره قوله تعالى للنبي (ص) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور/ ٤١] وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور/٤٣]، ونظائره كثيرة.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الآية ٣٠] مع أن الملائكة أحياء والجنّ أحياء، وليسوا مخلوقين من الماء، بل من النور والنار، كما قال تعالى ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥﴾ [الرحمن] وكذا آدم مخلوق من التراب، وناقة صالح مخلوقة من الحجر؟

قلنا: المراد به البعض، وهو الحيوان، كما في قوله تعالى ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل/٢٣] وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس/٢٢] ونظائره كثيرة. الثاني: أنّ الكلّ مخلوقون من الماء، ولكن البعض بواسطة، والبعض بغير واسطة. ولهذا قيل إنه تعالى خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء، وخلق الجنّ من نار خلقها من الماء، وخلق آدم من تراب خلقه من الماء.

فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ۝٣٧﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الآية ٣٧] وكأنه تكليفٌ بما لا يطاق؟

قلنا: هذا، لما ركب فيه الشهوة، وأمره أن يغلبها؛ لأنه أعطاه القدرة، التي يستطيع بها قَمْعَ الشهوة، وتَرْكَ العَجَلة.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥﴾ مع أن الصمّ لا يسمعون الدعاء إذا ما يُبَشَّرون أيضاً؟

قلنا: اللام في الصُمّ إشارةٌ للمنذَرين السابق ذكرهم، بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ [الآية ٤٥] فهي لام العهد، لا لام الجنس.

فإن قيل: لِمَ قال إبراهيم صلوات الله عليه، كما ورد في التنزيل: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ

﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الآية ٦٣] أحال كسر الأصنام على الصنم الكبير، وكان إبراهيم هو الكاسر لها؟

قلنا: أولاً: قاله على طريق الاستهزاء والتهكّم بهم، لا على طريق الجدّ. ثانياً: أنه لما كان الحامل له على كسرها، اغتياظه من رؤيتها مصفوفة مرتّبة للعبادة، مبجّلة معظّمة، وكان اغتياظه من كبيرها أعظم، لمزيد تعظيمهم له، أُسْنِدَ الفعل إليه، كما أسند إلى سببه، وإلى الحامل عليه. ثالثاً: أنه أُسْنِدَ إليه معلّقاً بشرطٍ منتفٍ، لا مطلقاً، تقديره: فعله كبيرهم هذا، إن كانوا ينطقون. فإن قيل: لِمَ خاطَبَ تعالى النار، بقوله: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ والخطاب، إنّما يكون لِمَنْ يعقل؟

قلنا: خطاب التحويل والتكوين لا يختصّ بمن يعقل، قال الله تعالى ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ/١٠] وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت/١١] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ [هود/٤٤].

فإن قيل: لِمَ وصف الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بكونهم من الصالحين، بقوله تعالى ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ [الآية ٨٥]، مع أنّ أكثر المؤمنين صالحون، خصوصاً في الزمن الأول؟

قلنا: معناه أنهم من الصالحين للإدخال في الرحمة، التي أريد بها النبوّة على ما فسّره مقاتل، أو الجنّة على ما فسّره ابن عبّاس رضي الله عنهما؛ ويؤيّد ذلك قول سليمان صلوات الله عليه، كما ورد في التنزيل: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل] أي الصالحين للعمل المرضيّ، الذي سبق سؤاله.

فإن قيل: لم قال تعالى هنا ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الآية ٩١] وقال في سورة التحريم ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم/١٢].

قلنا: حيث أنّث أراد النفخ في ذاتها، وإن كان مبدأ النفخ من الفرج الذي هو مخرج الولد، أو جَيْب درعها على اختلاف القولين، لأنه فُرْجَة، وكل فُرْجة بين شيئين تسمى فَرْجاً في اللغة، وهذا أبلغ في الثناء عليها؛ لأنها إذا منعت جَيْب درعها ممّا لا يحل،

كانت لنفسها أمنع، وحيث ذُكِّرَ فظاهر.

فإن قيل: قوله تعالى ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ يدل على أنه يجب أن يرجعوا، لأنّ كل ماحُرِّمَ أن لا يوجد، وجب أن يوجد، فما معنى الآية؟

قلنا: معناه: واجب على أهل قرية، عزمنا على إهلاكهم، أو قدّرنا إهلاكهم، أنهم لا يرجعون على الكفر إلى الإيمان، أو أنهم لا يرجعون بعد إهلاكهم إلى الدنيا، فالحرام هنا بمعنى الواجب، كذا قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما، ويؤيّده قول الشاعر:

فَإنَّ حَراماً لا أرَى الدَّهرَ باكِياً

عَلى شَجْوَةٍ إلاّ بَكَيتُ عَلى عَمْرِو

وقيل لفظ الحرام على ظاهره، و«لا» زائدة، والمعنى ماسبق ذكره، والحرمة هنا بمعنى المنع، كما في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص/١٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف].

فإن قيل: قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ وقال في موضع آخر: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم/٧١] وواردها ليكون قريباً منها لا بعيداً.

قلنا معناه مُبْعدون عن ألمها وعذابها، مع كونهم وارديها، أو معناه مُبْعدون عنها بعد ورودها، بالإنجاء المذكور بعد الورود، فلا تنافي بينهما.

فإن قيل: لِمَ قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ مع أن النبي (ص) لم يكن رحمة للكافرين، الذين ماتوا على كفرهم، لأنه لولا إرساله إليهم، لمّا عذّبوا بكفرهم، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء].

قلنا: أوّلاً: بل كان رحمة للكافرين أيضاً، من حيث أنّ عذاب الاستئصال أُخّر عنهم بسببه. ثانياً: أنّه كان رحمة عامّة، من حيث أنه جاء بما يُسعدهم إنِ اتّبعوه، ومن لم يتّبعه فهو الذي قصّر في حق نفسه، وضيّع نصيبه من الرحمة؛ ومَثَلُهُ (ص) كمثل عين ماء عذبة، فجّرها الله تعالى، فسقى ناسٌ زروعَهم ومواشيَهم منها فأفلحوا؛ وفرّط ناس في السقي منها، فضيّعوا؛ فالعين في نفسها نعمة من الله تعالى للفريقين ورحمة ، وإن قصّر البعض وفرّطوا. ثالثاً: أن المراد بالرحمة

الـرحـيـم، وهـو (ص) كـان رحـيـمـا للفريقين، ألا ترى أنهم لما شجّوه يوم أحد، وكسروا رباعيّته حتّى خرّ مغشياً عليه، فلمّا أفاق قال اللهمّ اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون؟

فإن قيل لِمَ قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ۝١٠٩﴾ مـع إخباره تعالى إيّاهم بقرب الساعة، بقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل/الآية الأولى] وقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر/الآية الأولى] ونحوهما.

قلنا: معناه ما أدري أنّ العذاب الذي توعدونه وتهدّدون به، ينزل بكم عاجلاً أو آجلاً، وليس المراد به قيام الساعة. ويُردّ على هذا الجواب، أنّه قريب على كل تقدير؛ لأنّه إن كان قبل قيام الساعة، فظاهر، وإن كان بعد قيام الساعة، فهو كالمتّصل بها، لسرعة زمن الحساب، فيكون قريباً أيضاً.

فإن قيل: إذا كان المؤمنون يعتقدون أنّ الله تعالى لا يُحكم إلاّ بالحقّ، فما فائدة الأمر والإخبار المتعلّق بهما، بقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية ١١٢]؟

قلنا: أوّلاً ليس المراد بالحق هنا ما هو نقيض الباطل؛ بل المراد به ما وعده الله تعالى إيّاه، من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وَوَعْدُه لا يكون إلا حقّاً. فكأنّ السّياق: عجّل لنا وغدك وأنجزه. ونظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف]. الثاني: أنه تأكيد لما في التصريح بالصفة من المبالغة، وإن كانت لازمة للفعل، ونظيره في عكسه من صفة الذّمّ، قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران/ ١١٢].

المعاني المجازية في سورة «الأنبياء»(*)

قوله سبحانه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ [الآية ١١] وحقيقة القَصْم، كَسْر الشيء الصُلْب. وجُعل هٰهنا مستعاراً، للتعبير عن إهلاك الجبّارين من أهل القرى، أصْلبَ ما كانوا عيداناً، وأمنَعَ أركاناً.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴿١٥﴾﴾. وفي هذه الآية استعارتان: لأنّه سبحانه جعل القوم الذين أهلكهم بعذابه، بمنزلة النبات المحصود، الذي أُنيمَ بعد قيامه، وأُهمِد بعد اشتطاطه واهتزازه.

والاستعارة الأخرى قوله تعالى: ﴿خَٰمِدِينَ﴿١٥﴾﴾. والخمودُ من صفات النار، كما كان الحصيد من صفات النبات. فكأنه سبحانه، شبّه همود أجسامهم بعد حَراكها، بخمود النار بعد اشتعالها. وقد يجوز أيضاً، والله أعلم، أن يكون المراد تشبيههم بالنبات، الذي حُصد، ثم أحرق. فيكون ذلك أبلغَ في صفتهم بالهلاك والبوار، وامّحاء المعالم والآثار، لاجتماع صفتي الحصد والإحراق. وقال سبحانه: ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴿١٥﴾﴾، ولم يقل خامداً، كما قال تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴿٤﴾﴾ [الشعراء] ولم يقل خاضعة. لأنه، سبحانه، ردّ معنى خاضعين على أصحاب الأعناق. وكذلك يجوز ردّ معنى خامدين على القوم الذين

(*) انتقي هذا المبحث من كتاب: «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للشريف الرضي، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، غير مؤرّخ.

أهلكوا، لا على النبات الذي به شُبّهوا.

وقيل معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ أي سلّطنا عليهم السيف يختليهم، كما تُختلى الزروع بالمنجل. وقد جاء في الكلام: جعله الله حصيد سيفك، وأسير خوفك.

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴿١٨﴾﴾. وهذه استعارة. لأنّ حقيقة القذف من صفات الأشياء الثقيلة، التي يُرْجَم بها، كالحجارة وغيرها. فجعل سبحانه، إيراد الحق على الباطل، بمنزلة الحَجَر الثقيل، الذي يرضّ ماصَكَّهُ، ويدمغ ما مَسَّهُ. ولما بدأ تعالى بذكر قَذْف الحق على الباطل، وَفّى الاستعارة حقّها، وأعطاها واجبها، فقال سبحانه: ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ ولم يقل فيذهبه ويبطله. لأن الدّمغ إنّما يكون عن وقوع الأشياء الثقال، وعلى طريق الغلبة والاستعلاء. فكأنّ الحقّ أصابَ دماغ الباطل فأهلكه. والدماغ مَقْتَلٌ. ولذلك قال سبحانه من بعد: ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ والزاهق: الهالك.

وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الآية ٣٠]. وهذه استعارة. لأن الرَّتْق هو سَدُّ خَصَاصة الشيء. ويقال: رتَقَ فلانٌ الفتْق، إذا سَدّهُ. ومنه قيل للمرأة: رَتْقاء، إذا كان موضع مَرّها من الذَّكَر ملتحماً. وأصل ذلك مأخوذ من قولهم: رَتَقَ فَتْقَ الخباء والفُسْطاط وما يجري مجراهما، إذا خاطه. فكأنّ السموات والأرض كانتا كالشيءِ المَخِيطِ الملتصق بعضه ببعض، ففتقهما سبحانه، بأنْ صدَعَ ما بينهما بالهواء الرقيق، والجوّ الفسيح.

ورُوِيَ عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عليه السلام، معنى أن السموات كانت لا تمطر، والأرض لاتنبت، ففتق الله سبحانه السماء بالأمطار، والأرض بالنبات[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الآية ٣٢] وهذه استعارة. لأن حقيقة السّقف ما أظلّ الإنسان، من علوّ بيت أو خباء، أو ما

(١) نسب الشريف الرضي الكلام للإمام علي بن أبي طالب. وهذا التفسير منسوب لابن عباس رضي الله عنهما؛ انظر «مناهل العرفان في علوم القرآن» للزُّرقاني جـ ١ ص ٤٨٣. ورواية الإمام السّيوطي في «الإتقان» تؤيّد قولنا، انظر ص ١٨٧ جـ ٢ من كتاب «الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي.

يجري مجرى ذلك. فلما كانت السماء تُظِلُّ مَنْ تحتها، وتعلو على أرضها، حَسُنَ أن تسمّى سقفاً لذلك. ومعنى «محفوظاً»: أي تُحْفظ، مما لا يمكن أن تُحْفظ من مثله سائر السقوف، من الانفراج والانهدام والتشعّث والاسترمام. وقد قيل: معنى ذلك، حفظُ السماء من مسارق السمع، وتحصينها بمقاذف الشُهب.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴿٣٣﴾﴾. وهذه استعارة، لأنّ أصل السّبح هو التقلُّب والانتشار في الأرض. ومنه السّباحة في الماء. ولا يكون ذلك إلاّ من حيوان يتصرّف. ولكنّ الله سبحانه، لمّا جعل الليل والنهار والقمر والشمس مسخّرة للتقلّب في هذا الفَلَك الدائر والصفيح السائر، تتعاقب فيه وتتغاير، تتقارب وتتباعد، حَسُنَ أن يعبّر عنها بما يعبّر به عن الحيوان المتصرّف، وزيدت على ذلك شيئاً، فعبّر عنها بما يُعَبَّر به عن الحيوان المميّز. فقيل: «يسبحون»، ولم يقل: تسبح، لأنها، في الجري على الترتيب المتقن والتقدير المحكم، أقوى تصرُّفاً من الحيوان غير المميّز.

ولأن الله سبحانه أضاف إليها الفعل على تدبير ما يعقل، فَحَسُن أن يعبّر عنها بما يعقل، مثل قوله تعالى: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴿٤﴾﴾ [يوسف]. ومثل قوله سبحانه: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل/١٨] فقال سبحانه: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ ولم يقل ادْخُلي. لأن خطابها لمّا خرج على مخرج خطاب من يعقل، كان الأمر لها على مثال أمر من يعقل. وقد مضى الكلام على ذلك فيما تقدّم.

وقوله سبحانه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الآية ٣٧]. وهذه استعارة. والمراد أنّ الإنسان خلق مستعجلاً بطلب ما يؤثره، واستطراف ما يحذره. والله سبحانه إنّما يعطيه ما طلب، ويصرف عنه ما رهب، على حسب ما يعلمه من مصالحه، لا على حسب ما يسنح من مآربه.

وقيل ذلك على طريق المبالغة في وصف الإنسان بالعجلة، كما يقال في الرجل الذكيّ: إنّما هو نار تتوقّد، وللإنسان البليد: إنّما هو حجر جامد.

فأمّا من قال من أصحاب التفسير: إن العَجَل هٰهنا اسم من أسماء الطين،

وأورد عليه شاهداً من الشعر، فلا اعتبار بقوله، ولا التفات إلى شاهده، فإنه شعر مُوَلّد وقول فاسد[1].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾. ولفظ النفحة هٰهنا مستعار. والمراد بها، إصابة الشيء اليسير من العذاب.

يقال: نَفَحَ فلانٌ فلاناً بيده. ونَفَحَ الفَرَسُ فلاناً بحافره. إذا أصابه إصابةً خفيفة، ولم يبلغ في إيلامه الغاية. فكأنّ النّفحةَ هٰهنا قدْرٌ يسير من العذاب، يدلّ واقعه على عظيم متوقعه، وشاهده على فظيع غائبه.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ وهذه استعارة. والمراد بها وصف مالحقهم من الخضوع والاستكانة والإطراق، عند لزوم الحجّة، فكأنّهم شُبّهوا بالمتردّي على رأسه، تدويخاً بنصوع البيان، وإبلاساً عند وضوح البرهان.

وقوله سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾. ولفظ القرية هٰهنا مستعار. والمراد به، الجماعة التي كانت تعمل الخبائث، من أهل القرية. وكشف سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾. وفي هذا الكلام خبر عجيب، لأنه تعالى جعل ما يلي لفظ القرية مؤنّثاً، إذ كانت مؤنّثة، فقال: ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾. وجعل بقية الكلام مذكّراً، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ لأنّ المراد به مذكّر، فصار الكلام في الآية على قسمين، قسم عائد إلى اللفظ، وقسم عائد على المعنى، وهذا من عجائب القرآن.

وقوله سبحانه: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ويسبّح هٰهنا استعارة. وقد مضى من الكلام في «الرّعد» على قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرّعد/١٣] ما هو بعينه تأويل تسبيح

---

(١) أمّا الشعر الذي أنشدوه، ليثبتوا به أن العَجَل هو الطين، فهو قول الشاعر:

والنبعُ في الصّخرة الصمّاء مَنْبِتُهُ ... والنّخل يَنْبُتُ بين الماء والعَجَلِ

انظر «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي جـ ١١ ص ٢٨٩.

الجبال هٰهنا. وقد قيل في ذلك وجه آخر، يخرج به الكلام من حدّ الاستعارة. وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ هٰهنا مأخوذاً من التسبيح، وهو الإبعاد في السير، والتصرّف في الأرض. لا من التسبيح المعروف. فكأنه تعالى قال: وسخّرنا مع داود الجبال يَسِرْن في الأرض معه، ويتصرّفن على أمره، طاعةً له. ونظير ذلك قوله سبحانه في «سبأ»: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ/ ١٠] أي سيري معه. والتأويب السير.

وإنما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ عبارة عنها، بتكثير الفعل من السَّبْح.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمّل] أي تصرّفا ومتّسعاً، ومجالاً ومُنْفَسحاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الآية ٩١]. وهذه استعارة. والمراد هٰهنا بالرُّوح: إجراء روح المسيح (ع)، في مريم (ع)، كما يجري الهواء بالنَّفْخ. لأنه حصل معها من غير عُلُوق من ذكَر، ولا انتقال من طبَق الى طبق.

وأضاف تعالى الروح إلى نفسه، لِمَزيَّةِ الاختصاص بالتعظيم، والاصطفاء بالتكريم. إذ كان خلقه المسيحَ (ع)، مِنْ غير توسُّط مُناكحة، ولا تقدّم مُلامسة.

وقوله سبحانه: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣﴾. وهذه استعارة. والمراد بها: أنهم تفرّقوا في الأهواء، واختلفوا في الآراء، وتقسّمتهم المذاهب، وتشعّبت بهم الولائج[1]. ومع ذلك فجميعهم راجعون إلى الله سبحانه، على أحد وجهين: إمّا أن يكون ذلك رجوعاً في الدنيا، فيكون المعنى: أنهم، وإن اختلفوا في الاعتقادات، صائرون إلى الإقرار بأنّ الله سبحانه خالقهم ورازقهم، ومُصَرِّفُهم ومدبِّرهم. أو يكون ذلك رجوعاً في الآخرة، فيكون المعنى: أنهم راجعون إلى الدار التي جعلها الله تعالى مكان الجزاء على الأعمال، ومَوْفَى الثواب والعقاب؛ وإلى حيث لا يَحْكُم فيهم، ولا يملك أمْرَهم، إلا الله سبحانه.

وشَبَّه تخالُفَهم في المذاهب،

---

(١) الولائج: جمع وليجة، وهي بطانة الإنسان، ومن يتخذه معتمداً عليه من غير أهله.

وتفرّقهم في الطرائق، مع أنّ أصلهم واحد، وخالِقَهم واحد، بقوم كانت بينهم وصائل متناسجة، وعلائق متشابكة، ثمّ تباعدوا تباعداً قَطَعَ تلك العلائق، وشذَّب تلك الوصائل، فصاروا أخيافاً[1] مختلفين، وأوزاعاً[2] مفترقين.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ هذه استعارة، لأنّ الحَصَبَ هو ما يُرمى به من الحصباء، وهي الحصى الصّغار. يقال: حَصَبَ فلانٌ فلاناً، إذا قذفه بالحصى. ويقولون: حَصَبْنَا ٱلْجِمَارَ، أي قذفنا فيها بالحصبات، فشبَّه، سبحانه، قَذْفَهم في نار جهنم، بالحصباء التي يرمى بها من ذُلّ مَقاذفهم، وهَوَان مطارحهم.

وفي ذلك أيضاً معنًى لطيف، وهو أنه سبحانه لما قَالَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ والمراد هٰهنا، والله أعلم، بـ ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾: الأصنام، والأغلب عليها أن تكون من الحجارة، حَسُنَ أن يسمّى الرمي بها في نار جهنم حَصَبًا؛ وتسميتها حَصَباً إذ كانت حجارة، ومن جنس الحصباء، وجاز أن يُسَمَّى قذف العابدين لها في النار أيضاً بذلك، حَمْلاً على حكمها، وإدخالاً في جملتها.

والفائدة في قَذْف الأصنام مع عابديها في نار جهنّم، أن يكون من زيادات عقابهم، ورجحانات عذابهم، لأنّهم إذا كثرت مشاهدتهم لها في أحوال العذاب، كان ذلك أعظم لحسرتهم على عبادتها، ونَدَمهم على الدُّعاء إليها.

وقد قيل أيضاً: إنها إذا حميت بِوَقود النار، نعوذ بالله منها، لَصِقَت بأجسامهم، فكانت من أقوى أسباب الإيلام لهم. وعلى هذا التأويل، حَمَل جماعة من المفسِّرين، قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الآية ١٠٤]. وهذه استعارة والمراد بها على أحد

(١) الأخياف: المختلفون: يقال: هم إخوةٌ أخياف، أي أمّهم واحدة والآباء شتى.

(٢) الأوزاع: الجماعات. ولا واحد لها.

القولين: إبطال السماء ونقض بُنْيَتِهَا، وإعدام جملتها. من قولهم: طوى الدهر آل فلان، إذا أهلكهم وعفّى آثارهم. وعلى القول الآخر، يكون الطَّيُّ هٰهنا على حقيقته فيكون المعنى: إنّ عَرْضَ السمٰوات يُطوى حتى يجتمع بعد انتشاره، ويتقارب بعد تباعد أقطاره. فيصير كالسِّجِلّ المطويّ؛ وهو ما يُكتب فيه من جلد أو قرطاس، أو ثوب، أو ما يجري مجرى ذلك. والكتاب، هٰهُنا، مصدر، نقول: كتبت كِتابةً، وكِتاباً، وكَتْباً، فيكون المعنى يوم نطوي السماء كطيّ السّجلّ ليكتب فيه، فكأنه تعالى قال: كطيّ السجل للكتابة، لأنّ الأغلبَ في هذه الأشياء التي أومأنا إليها أن تُطوى، قبل أن تقع الكتابة فيها؛ لأنّ ذلك الطيّ أبلغ في التمكّن منها.

الفهـــرس

سورة النحل

المبحث الأول

أهداف سورة «النحل» ٣
عرض إجمالي للسورة ٣
التوحيد في السورة ٥
نِعَمُ الله ٥
وحدة الألوهية ٧
أدلة الوحدانية ٩
اسم السورة ٩
مظاهر القدرة الالهية ١٠
الأوامر والنواهي ١١
ختام سورة النحل ١٢

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «النحل» ١٥
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٥
الغرض منها وترتيبها ١٥
إبطال الشرك ١٦
رد شبهة لهم على القرآن ١٦

عود الى إبطال شركهم ١٧
رد شبهة لهم على البعث ١٨
رد شبهة لهم على النبوة ١٨
عود الى إبطال أنواع من الشرك ١٨
عود الى رد شُبَهِهم على القرآن ٢١
الخاتمة ٢٢

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «النحل» ٢٥

المبحث الرابع

مكنونات سورة «النحل» ٢٧

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «النحل» ٢٩

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «النحل» ٣٥

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «النحل» ٣٩

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «النحل» ٥١

سورة الإسراء

المبحث الأول

أهداف سورة «الإسراء» ٦١
الإسراء ٦١

وعد الله لبني اسرائيل ـــــــــ ٦٣
أوهام المشركين، وحجج القرآن الكريم ـــــــــ ٦٥
من أسرار الإعجاز في سورة الإسراء ـــــــــ ٦٧
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «الإسراء» ـــــــــ ٦٩
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ـــــــــ ٦٩
الغرض منها وترتيبها ـــــــــ ٦٩
إثبات الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ـــــــــ ٧٠
الموازنة بين كتابي المسجدين ـــــــــ ٧٠
بيان حكمة الإسراء ـــــــــ ٧٢
عود إلى بيان فضل القرآن ـــــــــ ٧٤
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «الإسراء» ـــــــــ ٧٧
المبحث الرابع
مكنونات سورة «الإسراء» ـــــــــ ٧٩
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «الإسراء» ـــــــــ ٨٣
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الإسراء» ـــــــــ ٨٧
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الإسراء» ـــــــــ ٩١
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الإسراء» ـــــــــ ١٠٥

سورة الكهف

المبحث الأول

أهداف سورة «الكهف» ١١٣
سورة مكية ١١٣
القصص في سورة الكهف ١١٤
قصة أصحاب الكهف ١١٤
قصة موسى والخضر ١١٥
قصة ذي القرنين ١١٧
أهداف سورة الكهف ١١٩

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الكهف» ١٢٥
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٢٥
الغرض منها وترتيبها ١٢٥
المقدمة ١٢٦
قصة أصحاب الكهف ١٢٦
قصة ذي القرنين ١٣١
الخاتمة الآيات ١٣٢

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الكهف» ١٣٥

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الكهف» ١٣٧

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «الكهف» ١٤٣

المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الكهف» ١٤٩
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الكهف» ١٥٣
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الكهف» ١٦٥

سورة مريم

المبحث الأول
أهداف سورة «مريم» ١٧٩
أهداف السورة ١٧٩
القَصص في سورة مريم ١٨٠
حكمة خَلْق عيسى (ع) ١٨٢
قصة ميلاد عيسى (ع) ١٨٣
أسلوب القرآن ١٨٥
المعالم الرئيسة في السورة ١٨٦
المبحث الثاني
ترابط الآيات في سورة «مريم» ١٨٩
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ١٨٩
الغرض منها وترتيبها ١٨٩
نتف من قصص بعض الرسل ١٨٩
انحراف خَلَفِهم عن سُنَنهم ١٩٠
المبحث الثالث
أسرار ترتيب سورة «مريم» ١٩٣

المبحث الرابع
مكنونات سورة «مريم» ١٩٥
المبحث الخامس
لغة التنزيل في سورة «مريم» ١٩٧
المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «مريم» ٢٠٣
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «مريم» ٢٠٧
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «مريم» ٢١٧

سورة طه

المبحث الأول
أهداف سورة «طه» ٢٢١
معنى طه ٢٢١
أهداف السورة ٢٢٢
من أهداف سورة طه: ٢٢٢
قصة موسى (ع) في القرآن ٢٢٣
قصة موسى في سورة طه ٢٢٤
أدلّة موسى (ع) على وجود الله تعالى ٢٢٦
موسى والسحرة ٢٢٧
غرق فرعون ونجاة موسى ٢٢٨
موسى والسامري ٢٢٨
مشاهد القيامة وختام السورة ٢٢٩

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «طه» ٢٣١
تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٣١
الغرض منها وترتيبها ٢٣١
الحث على الصبر ٢٣٢
قصة موسى ٢٣٢
قصة آدم ٢٣٤
الخاتمة ٢٣٥

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «طه» ٢٣٧

المبحث الرابع

مكنونات سورة «طه» ٢٣٩

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «طه» ٢٤١

المبحث السادس

المعاني اللغوية في سورة «طه» ٢٤٥

المبحث السابع

لكل سؤال جواب في سورة «طه» ٢٤٩

المبحث الثامن

المعاني المجازية في سورة «طه» ٢٥٧

سورة الأنبياء

المبحث الأول

أهداف سورة «الأنبياء» ٢٦٥

الغرض منها وترتيبها ٢٦٥

نظم السورة ٢٦٧

أشواط أربعة ٢٦٨

الشوط الأول ٢٦٨

الشوط الثاني ٢٦٨

الشوط الثالث ٢٦٩

الشوط الرابع ٢٦٩

المبحث الثاني

ترابط الآيات في سورة «الأنبياء» ٢٧١

تاريخ نزولها ووجه تسميتها ٢٧١

الغرض منها وترتيبها ٢٧١

إنذارهم باقتراب حسابهم ٢٧١

قصص الأنبياء ٢٧٣

الخاتمة ٢٧٥

المبحث الثالث

أسرار ترتيب سورة «الأنبياء» ٢٧٧

المبحث الرابع

مكنونات سورة «الأنبياء» ٢٧٩

المبحث الخامس

لغة التنزيل في سورة «الأنبياء» ٢٨١

المبحث السادس
المعاني اللغوية في سورة «الأنبياء» ٢٨٥
المبحث السابع
لكل سؤال جواب في سورة «الأنبياء» ٢٨٩
المبحث الثامن
المعاني المجازية في سورة «الأنبياء» ٢٩٥